بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام

مكية في قول الحسن وعِكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤]. وأسند أبو محمد الدارِميّ في مسنده عن كعب قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٥٧١] «اقرؤوا سورة هود يوم الجمعة». وروى الترمذيّ عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضي الله عنه:

[٣٥٧٢] يا رسول الله قد شِبْتَ! قال: «شَيبتني هود والواقعةُ والمرسلاتُ وَعَمَّ يتساءلون وإذا الشّمس كُوِّرت». قال: هذا حديث حسن غريب وقد رُوي شيء من هذا مرسلاً. وأخرجه الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»: حدّثنا سفيان بن وكيع قال حدّثنا محمد بن بِشر عن عليّ بن صالح عن أبي إسحاق عن أبي جُحَيْفة قال:

[٣٥٧٣] قالوا يا رسول الله نراك قد شِبتَ! قال: «شَيبتني هود وأخواتها». قال أبو عبد الله: فالفزع يورث الشّيب وذلك أن الفزع يُذهِل النفس فينشّف رطوبة الجسد؛ وتحت كل شعرة مَنْبع، ومنه يَعْرَق، فإذا انتشف الفزعُ رطوبَته يبست المنابع فيبِس الشعر

[٣٥٧١] أخرجه الدارمي ٢/٤٥٣ برقم ٣٢٨٠ عن عبد الله بن رباح مرسلاً، وكورة بذكر كعب الأحبار وهو مرسل أيضاً، فالحديث ضعيف.

[٣٥٧٢] جيد. أخرجه الترمذي ٣٢٩٣ والحاكم ٢/٤٧٦ من حديث ابن عباس به. وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن. وأخرجه أبو يعلى ١٠٧ من حديث عكرمة عن أبي بكر. وفيه إرسال، عكرمة لم يدرك أبا بكر، وورد من حديث عقبة بن عامر أخرجه الطبراني في الكبير ١٧/٢٨٦ وقال الهيثمي في المجمع ٧/٣٧: رجاله رجال الصحيح.
ومن حديث ابن مسعود رواه الطبراني، وإسناده واهٍ، وورد من حديث سهل بن سعد وإسناده واهٍ جداً، وله شواهد أخرى، انظر الدر المنثور ٣/٥٧٦ ـ ٥٧٧ فالحديث قوي، وانظر المقاصد الحسنة للسخاوي ٦٠٦ والصحيحة ٩٥٥.

[٣٥٧٣] ذكره الحكيم الترمذي في نوادره ص ٢٢٤ وإسناده ضعيف لإرساله، أبو جحيفة تابعي. لكن يصلح شاهداً لما قبله.

وابيضّ، كما ترىٰ الزرع الأخضر بِسقائه، فإذا ذهب سِقاؤه يبس فأبيضّ، وإنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبْسِ جلده، فالنفس تذهل بِوَعيد الله[1] وأهوال ما جاء به الخبر عن الله، فتذبل، ويُنشِّف ماءها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به؛ فمنه تَشيب. وقال الله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ [المزمل: ١٧] فإنما شابوا من الفزع. وأمّا سورة «هود» فلما ذكر الأمم، وما حلّ بهم من عاجل بأس الله تعالى. فأهل اليقين إذا تلوها تَراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطشُ بأعدائه، فلو ماتوا من الفزع لَحقَّ لهم، ولكن الله تبارك وتعالى أسمه يَلطُف بهم في تلك الأحايين حتى يقرؤوا كلامه. وأمّا أخواتها فما أشبهها من السور؛ مثل «الحاقّة» و «سأل سائل» و «إذا الشمس كوّرت» و «القارعة»، ففي تلاوة هذه السّور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانَه وبطشَه فتذهل منه النفوس، وتَشيب منه الرؤوس. قلت وقد قيل: إن الذي شيب النبيّ ﷺ من سورة «هود» قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقال يزيد بن أبان: رأيت رسول الله ﷺ في منامي فقرأت عليه سورة «هود» فلما ختمتها قال: «يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء». قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس: يقال هذه هودُ فاعلم بغير تنوين على أنه أسم للسورة؛ لأنك لو سميت أمرأة بزيد لم تَصرِف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه. وعيسىٰ بن عمر يقول: هذه هود بالتنوين على أنه اسم للسورة؛ وكذا إن سمى أمرأة بزيد؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع، فقلت: هذه هود وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه: والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه.

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر﴾. تقدّم القول فيه. ﴿كِتَٰبٌ﴾ بمعنى هذا كتاب. ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في موضع رفع نعت لكتاب. وأحسن ما قيل في معنى «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» قول قَتَادة؛ أي جعلت محكمة كلّها لا خَلَل فيها ولا باطل. والإحكام منع القول من الفساد، أي نُظمت نظماً مُحْكَماً لا يلحقها تناقض ولا خَلَل. وقال أبن عباس: أي لم ينسخها

---

(١) المراد بذلك فواتح سورة الحج ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة..﴾.

كتاب، بخلاف التوراة والإنجيل. وعلى هذا فالمعنى: أُحكم بعض آياته بأن جعل ناسخاً غير منسوخ. وقد تقدّم القول فيه. وقد يقع ٱسم الجنس على النوع؛ فيقال: أكلت طعام زيد؛ أي بعض طعامه. وقال الحسن وأبو العالية: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالأمر والنهي. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقال قتادة: أحكمها الله من الباطل، ثم فصّلها بالحلال والحرام. مجاهد: أحكمت جملة، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوّة والبعث وغيرها. وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت في التنزيل. وقيل: «فُصِّلت» أنزلت نَجْماً نَجْماً لتُتَدبَّر. وقرأ عكرمة «فَصَلَتْ» مخفّفاً أي حَكَمت بالحق. ﴿مِن لَّدُنْ﴾ أي من عند. ﴿حَكِيمٍ﴾ أي محكم للأمور. ﴿خَبِيرٍ ۝١﴾ بكل كائن وغير كائن.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الكسائيّ والفرّاء. أي بألا؛ أي أحكمت ثم فصّلت بألا تعبدوا إلا الله. قال الزجاج: لئلا؛ أي أحكمت ثم فصّلت لئلا تعبدوا إلا الله. قيل: أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله. ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من الله. ﴿نَذِيرٌ﴾ أي مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه. ﴿وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه. وقيل: هو من قول الله أوّلاً وآخراً؛ أي لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير؛ أي الله نذير لكم من عبادة غيره، كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ عطف على الأوّل. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي ٱرجعوا إليه بالطاعة والعبادة. قال الفرّاء: «ثم» هنا بمعنى الواو؛ أي وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار. وقيل: ٱستغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم. قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. وقد تقدّم هذا المعنى في «آل عمران» مستوفى. وفي «البقرة» عند قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾. وقيل: إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها؛ فالمغفرة أوّل في المطلوب وآخر في السبب. ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر. ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم. وقيل: يمتّعكم يُعمِّركم؛ وأصل الإمتاع الإطالة، ومنه أَمتع اللَّهُ بك ومَتَّع. وقال سهل بن عبد الله: المتاع الحسن ترك الْخَلق والإقبال على الحق. وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: هو الموت. وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمرٍ

مَخُوف، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرَبها؛ والأوّل أظهر؛ لقوله في هذه السورة: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢]. وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى. والله أعلم. قال مقاتل: فأبوا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والقَذَر والجيف والكلاب. ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ أي يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله. وقيل: ويؤت كلّ من فضلت حسناته على سيئاته «فَضْلَهُ» أي الجنة، وهي فضل الله؛ فالكناية في قوله: «فَضْلَهُ» ترجع إلى الله تعالى. وقال مجاهد: هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمله بيده أو رجله، أو ما تطوّع به من ماله فهو فضل الله، يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إن كان كافراً. ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾ أي يوم القيامة، وهو كبير لما فيه من الأهوال. وقيل: اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره: و «تَوَلَّوْا» يجوز أن يكون ماضياً ويكون المعنى: وإن تولّوا فقل لهم إني أخاف عليكم. ويجوز أن يكون مستقبلاً حذفت منه إحدى التاءين والمعنى: قل لهم إن تتولّوا فإني أخاف عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ أي بعد الموت. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾ من ثواب وعقاب.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبيّ ﷺ والمؤمنين، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم. «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» أي يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف، قال ابن عباس: يخفون ما في صدورهم من الشَّحناء والعداوة، ويظهرون خلافه. نزلت في الأخنس بن شريق، وكان رجلاً حُلو الكلام حُلو المنطق، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي له بقلبه على ما يسوء. وقال مجاهد: «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» شكّاً وامتراء. وقال الحسن: يثنونها على ما فيها من الكفر. وقيل: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مرّ بالنبيّ ﷺ ثَنَى صدره وظهره، وطأطأ رأسه وغطّى وجهه، لكيلا يراه النبيّ ﷺ فيدعوه إلى الإيمان؛ حكى معناه عن [1] عبد الله بن شدّاد فالهاء في «مِنْهُ» تعود على النبي ﷺ. وقيل: قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا،

---

(١) ضعيف أخرجه الطبري ١٧٩٥٣ عن عبد الله بن شداد مع اختلاف يسير فيه. وهذا مرسل.

وٱستغشينا ثيابنا، وثَنَينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية. وقيل: إن قوماً من المسلمين كانوا يَتَنَسَّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء، فبيّن الله تعالى أن التَّنَسك ما ٱشتملت عليه قلوبهم من معتقد، وأظهروه من قول وعمل. وروى ٱبن جرير عن محمد بن عبّاد بن جعفر قال سمعت ٱبن عباس رضي الله عنهما يقول: «أَلاَ إِنَّهُمْ تَثْنَوني[1] صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ» قال: كانوا لا يجامعون النساء، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء، فنزلت هذه الآية. وروى غير محمد بن عباد عن ٱبن عباس: «أَلاَ إِنَّهُمْ تَثْنَوِي صُدُورُهُمْ» بغير نون بعد الواو، في وزن تنطوي؛ ومعنى «تَثْنَوِي» والقراءتين الأخريين متقارب؛ لأنها لا تَثْنَوِي حتى يَثْنوها. وقيل: كان بعضهم ينحني على بعض يسارّه في الطّعن على المسلمين، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفىٰ على الله تعالى. «لِيَسْتَخْفُوا» أي ليتواروا عنه؛ أي عن محمد أو عن الله.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يُغطُّون رؤوسهم بثيابهم. قال قَتَادة: أخفى ما يكون العبد إذا حَنَى ظهره، وٱستغشى ثوبه، وأضمر في نفسه هَمّه.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «ما» نفي و «مِنْ» زائدة و «دَابَّةٍ» في موضع رفع؛ التقدير: وما دابة. «إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» «على» بمعنى «مِن»، أي من الله رزقها؛ يدلّ عليه قول مجاهد: كل ما جاءها من رزق فمن الله. وقيل: «على الله» أي فضلاً لا وجوباً. وقيل: وعداً منه حقاً. وقد تقدّم بيان هذا المعنى في «النساء» وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء. «رِزْقُهَا» رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص؛ لأن كثيراً من الدواب هلك قبل أن يُرزق. وقيل: هي عامة في كل دابة: وكل دابة لم ترزق رزقاً تعيش به فقد رُزقت رُوحها؛ ووجه النظم بما قبلُ: أنه سبحانه أخبر برزق الجميع، وأنه لا يَغفُل عن تربيته، فكيف تَخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم؟! والدّابة كل حيوان يَدِبُّ. والرزق حقيقته ما يتغذّى به الحيّ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونماء جسده. ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى المِلك؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعَلَفها؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللّبن ولا يقال: إن اللّبن الذي في الثّدي مِلك للطفل. وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] وليس لنا في السماء مِلك؛ ولأن الرزق لو كان مِلكاً لكان إذا أكل الإنسان من ملك

(١) هذه القراءة عند البخاري ٤٦٨١ والطبري ١٧٩٦٥ و ١٧٩٦٦ و ١٧٩٦٧ عن ابن عباس.

غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محال؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه. وقد تقدّم في «البقرة» هذا المعنى والحمد لله. وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: الذي خلق الرّحى يأتيها بالطّحين، والذي شدق الأشداق هو خالق الأرزاق. وقيل لأبي أسيد: من أين تأكل ؟ فقال: سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا سيد!. وقيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله؛ فقيل له: الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال: كأن ما له إلا السماء ! يا هذا الأرضُ له والسماءُ له؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض؛ وأنشد:

وكيف أخافُ الفقرَ واللّهُ رازقي ... ورازقُ هذا الخلقِ في العُسْرِ واليُسْرِ
تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهم ... وللضَّبِّ في البيداءِ والحُوتِ في البحرِ

وذكر التِّرمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» بإسناده عن زيد بن أسلم:

[٣٥٧٤] أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم، لما هاجروا وقدموا على رسول الله ﷺ في ذلك وقد أَرْمَلوا [(١)] من الزاد، فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسول الله ﷺ يسأله، فلما انتهى إلى باب رسول الله ﷺ سمعه يقرأ هذه الآية ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ فقال الرجل: ما الأشعريّون بأهون الدواب على الله؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله ﷺ؛ فقال لأصحابه: أبشروا أتاكم الغوث، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله ﷺ فوعده؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزاً ولحماً فأكلوا منها ما شاؤوا، ثم قال بعضهم لبعض: لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله ﷺ ليقضي به حاجته؛ فقالوا للرجلين: اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله ﷺ فإنا قد قضينا منه حاجتنا، ثم إنهم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا طعاماً أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به؛ قال: «ما أرسلت إليكم طعاماً» فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم، فسأله رسول الله ﷺ فأخبره ما صنع، وما قال لهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك شيء رزقكموه الله».

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي من الأرض حيث تأوي إليه. ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي

[٣٥٧٤] ضعيف جداً ذكره الحكيم الترمذي في نوادره ص ٢٥٤ عن زيد بن أسلم، وهو ضعيف لكونه مرسلاً، والمتن غريب، وهو شبه موضوع.

---

(١) أي نفد زادهم.

الموضع الذي تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن ٱبن عباس رضي الله عنهما. وقال الربيع بن أنس: «مُستَقَرَّهَا» أيام حياتها. «وَمُسْتَوْدَعَهَا» حيث تموت وحيث تبعث. وقال سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس: «مُسْتقَرَّهَا» في الرّحِم، «وَمُسْتَودَعَهَا» في الصلب. وقيل: «يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا» في الجنة أو في النار. «وَمُسْتَوْدَعَهَا» في القبر؛ يدلّ عليه قوله تعالى في وصف أهل الجنة وأهل النار: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾ [الفرقان: ٧٦] ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦]. ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ أي في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدّم في «الأعراف» بيانه والحمد لله. ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء. قال كعب: خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكناً، ثم خلق الريح فجعل الماء على مَتْنها، ثم وضع العرش على الماء. وقال سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس: إنه سئل عن قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فقال: على أي شيء كان الماء؟ قال: على مَتْن الرِّيح. وروى البخاريّ عن عِمْران بن حُصَين. قال:

[٣٥٧٥] كنت عند النبيّ ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: «ٱقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: بَشَّرْتَنَا فأعطِنا [مرتين] فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «ٱقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قَبِلنا، جئنا لنتفقه في الدِّين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان؟ قال: «كان اللَّهُ ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السمواتِ والأرضَ وكتب في الذِّكْر كلّ شيء» ثم أتاني رجل فقال: يا عِمران أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطَعُ دونها السَّرابُ؛ وايمُ اللّهِ لوددْت أنها قد ذهبتْ ولم أقم.

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ أي خلق ذلك لِيبتلي عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث. وقال قَتَادة: معنى ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾

[٣٥٧٥] صحيح. أخرجه البخاري ٣١٩١ و ٤٣٦٥ و ٤٣٨٦ وأحمد ٤/٤٢٦ وابن أبي شيبة ١٢/٢٠٣ والترمذي ٣٩٥١ وابن حبان ٦١٤٢ من حديث عمران بن حصين.

[هود: ١١] أيكـم أتمّ عقلاً. وقال الحسن وسفيان الثّوريّ: أيكم أزهد في الدنيا. وذكر أن عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم فقال: يا نائم قم فتعبّدْ، فقال: يا رُوح الله قد تَعبَّدتُ، فقال «وبم تَعَبَّدتَ»؟ قال: قد تركت الدنيا لأهلها؛ قال: نَمْ فقد فقتَ العابدين. الضّحاك: أيكم أكثر شكراً. مقاتل: أيكم أتقى لله. ٱبن عباس: أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل.

ورُوي عن ٱبن عمر.

[٣٥٧٦]: أن النبي ﷺ تلا: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله» فجمع الأقاويل كلها، وسيأتي في «الكهف» هذا أيضاً إن شاء الله تعالىٰ. وقد تقدّم معنىٰ الابتلاء. ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي دللت يا محمد على البعث. ﴿مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾، وذكرت ذلك للمشركين لقالوا: هذا سحر. وكسرت «إنَّ» لأنها بعد القول مبتدأة. وحكىٰ سيبويه الفتح. ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه، وبعده «لَيَقُولُنَّ» لأن فيه ضميراً. و﴿سِحْرٌ﴾ أي غرور باطل، لبطلان السحر عندهم. وقرأ حمزة والكسائي (إنْ هَذَا إلاَّ ساحرٌ مُبِينٌ) كناية عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ اللام في «لَئِنْ» للقسم، والجواب «لَيَقُولُنَّ». ومعنى «إلَى أُمَّةٍ» إلى أجل معدود وحين معلوم؛ فالأمّة هنا المدّة؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد وقَتَادة وجمهور المفسّرين. وأصل الأمّة الجماعة؛ فعبّر عن الحين والسنين بالأمّة لأن الأمّة تكون فيها. وقيل: هو على حذف المضاف؛ والمعنى إلى مجيء أمّة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك. أو إلى ٱنقراض أمّة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد ٱنقراضها من يؤمن. والأمّة ٱسم مشترك يقال على ثمانية أوجه: فالأمّة تكون الجماعة؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ [القصص: ٢٣]. والأمّة أيضاً أتباع الأنبياء عليهم السلام. والأمّة الرجل الجامع للخير الذي يُقتدى به؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]. والأمّة الدِّين والمِلّة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣]. والأمة الحين والزمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ

[٣٥٧٦] باطل. أخرجه الطبري ١٨٠٠٣ من حديث ابن عمر، وفي إسناده داود بن المحبر، جاء في الميزان للذهبي: قال الدارقطني: كتاب العقل وضعه ميسرة بن عبد ربه، وسرقه منه داود بن المحبر اهـ وهذا الحديث فيه ذكر العقل فهو منها.

﴿ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] والأمّة القامة، وهو طول الإنسان وارتفاعه؛ يقال من ذلك: فلان حسن الأُمَّة أي القامة. والأمّة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يُشْرِكُه فيه أحد؛ قال النبي ﷺ:

[٣٥٧٧] «يُبْعَثُ زيدُ بن عمرو بن نُفَيْل أمّة وحده». والأمة الأم؛ يقال: هذه أمّة زيد، يعني أمّ زيد. ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ يعني العذاب؛ وقالوا هذا إما تكذيباً للعذاب لتأخره عنهم، أو استعجالاً واستهزاء؛ أي ما الذي يحبسه عنا. ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قيل: هو قتل المشركين ببدر؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتي. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي نزل وأحاط. ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ أي جزاء ما كانوا به يستهزئون، والمضاف محذوف.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسان ٱسم شائع للجنس في جميع الكفار. ويقال: إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلت. وقيل: في عبد الله بن أبي أميّة المخزوميّ. ﴿رحمة﴾ أي نعمة. ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ أي سلبناه إياها. ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ أي يائس من الرحمة. ﴿كَفُورٌ ۝٩﴾ للنعم جاحد لها؛ قاله ٱبن الأعرابي. النحاس: «لَيَؤُوسٌ» من يَئِس يَيْأَس، وحكى سيبويه يَئِس يَئِسُ على فَعِل يفعِل، ونظيره حَسِب يَحْسِب ونَعِم يَنْعِم، ويَأَس ييئس[1]؛ وبعضهم يقول: يَئِس يَيْئِسُ؛ ولا يعرف في الكلام العربي إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِل يفعِل؛ وفي واحد منها ٱختلاف. وهو يَئِسٌ و «يَؤُوسٌ» على التكثير كفخور للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ﴾ أي صحة ورخاء وسعة في الرزق. ﴿بَعْدَ

[٣٥٧٧] حسن. أخرجه أحمد ١/١٨٩ والحاكم ٣/٤٣٩ والطبراني ٣٥٠ من حديث سعيد بن زيد، وفيه المسعودي اختلط، وبقية رجاله ثقات. قاله في المجمع ٩/٤١٧، وأخرجه أبو يعلى ٩٧٣ من طريق آخر عن سعيد بن زيد، وإسناده حسن، وكرره الحاكم ٣/٤٤٠ من وجه آخر، وسكت هو والذهبي، وله شواهد راجع المجمع ٩/٤١٧، فالحديث حسن، وقد حسن الهيثمي رواية أبي يعلى، وجوده العراقي في «تخريج الإحياء» ١/٢٩٢، وسبب ذلك أن زيد بن عمرو تبرأ من أديان المشركين وكان موحداً.

---

(١) كذا في الأصول. ولعل الصواب «يَبِسَ يَيْبَسُ».

ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ أي بعد ضُرٍّ وفقر وشدّة. ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أي الخطايا التي تسوء صاحبها من الضُّرّ والفقر. ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ أي يفرح ويفخر بما ناله من السَّعَة وينسى شكر الله عليه؛ يقال: رجل فاخر إذا ٱفتخر ـ وفخور للمبالغة ـ قال يعقوب القارىء: وقرأ بعض أهل المدينة «لَفَرُحٌ» بضم الراء كما يقال: رجل فَطُنٌ وحَذُرٌ ونَدُسٌ. ويجوز في كلتا اللغتين الإسكان لثقل الضمة والكسرة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ يعني المؤمنين، مدحهم بالصبر على الشدائد. وهو في موضع نصب. قال الأخفش: هو ٱستثناء ليس من الأوّل؛ أي لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة. وقال الفرّاء: هو ٱستثناء من ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ﴾ أي من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس يشمل الكافر والمؤمن؛ فهو ٱستثناء متصل وهو حسن. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ابتداء وخبر. ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف. ﴿كَبِيرٌ ۝١١﴾ صفة.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه. وقيل: إنهم لما قالوا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ هَمَّ أن يدع سبّ آلهتهم فنزلت هذ الآية؛ فالكلام معناه الاستفهام؛ أي هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك؟ وتأكد عليه الأمر في الإبلاغ؛ كقوله: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٥] وقيل: معنى الكلام النفي مع ٱستبعاد؛ أي لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك؛ وذلك أن مشركي مكة قالوا للنبي ﷺ: لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك، فهَمّ النبي ﷺ أن يدع سبّ آلهتهم؛ فنزلت.

قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ عطف على «تَارِكٌ» و «صَدْرُكَ» مرفوع به، والهاء في «به» تعود على «ما» أو على بعض، أو على التبليغ، أو التكذيب. وقال: «ضَائِقٌ» ولم يقل ضيّق ليشاكل «تَارِكٌ» الذي قبله؛ ولأن الضّائق عارض، والضيّق ألزم منه. ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾ في موضع نصب؛ أي كراهية أن يقولوا، أو لئلا يقولوا كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ٤] أي لئلا تضلّوا. أو لأن يقولوا. ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلاّ ﴿أُنزِلَ

﴿عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ يصدقه؛ قاله عبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة المخزوميّ؛ فقال الله تعالى: يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ إنما عليك أن تنذرهم، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ۝١٢﴾ أي حافظ وشهيد.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ «أم» بمعنى بل، وقد تقدّم في «يونس» أي قد أزحت عِلّتهم وإشكالهم في نبوّتك بهذا القرآن، وحَجَجْتَهم به؛ فإن قالوا: افتريته ـ أي أختلقته ـ فليأتوا بمثله مفترىً بزعمهم. ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من الكهنة والأعوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أي في المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللُّسْن البلغاء، وأصحاب الألسن الفصحاء. ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ واعلموا صدق محمد ﷺ، ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٤﴾ استفهام معناه الأمر. وقد تقدّم القول في معنى هذه الآية، وأن القرآن معجز في مقدمة الكتاب. والحمد لله. وقال: «قُلْ فَأْتُوا» وبعده. «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ» ولم يقل لك؛ فقيل: هو على تحويل المخاطبة من الإفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة. وقيل: الضمير في «لَكُمْ» وفي «فَٱعْلَمُوا» للجميع؛ أي فليعلم الجميع «أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ»؛ قاله مجاهد؛ وقيل: الضمير في «لكم» وفي «فاعلموا» للمشركين؛ والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة، ولا تهيأت لكم المعارضة «فَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ». وقيل: الضمير في «لكم» للنبي ﷺ وللمؤمنين، وفي «فاعلموا» للمشركين.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ﴾ كان زائدة، ولهذا جزم بالجواب فقال: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ﴾ قاله الفراء. وقال الزجاج: «مَنْ كَانَ» في موضع جزم بالشرط، وجوابه ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي من يَكُنْ يريد؛ والأول في اللفظ ماض والثاني مستقبل، كما قال زهير:

وَمَنْ هَابَ أسبابَ المنيةِ يَلْقَها ... ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية؛ فقيل: نزلت في الكفار؛ قاله الضحاك، واختاره النحاس؛ بدليل الآية التي بعدها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ أي من أتى منهم بصلة رَحِم أو صدقة نكافئه بها في الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق، لكن لا حسنة له في الآخرة. وقد تقدم هذا المعنى في «براءة» مستوفى. وقيل: المراد بالآية المؤمنون؛ أي من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجل له الثواب ولم يُنقص شيئاً في الدنيا، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا، وهذا كما قال ﷺ:

[٣٥٧٨] «إنما الأعمال بالنيات» فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده، وبحكم ضميره؛ وهذا أمر متفق عليه في الأمم بين كل مِلّة. وقيل: هو لأهل الرياء؛ وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء:

[٣٥٧٩] «صُمتم وصلّيتم وتصدّقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك» ثم قال: «إنّ هؤلاء أولُ من تُسْعَر بهم النار». رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاء شديداً وقال: صدق رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وقرأ الآيتين، خرّجه مسلم في صحيحه بمعناه والترمذيّ أيضاً. وقيل: الآية عامة في كل من ينوي بعمله غير الله تعالى، كان معه أصل إيمان أو لم يكن؛ قاله مجاهد وميمون بن مِهْران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى. وقال ميمون بن مِهْران: ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّي ثوابها؛ فإن كان مسلماً مخلصاً وُفّي في الدنيا والآخرة، وإن كان كافراً وُفّي في الدنيا. وقيل: من كان يريد الدنيا بغزوه مع النبي ﷺ وُفّيها، أي وُفّي أجر الغَزاة ولم يُنقص منها؛ وهذا خصوص والصحيح العموم.

الثانية: قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات»[1]. وتدلك هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان، وتدلّ على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان في معناه.

الثالثة: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة؛ وكذلك الآية التي في «الشورى» ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٤٢] الآية. وكذلك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥]

[٣٥٧٨] متفق عليه. وقد مضى.

[٣٥٧٩] أخرجه مسلم ١٩٠٥ والنسائي ٢٣/٦ والترمذي ٢٣٨٢ وابن حبان ٤٠٨ من حديث أبي هريرة بمعناه، وأتم منه، وفيه ذكر القارىء والمجاهد والمنفق.

قيدها وفسرها التي في «سبحان» ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] إلى قوله: ﴿مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد، وروى الضّحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أنها منسوخة بقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾. والصحيح ما ذكرناه؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهذا ظاهره خبر عن إجابة كلّ داعٍ دائماً على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]. والنسخ في الأخبار لا يجوز؛ لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول؛ ويأتي في «النحل» بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ إشارة إلى التّخليد، والمؤمن لا يُخلَّد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١١٦] الآية. فهو محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرائي على الكفر. وقيل: المعنى ليس لهم إلا النار في أيام معلومة ثم يخرج؛ إما بالشفاعة، وإما بالقَبْضة. والآية تقتضي الوعيد بسلْب الإيمان؛ وفي الحديث الماضي[1] يريد الكفر وخاصة الرياء، إذ هو شرك على ما تقدّم بيانه في «النساء» ويأتي في آخر «الكهف». ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم: وحذف الهاء؛ قال النحاس: هذا لا يحتاج إلى حذف؛ لأنه بمعنى المصدر؛ أي وباطل عمله. وفي حرف أبيّ وعبد الله «وَبَاطِلاً مَا كَانُوا يَعْمَلُون» وتكون «ما» زائدة؛ أي وكانوا يعملون باطلاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ابتداء والخبر محذوف؛ أي أفمن كان على بينة من ربه في اتباع النبيّ ﷺ، ومعه من الفضل ما يتبيّن به كغيره ممن يريد الحياة

(١) هو المتقدم.

الدنيا وزينتها؟! عن علي بن الحسين والحسن بن أبي الحسن. وكذلك قال ٱبن زيد: إن الذي على بيّنة هو من ٱتبع النبيّ محمداً ﷺ. ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ من الله، وهو النبيّ ﷺ. وقيل المراد بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ النبيّ ﷺ، والكلام راجع إلى قوله: «وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ»؛ أي أفمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل ـ على ما يأتي ـ وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ، وهو يعلم أن الله لا يُسْلِمه. والهاء في «ربّه» تعود عليه، وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾. وروى عِكرمة عن ٱبن عباس أنه جبريل؛ وهو قول مجاهد والنَّخَعِيّ. والهاء في «منه» لله عز وجل؛ أي ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل. وقال مجاهد: الشاهد ملَك من الله عزّ وجلّ يحفظه ويُسدّده. وقال الحسن البصري وقَتَادة: الشاهد لسان رسول الله ﷺ. قال محمد بن علي بن الحنفية: قلت لأبي أنت الشاهد؟ فقال: وددت أن أكون أنا هو، ولكنه لسان رسول الله ﷺ. وقيل: هو علي بن أبي طالب؛ روي عن ٱبن عباس أنه قال: هو علي بن أبي طالب[1]؛ وروي عن عليّ أنه قال: ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان؛ فقال له رجل: أي شيء نزل فيك؟ فقال عليّ: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ». وقيل: الشاهد صورة رسول الله ﷺ ووجهه ومخائله؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى النبيّ ﷺ علم أنه رسول الله ﷺ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيّ ﷺ، على قول ٱبن زيد وغيره. وقيل الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد؛ قاله الحسين بن الفضل، فالهاء في «منه» للقرآن. وقال الفرّاء قال بعضهم: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق؛ والهاء في «منه» لله عزّ وجلّ. وقيل: البيّنة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب، والشاهد الذي يتلوه العقلُ الذي رُكِّب في دماغه وأشرق صدره بنوره. ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل الإنجيل. ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحق الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى؛ لأن النبي ﷺ موصوف في كتاب موسى ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابَ مُوسَى﴾ بالنصب؛ وحكاها المهدويّ عن الكَلْبِيّ؛ يكون معطوفاً على الهاء في «يَتْلُوهُ» والمعنى: ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام؛ وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ المعنى من قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى. ويجوز على ما

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره ٢/٤٥٦: هذا القول ضعيف لايثبت له قائل، والصواب أنه جبريل، أو محمد ﷺ اهـ.

ذكره ابن عباس أيضاً من هذا القول أن يُرفع «كتاب» على أن يكون المعنى: ومن قبله كتاب موسى كذلك؛ أي تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد. ﴿إِمَامًا﴾ نصب على الحال. ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إشارة إلى بني إسرائيل، أي يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار؛ حكاه القشيريّ. والهاء في «به» يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبيّ ﷺ. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن أو بالنبيّ عليه السلام. ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني من الملل كلها؛ عن قَتَادة؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير: «الأحزاب» أهل الأديان كلها؛ لأنهم يتحازبون. وقيل: قريش وحلفاؤهم. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي هو من أهل النار؛ وأنشد حسان:

أَوردتموها حياضَ الموتِ ضاحية ... فالنارُ موعدُها والموتُ لاقيها

وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس [عن أبي هريرة][1] عن النبي ﷺ:

[٣٥٨٠] «والذي نفس محمد بيده لاَ يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصرانيٌّ ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلاّ كان من أصحاب النار». ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي في شك. ﴿مِّنْهُ﴾ أي من القرآن. ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي القرآن من الله؛ قاله مقاتل. وقال الكَلْبيّ: المعنى فلا تك في مرية في أن الكافر في النار. «إنَّه الْحَقُّ» أي القول الحق الكائن؛ والخطاب للنبي ﷺ، والمراد جميع المكلَّفين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم ٱفتروا على الله كذباً، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أن له شريكاً وولداً، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي يحاسبهم على أعمالهم. ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعني الملائكة الحفظة؛ عن مجاهد وغيره؛ وقال سفيان: سألت الأعمش عن «الأَشْهَادُ» فقال: الملائكة. الضَّحاك: هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]. وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلّغوا الرسالات. وقال قتادة: عنى الخلائق

[٣٥٨٠] صحيح. أخرجه مسلم ١٥٣ عن أبي يونس عن أبي هريرة مرفوعاً.

---

(١) سقط من الأصل «عن أبي هريرة» والاستدراك من صحيح مسلم.

أجمع. وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن مُحرِز عن ٱبن عمر عن النبي ﷺ، وفيه قال:

[٣٥٨١] «وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كَذَبوا على الله». ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ أي بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن تكون «ٱلَّذِينَ» في موضع خفض نعتاً للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى؛ أي هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك. ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٩﴾ أعاد لفظ «هم» تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ۝٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي فائتين من عذاب الله. وقال ابن عباس: لم يُعجزوني أن آمر الأرض فتنخسف بهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أنصاراً، و«مِنْ» زائدة. وقيل: «ما» بمعنى الذي تقديره: أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله؛ وهو قول ٱبن عباس رضي الله عنهما. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي على قدر كفرهم ومعاصيهم. ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ «ما» في موضع نصب على أن يكون المعنى: بما كانوا يستطيعون السمع. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ۝٢٠﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره. والعرب تقول: جزيته ما فعل وبما فعل؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه[1]:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعل ما أُمِرتَ بهِ ... فقد تَركْتك ذا مالٍ وذا نَشَبِ[2]

ويجوز أن تكون «ما» ظرفا، والمعنى: يضاعف لهم أبداً، أي وقت ٱستطاعتهم

[٣٥٨١] صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤١ و ٦٠٧٠ و ٧٥١٤ ومسلم ٢٧٦٨ وأحمد ٢/ ٧٤ وابن حبان ٧٣٥٥ من حديث ابن عمر وصدره «يدنو المؤمن من ربه يوم القيامة...» الحديث.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب الزبيدي.

(٢) النشب: المال الثابت كالضياع ونحوها.

السمع والبصر، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبداً. ويجوز أن تكون «ما» نافية لا موضع لها؛ إذ الكلام قد تمّ قبلها، والوقف على العذاب كافٍ؛ والمعنى: ما كانوا يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سمعاً ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصار مهتد. قال الفرّاء: ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلّهم في اللوح المحفوظ. وقال الزجاج: لبغضهم النبيّ ﷺ وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه. قال النحاس: وهذا معروف في كلام العرب؛ يقال: فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلاً عليه.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ ٱبتداء وخبر. ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢١﴾ أي ضاع عنهم ٱفتراؤهم وتَلِف.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ للعلماء فيها أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه: «لاَ جَرَمَ» بمعنى حق، فـ «لا» و «جَرَمَ» عندهما كلمة واحدة، و «أنّ» عندهما في موضع رفع؛ وهذا قول الفرّاء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس. قال المهدويّ: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بدّ ولا محالة، وهو قول الفرّاء أيضاً؛ ذكره الثعلبيّ. وقال الزجاج: «لا» هاهنا نفي وهو ردّ لقولهم: إن الأصنام تنفعهم؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك، وجرم بمعنى كَسَب؛ أي كسب ذلك الفعلُ لهم الخسران، وفاعل كسب مضمر، و «أنّ» منصوبة بجرم، كما تقول كَسَب جفاؤُك زيداً غضبه عليك؛ وقال الشاعر:

نَصبنا رأسه في جِذْع نَخْلٍ بما جَرَمَتْ يداه وما ٱعتدينا

أي بما كسبت. وقال الكسائيّ: معنى «لاَ جَرَمَ» لا صَدّ ولا مَنْع عن أنهم. وقيل: المعنى لا قَطعَ قاطعٌ، فحذف الفاعل حين كثر استعماله؛ والجَرْم القَطْع؛ وقد جَرَمَ النَّخْلَ وٱجترَمَه أي صَرَمه فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرَّم وجُرَّامٌ وهذا زمن الجَرَام والجِرَام، وجَرَمتُ صوف الشاة أي جززته، وقد جَرَمتُ منه أي أخذتُ منه؛ مثل جَلَمْت الشيء جَلْماً أي قطعتُ، وجَلَمت الجزورَ أَجلِمها جَلْماً إذا أخذتَ ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجَلْمته ـ ساكنة اللام ـ إذا أخذته أجمع، وهذه جَلَمة الجزور ـ بالتحريك ـ أي لحمها أجمع؛ قاله الجوهريّ. قال النحاس: وزعم الكسائيّ أن فيها أربع لغات: لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ، ولا أَنْ ذا جَرَمَ، قال: وناس من فَزارة يقولون: لا جَرَ أنّهم بغير ميم. وحكى الفرّاء فيه لغتين أخريين قال: بنو عامر يقولون لا ذا جَرَمَ، قال: وناس من

العرب يقولون: لا جُرم بضم الجيم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ «الذين» ٱسم «إنّ» و «آمَنُوا» صلة، أي صدّقوا. ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ عطف على الصلة. قال ٱبن عباس: أخبتوا أنابوا. مجاهد: أطاعوا. قَتادة: خشعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن: الإخبات الخشوع للمخافة الثابتة في القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من الخَبْت وهو الأرض المستوية الواسعة: فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله عزّ وجلّ المستمرّة ذلك على ٱستِواء. «إِلَى رَبِّهِمْ» قال الفرّاء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى: وجهوا إخباتهم إلى ربهم. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ خبر «إنَّ».

قوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ ابتداء، والخبر ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ ﴾ وما بعده. قال الأخفش: أي كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر كالأعمىٰ والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ فردّ إلى الفريقين وهما ٱثنان؛ روي معناه عن قَتادة وغيره. قال الضّحّاك: الأعمى والأصمّ مثلٌ للكافر، والسميع والبصير مثل للمؤمن. وقيل: المعنى هل يستوي الأعمى والبصير، وهل يستوي الأصمّ والسميع. ﴿ مَثَلًا ﴾ منصوب على التمييز. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ في الوصفين وتنظرون.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي ﷺ تنبيهاً له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم. ﴿ إِنِّي ﴾ أي فقال: إني؛ لأن في الإرسال معنى القول. وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو والكسائيّ «أَنّي» بفتح الهمزة؛ أي أرسلناه بأني لكم نذير مبين. ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه؛ كما قال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ثم قال: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي أتركوا الأصنام فلا تعبدوها، وأطيعوا الله وحده. ومن قرأ «إنّي» بالكسر جعله معترضاً في الكلام، والمعنى أرسلناه بألا تعبدوا إلا الله. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ۝٢٦﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ قال أبو إسحق الزجاج: الملأ الرؤساء؛ أي هم مليئون بما يقولون. وقد تقدّم هذا في «البقرة» وغيرها. ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا﴾ أي آدميًا. ﴿مِّثۡلَنَا﴾ نصب على الحال. و«مثلنا» مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين؛ كما قال الشاعر:

* يا رُبَّ مِثْلِكِ في النِّساءِ غَرِيرَةٍ *

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ أَراذل جمع أَرْذُل وأَرْذُل جمع رَذْل؛ مثل كَلْب وأَكْلُب وأَكالب. وقيل: والأراذل جمع الأَرْذل، كأَسَاود جمع الأَسْوَد من الحيّات. والرَّذْل النّذْل؛ أرادوا أتبعك أخِسّاؤنا وسَقَطُنا وسفلتنا. قال الزجاج: نسبوهم إلى الحِياكة؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة. قال النحاس: الأراذل هم الفقراء، والذين لا حسب لهم، والخسيسو الصناعات. وفي الحديث:

[٣٥٨٢] «إنهم كانوا حاكَة وحَجَّامين». وكان هذا جهلاً منهم؛ لأنهم عابوا نبيّ الله ﷺ بما لا عيب فيه؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات، وهم يرسَلون إلى الناس جميعاً، فإذا أسلم منهم الدنيء لم يلحقهم من ذلك نقصان؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم.

قلت: الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء؛ كما قال هِرَقْل لأبي سفيان: أشراف الناس أتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم؛ فقال: هم أتباع الرسل[1]. قال علماؤنا: إنما

[٣٥٨٢] لا أصل له في المرفوع. وإنما ورد عن مجاهد وقتادة وعكرمة، انظر «تفسير البغوي» ٣/ ٣٣٥ و«الدر المنثور» ٥/ ١٦٨.

---

(١) حديث أبي سفيان وهرقل تقدم مراراً.

كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأَنَفة من الانقياد للغير؛ والفقير خلِيٌّ عن تلك الموانع، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد. وهذا غالب أحوال أهل الدنيا.

الثالثة: اختلف العلماء في تعيين السّفلة على أقوال؛ فذكر ٱبن المبارك عن سفيان أن السّفلة هم الذين يَتَقلَّسون[1]، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبون الشهادات. وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السّفِلة الذين يأكلون الدنيا بدينهم؛ قيل له: فمن سفلة السّفلة؟ قال: الذي يُصلح دنيا غيره بفساد دينه. وسئل علي رضي الله عنه عن السّفلة فقال: الذين إذا اجتمعوا غَلَبوا؛ وإذا تفرقوا لم يعرفوا. وقيل لمالك بن أنس رضي الله عنه: مَن السّفلة؟ قال: الذي يسبّ الصحابة. وروي عن ٱبن عباس رضي الله عنهما: الأرذلون الحاكَة والحجّامون. يحيى بن أَكْثَم: الدّبّاغ والكنّاس إذا كان من غير العرب.

الرابعة: إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفِلة، فقال: إن كنتُ منهم فأنتِ طالق؛ فحكى النقاش أن رجلاً جاء إلى التّرمذي فقال: إن ٱمرأتي قالت لي يا سَفِلة، فقلت: إن كنتُ سَفِلة فأنت طالق؛ قال التّرمذيّ: ما صناعتك؟ قال: سماك؛ قال: سَفِلة واللَّهِ، سَفلة والله سفلة.

قلت: وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق، وكذلك على قول مالك، وابن الأعرابي لا يلزمه شيء.

قوله تعالى: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾. أي ظاهر الرأي، وباطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدا يبدو إذا ظهر؛ كما قال:

فاليوم حين بَدَوْن للنُّظار

ويقال للبرّية بادية لظهورها. وبدا لي أن أفعل كذا، أي ظهر لي رأي غير الأول. وقال الأزهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأي. ويجوز أن يكون «بَادِيَ الرَّأْيِ» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة. وحَقّق أبو عمرو الهمزة فقرأ: «بَادِىءَ الرأي» أي أوّل الرأي؛ أي ٱتبعوك حين ٱبتدؤوا ينظرون، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك؛ ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وتَرك الهمز. وانتصب على حذف «في» كما قال عز وجل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾. [الأعراف: ٧] ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي في أتباعه؛ وهذا جحد منهم لنبوّته ﷺ.

---

(١) التقلُّس: استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي على يقين؛ قاله أبو عِمران الجُونيّ. وقيل: على معجزة؛ وقد تقدّم في «الأنعام» هذا المعنى. ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي نبوّة ورسالة؛ عن ٱبن عباس؛ وهي رحمة على الخلق. وقيل: الهداية إلى الله بالبراهين. وقيل: بالإيمان والإسلام. «فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ» أي عمِيت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها. يقال: عَمِيتُ عن كذا، وعَمِي عليّ كذا أي لم أفهمه. والمعنى: فَعميت الرحمةُ؛ فقيل: هو مقلوب؛ لأن الرحمة لا تَعمَى إنما يُعمَى عنها؛ فهو كقولك: أدخلت في القَلَنْسُوة رأسي، ودخل الخفُّ في رجلي. وقرأها الأعمش وحمزة والكسائي «فَعُمِّيَتْ» بضم العين وتشديد الميم على ما لم يُسمَّ فاعله؛ أي فعمّاها الله عليكم؛ وكذا في قراءة أُبيّ «فعَمَّاها» ذكرها الماورديّ. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ قيل: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: الهاء ترجع إلى الرحمة. وقيل: إلى البينة؛ أي أنلزمكم قبولها، وأُوجبها عليكم؟! وهو استفهام بمعنى الإنكار؛ أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها؛ وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول أن يردّ عليهم. وحكى الكسائيّ والفرّاء «أَنُلْزِمْكُمُوهَا» بإسكان الميم الأولى تخفيفاً؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه، وأنشد[1]:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْماً مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلِ[2]

وقال النحاس: ويجوز على قول يونس في غير القرآن أنلزمكمها يجزئ المضمر مجرى المظهر؛ كما تقول: أنلزمكم ذلك. ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها. قال قتادة: والله لو ٱستطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك.

---

(١) هو امرؤ القيس الشاعر الماجن.

(٢) احتقبَ الإثم: احتمله. والواغل: الداخل.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ، والدعاء إلى الله، والإيمان به أجراً أي ﴿مَالًا﴾ فيثقل عليكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ثوابي في تبليغ الرسالة. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به، كما سألت قريش النبيّ ﷺ أن يطرد الموالي والفقراء، حسب ما تقدّم «في الأنعام» بيانه؛ فأجابهم بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عزّ وجلّ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الاختصام؛ أي لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله، فيجازيهم على إيمانهم، ويجازي من طردهم. ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في ٱسترذالكم لهم، وسؤالكم طردهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ قال الفرّاء: أي يمنعني من عذابه. ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي لأجل إيمانهم. ﴿أفلا تذَّكّرون﴾[1] أدغمت التاء في الذال. ويجوز حذفها فتقول: تَذَكَّرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أخبر بتذلّله وتواضعه لله عزّ وجلّ، وأنه لا يدّعي ما ليس له من خزائن الله؛ وهي إنعامه على من يشاء من عباده؛ وأنه لا يعلم الغيب؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ. ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي لا أقول إن منزلتي عند الناس منزلة الملائكة. وقد قالت العلماء: الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، وٱتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين. وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة». ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي تستثقل وتحتقر أعينكم؛ والأصل تزدريهم حذفت الهاء والميم لطول الاسم. والدّال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل في تزدري تَزْتَرِي، ولكن التّاء تبدل بعد الزاي دالا؛ لأن الزّاي مجهورة والتّاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها. ويقال: أَزْرَيتُ عليه إذا عِبتَه. وزرَيتُ عليه إذا حقَّرته. وأنشد الفرّاء:

يُبـاعـدهُ الصـديـقُ وتَـزْدَريـهِ　　حَليلتُـهُ ويَنْهَـرُه الصَّغيـرُ

﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم، أو ينقص ثوابهم. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به. ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي إن قلت هذا الذي تقدّم ذكره. و «إذًا» ملغاة؛ لأنها متوسطة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ

(١) قراءة نافع.

ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها. والجَدَل في كلام العرب المبالغة في الخصومة؛ مشتق من الجَدْل وهو شدّة الفَتْل؛ ويقال للصقر أيضاً أَجْدَل لشدّته في الطّير؛ وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» بأشبع من هذا. وقرأ ٱبن عباس «فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا» ذكره النحاس. والجَدَل في الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قَبِله أنجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخَسِر. وأما الجِدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل في صورة الحقّ فمذموم، وصاحبه في الدّارين ملوم. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي من العذاب. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ في قولك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي إن أراد إهلاككم عذّبكم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي بفائتين. وقيل: بغالبين بكثرتكم، لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا مَلَؤوا الأرض سهلاً وجبلاً على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ إي إبلاغي واجتهادي في إيمانكم. ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي لأنكم لا تقبلون نصحاً؛ وقد تقدّم في «براءة» معنى النصح لغة. ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي يضلّكم. وهذا مما يدلّ على بطلان مذهب المعتزلة والقَدَرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يَعصي العاصي، ولا يَكفر الكافر، ولا يَغوي الغاوي؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فردّ الله عليهم بقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾. وقد مضى هذا المعنى في «الفاتحة» وغيرها. وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّنّاه في «الأعراف» في إغواء الله تعالى إيّاه حيث قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف: ١٦]ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام: «إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي والمضل؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون عُلُوًّا كبيراً. وقيل: «أَنْ يُغْوِيَكُمْ» يهلككم؛ لأن الإضلال يُفضي إلى الهلاك. الطَّبريّ: «يُغْوِيَكُمْ» يهلككم بعذابه؛ حكي عن طيء: أصبح فلان غاوياً أي مريضاً، وأغويته أهلكته، ومنه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩] ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فإليه الإغواء، وإليه الهداية. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون النبي ﷺ. افترى افتعل؛ أي اختلق القرآن من قِبل نفسه، وما أخبر به عن نوح وقومه؛ قاله مقاتل. وقال ابن عباس: هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم. ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ أي اختلقته وافتعلته، يعني الوحي والرسالة. ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي عقاب إجرامي، وإن كنت مُحقاً فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبي. والإجرام مصدر أجرم؛ وهو اقتراف السَّيئة. وقيل المعنى: أي جزاء جُرْمي وكَسْبي. وجَرَم وأَجْرَم بمعنى؛ عن النحاس وغيره. قال[1]:

طَريدُ عَشيرةٍ ورَهينُ جُرْمٍ بما جَرَمَتْ يَدِي وجَنَى لِسَانِي

ومن قرأ «أَجْرَامِي» بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُرْم؛ وذكره النحاس أيضاً. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾ أي من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ «أنه» في موضع رفع على أنه اسم ما لم يُسمَّ فاعله. ويجوز أن يكون في موضع نصب، ويكون التقدير بـ «ـأنه». و «آمَنَ» في موضع نصب بـ «يؤمن» ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم، واستدامة كفرهم، تحقيقاً لنزول الوعيد بهم. قال الضحاك: فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح: ٢٦] الآيتين. وقيل: إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبي نوحاً قال لأبيه: أعطني حجراً؛ فأعطاه حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلام فأدماه؛ فأوحى الله تعالى إليه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ أي فلا تغتَمّ بهلاكهم حتى تكون بائساً؛ أي حزيناً. والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر:

وكم مِن خليلٍ أو حميمٍ رُزِئته فلم أبتئسْ والرُّزْءُ فيه جَلِيلُ

يقال: ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه. والابتئاس حزن في استكانة.

قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي اعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك. «بِأَعْيُنِنَا» أي بمرأى منا وحيث نراك. وقال الرّبيع بن أنس: بحفظنا إياك حفظ

---

(١) البيت للهيرداان السعدي أحد لصوص بني سعد.

من يَراك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فعبّر عن الرؤية بالأعين، لأن الرؤية تكون بها. ويكون جميع الأعين للعظمة لا للتكثير، كما قال تعالىٰ: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٣] ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨] ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٨]. وقد يرجع معنى الأعين في هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩] وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة، وهو سبحانه منّزه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف؛ لا ربّ غيره. وقيل: المعنى «بِأَعْيُنِنَا» أي بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حِفظك ومعونتك؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه. وقيل: «بِأَعْيُنِنَا» أي بعلمنا؛ قاله مقاتل: وقال الضّحاكُ وسفيان: «بِأَعْيُنِنَا» بأمرنا. وقيل: بوحينا. وقيل: بمعونتنا لك على صنعها. «وَوَحْيِنَا» أي على ما أوحينا إليك من صنعتها. ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي لا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي وطفق يصنع. قال زيد بن أسلم(1): مكث نوح ﷺ مائة سنة يَغرس الشّجر ويقطعها وييبسها، ومائة سنة يعملها. وروى ابن القاسم عن ابن أشرس عن مالك قال: بلغني أن قوم نوح مَلَؤوا الأرض، حتى مَلَؤوا السّهل والجبل، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء؛ فمكث نوح يَغرس الشجر مائة عام لعمل السّفينة، ثم جمعها ييبسها مائة عام، وقومه يسخرون؛ وذلك لما رأوه يصنع من ذلك؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان. وروي عن عمرو بن الحارث قال: عمل نوح سفينته ببقاع دمشق، وقطع خشبها من جبل لبنان. وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ: لما استنقذ الله سبحانه وتعالى مَن في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه. «أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فٱصنع الفلك» قال: يا رب ما أنا بنجّار، قال: «بلى فإن ذلك بعيني» فأخذ القدوم فجعله بيده، وجعلت يده لا تُخطىء، فجعلوا يمرّون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبيّ صار نجّاراً؛ فعملها في أربعين سنة.

(١) هذا الأثر وما بعده، متلقى عن أهل الكتاب، ولا حجة في شيء من ذلك.

وحكى الثّعلبيّ وأبو نصر القُشَيريّ عن ابن عباس قال: ٱتخذ نوح السفينة في سنتين. زاد الثّعلبيّ: وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن ٱصنعها كجُؤْجُؤ الطائر. وقال كعب: بناها في ثلاثين سنة، والله أعلم. المهدويّ: وجاء في الخبر[1] أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها. وٱختلفوا في طولها وعرضها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وسمكها ثلاثون ذراعاً؛ وكانت من خشب السّاج، وكذا قال الكَلْبيّ وقَتَادة وعِكْرمة كان طولها ثلثمائة ذراع، والذّراع إلى المَنْكِب. قاله سلمان الفارسيّ. وقال الحسن البصريّ: إن طول السّفينة ألف ذراع ومائتا ذراع، وعرضها ستمائة ذراع. وحكاه الثّعلبيّ في كتاب العرائس. وروى عليّ بن زيد عن يوسف بن مِهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا عنها، فٱنطلق بهم حتى انتهى إلى كَثِيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التراب، قال أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح قال فضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسه، وقد شاب؛ فقال له عيسى: أهكذا هلكت؟ قال: لا بل متُّ وأنا شابّ، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثَمَّ شِبت. قال: أخبرنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة فيها الدوابّ والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطّير. وذكر باقي الخبر على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى. وقال الكَلْبيّ فيما حكاه النقاش: ودخل الماء فيها أربعة أذرع، وكان لها ثلاثة أبواب؛ باب فيه السّباع والطير، وباب فيه الوحش، وباب فيه الرجال والنساء. ٱبن عباس جعلها ثلاث بطون؛ البطن الأسفل للوحوش والسباع والدواب، والأوسط للطعام والشراب، وركب هو في البطن الأعلى، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضاً بين الرجال والنساء، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدس؛ وكان إبليس معهم في الكَوْثَل[2]. وقيل: جاءت الحيّة والعقرب لدخول السفينة فقال نوح: لا أحملكما؛ لأنكما سبب الضرر والبلاء، فقالتا: احملنا فنحن نضمن لك ألا نضرّ أحداً ذَكَرك؛ فمن قرأ حين يخاف مَضَرَّتهما ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: ٧٩] لم تضرّاه؛ ذكره القشيريّ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٥٩٣ فقال: أخرجه إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس موقوفاً، ا هـ. وإسحق بن بشر متهم بوضع الحديث، وهو صاحب كتاب المبتدأ راجع الميزان ٧٣٩.

(٢) الكوثل: مؤخر السفينة. وهذه الآثار لاحجة في شيء منها، ولا فائدة في الوقوف عليها كما قال الفخر الرازي وأبو حيان صاحب البحر، وهي من مجازفات الإسرائيليين.

وغيره. وذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له مرفوعاً من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٥٨٣] «من قال حين يمسي صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة». قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا﴾ ظرف. ﴿مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾. قال الأخفش والكِسائي يقال: سَخرتُ به ومنه. وفي سخريتهم منه قولان: أحدهما ـ أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوّة نجاراً. الثاني ـ لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتاً يمشي على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه. قال ابن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان. ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة. ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ غداً عند الغرق. والمراد بالسخرية هنا الاستجهال؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ تهديد، و «مَنْ» متصلة بـ «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» و «تعلمون» هنا من باب التعدية إلى مفعول؛ أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب. ويجوز أن تكون «مَن» استفهامية؛ أي أيّنا يأتيه العذاب؟. وقيل: «مَن» في موضع رفع بالابتداء و «يَأْتِيهِ» الخبر، و «يُخْزِيهِ» صفة لـ «عذاب». وحكى الكسائي: أن أناساً من أهل الحجاز يقولون: سو تعلمون؛ وقال من قال: «ستعلمون» أسقط الواو والفاء جميعاً. وحكى الكوفيون: سفْ[1] تعلمون؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي يجب عليه وينزل به. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي دائم، يريد عذاب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ اختلف في التنور على أقوال سبعة: الأول ـ أنه وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً؛ قاله ابن عباس وعِكرمة

[٣٥٨٣] باطل. أخرجه ابن عدي ٢/ ٧ من حديث أبي أمامة، وأعله ببشر بن نمير، وأنه متروك، وقال الذهبي: روى نسخة ساقطة اهـ والحديث باطل.

---

(١) ورد في اللسان: قد قالوا: سو يكون. فحذفوا اللام ـ أي لام الفعل ـ وسا يكون فحذفوا اللام وأبدلوا العين طلباً للخفة. وسف يكون فحذفوا العين اهـ أي عين الفعل.

والزّهري وابن عيينة؛ وذلك أنه قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك. الثاني ـ أنه تنور الخبز الذي يخبز فيه؛ وكان تنوراً من حجارة؛ وكان لحوّاء حتى صار لنوح؛ فقيل له: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك. وأنبع الله الماء من التنور، فعلمت به آمرأته فقالت: يا نوح فار الماء من التنور؛ فقال: جاء وعد ربي حقاً. هذا قول الحسن؛ وقاله مجاهد وعطية عن ابن عباس. الثالث ـ أنه موضع اجتماع الماء في السفينة؛ عن الحسن أيضاً. الرابع ـ أنه طلوع الفجر، ونور الصبح؛ من قولهم: نوّر الفجر تنويراً؛ قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. الخامس ـ أنه مسجد الكوفة؛ قاله عليّ بن أبي طالب أيضاً؛ وقاله مجاهد. قال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة. وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الدّاخل مما يلي كندة. وكان فوران الماء منه علماً لنوح، ودليلاً على هلاك قومه. قال الشاعر وهو أمية:

فـار تنّـورُهـم وجـاشَ بمـاءٍ　　صـار فـوق الجبـالِ حتّـى عَـلاهـا

السادس: أنه أعالي الأرض، والمواضع المرتفعة منها؛ قاله قتادة.

السابع: أنه العين التي بالجزيرة «عين الوردة» رواه عِكرمة. وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم، وإنما كان بالشام بموضع يقال له: «عين وَرْدَة» وقال ابن عباس أيضاً: فار تنور آدم بالهند. قال النحاس: وهذه الأقوال ليست[1] بمتناقضة؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض؛ قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١]. فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة. والفَوَران الغَلَيان. والتنور آسم أعجميّ عربته العرب، وهو على بناء فَعّل؛ لأنّ أصل بنائه تَنّر، وليس في كلام العرب نون قبل راء[2]. وقيل: معنى «فَارَ التَّنُّورُ» التمثيل لحضور العذاب؛ كقولهم: حمِي الوطيس إذا آشتدت الحرب. والوطيس التنور. ويقال: فارت قِدر القوم إذا اشتد حربهم؛ قال شاعرهم:

تـركتـم قِـدْرَكـم لا شـيء فيهـا　　وقِـدْرُ القـوم حـاميـةٌ تَفُـورُ

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني ذكراً وأنثىٰ، لبقاء أصل النسل بعد الطوفان. وقرأ حفص: «مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ» بتنوين «كل» أي من كل شيء زوجين. والقراءتان ترجعان إلى معنًى واحدٍ: شـيء معه آخر لا يستغنى عنه. ويقال للاثنين: هما زوجان، في كل آثنين لا يَستغني أحدهما عن صاحبه؛ فإن العرب تسمي كل

---

(١) ومع ذلك هي من الإسرائيليات.

(٢) بل ورد: زنره: أي ملأه. وتزنرَ: دق. والسِّنر: شراسة الخلق. وشنر عليه: عابه.

واحد منهما زوجاً. يقال: له زوجا نعلٍ إذا كان له نعلان. وكذلك عنده زوجا حمامٍ، وعليه زوجا قيود؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم: ٤٥]. ويقال للمرأة هي زوج الرجل، وللرجل هو زوجها. وقد يقال للاثنين هما زوج، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين، والصنفين، وكل ضرب يدعى زوجاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥] أي من كلِّ لون وصنف. وقال الأعشى:

وكـل زوجٍ مـن الـدّيبـاجِ يَلبَسـه أبـو قُـدامـة محبـوٌّ بـذاك مَعَـا

أراد كل ضرب ولون. و «مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ» في موضع نصب بـ «ٱحمل». «ٱثنين» تأكيد. ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي وٱحمل أهلك. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾. «مَن» في موضع نصب بالاستثناء. ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ منهم أي بالهلاك؛ وهو ٱبنه كنعان وٱمرأته وَاعِلَة كانا كافرين. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ قال الضحاك وٱبن جريج: أي ٱحمل من آمن بي، أي من صدّقك؛ فـ «من» في موضع نصب بـ «ٱحمل». ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ قال ٱبن عباس رضي الله عنهما: آمن مِن قومه ثمانون إنساناً، منهم ثلاثة من بنيه؛ سام وحام ويافث، وثلاث كنائِن له. ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل. وورد في الخبر[1] أنه كان في السفينة ثمانية أنفس؛ نوح وزوجته غير التي عوقبت، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جريج ومحمد بن كعب؛ فأصاب حام ٱمرأته في السفينة، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان. قال عطاء: ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيداً لولد سام ويافث. وقال الأعمش: كانوا سبعة؛ نوح وثلاث كنائن[2] وثلاثة بنين؛ وأسقط امرأة نوح. وقال ٱبن إسحق: كانوا عشرة سوى نسائهم؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث، وستة أناس ممن كان آمن به، وأزواجهم جميعاً. و «قَلِيلٌ» رفع بآمن، ولا يجوز نصبه على الاستثناء؛ لأن الكلام قبله لم يتم، إلا أن الفائدة في دخول «إلا» و «ما» لأنك لو قلت: آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن؛ فإذا جئت بما وإلا، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ

(١) لم يرد خبر في عددهم عن الصادق المصدوق ﷺ، وهذا كله متلقى عن أهل الكتاب لاحجة فيه.
(٢) الكَنة: ـ بالفتح ـ امرأة الابن أو الأخ.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ أمر بالركوب؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه. والركوب العلوّ على ظهر الشيء. ويقال: ركبه الدّيْن. وفي الكلام حذف؛ أي آركبوا الماء في السفينة. وقيل: المعنى آركبوها. و «في» للتأكيد كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: ٤٣] وفائدة «في» أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها. قال عِكرمة: ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب، وآستوت على الجُوديّ لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر؛ وقاله قَتَادة وزاد: وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معه: من كان صائماً فليتم صومه، ومن لم يكن صائماً فليصمه. وذكر الطبريّ في هذا حديثاً[1] عن النبيّ ﷺ أن نوحاً ركب في السفينة أوّل يوم من رجب، وصام الشهر أجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء، ففيه أرست على الجوديّ، فصامه نوح ومن معه. وذكر الطبريّ عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة، ومرت بالبيت فطافت به سبعاً، وقد رفعه الله عن الغرق فلم ينله غرق، ثم مضت إلى اليمن ورجعت إلى الجوديّ فاستوت عليه.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مُجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم الله إجراؤها وإرساؤها؛ فمجراها ومرساها في موضع رفع بالابتداء؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب، ويكون التقدير: بسم الله وقت إجرائها ثم حذف وقت، وأقيم «مجراها» مقامه. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «بِسمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا» بفتح الميم و «مُرْسَاهَا» بضم الميم. وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثّاب «بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا» بفتح الميم فيهما؛ على المصدر من جَرت تَجري جرياً ومجرًى، ورَست رُسوًا ومَرْسىً إذا ثبتت. وقرأ مجاهد وسليمان بن جُنْدُب وعاصم الجَحْدَريّ وأبو رَجاء العُطَارِدِيّ: «بِسْمِ ٱللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا» نعت لله عز وجل في موضع جر. ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ؛ أي هو مُجريها ومُرسيها. ويجوز النصب على الحال. وقال الضحّاك: كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مَجراها جرت، وإذا قال بسم ٱلله مَرساها رست. وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن الحسين بن عليّ عن النبي ﷺ قال:

---

(١) موضوع. أخرجه الطبري ١٨٢٠٢ عن عبد الغفور مرسلاً، وعبد الغفور يضع الحديث وعثمان بن مطر متروك.

[٣٥٨٣م] «أمانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧] ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ . وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند أبتداء كل فعل؛ كما بيّناه في البسملة، والحمد لله. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي لأهل السفينة. وروي عن ابن عباس قال: لما كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح أغمز ذنب الفيل، فوقع منه خنزير[(١)] وخنزيرة فأقبلا على الروث؛ فقال نوح: لو غمزت ذنب هذا الخنزير! ففعل، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها تقرضها، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة؛ فأوحى الله إلى نوح أن أمسح جبهة الأسد فمسحها، فخرج منها سِنّوران فأكلا الفئرة. ولما حمل الأسد في السفينة قال: يا رب من أين أطعمه؟ قال: سوف أشغله، فأخذته الحُمَّى؛ فهو الدهرَ محموم. قال ابن عباس: وأوّل ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الإوزّة[(١)]، وآخر ما حمل حمل الحمار؛ قال: وتعلق إبليس بذنبه، ويداه قد دخلتا في السفينة، ورجلاه خارجة بعد، فجعل الحمار يضطرب ولا يستطيع أن يدخل، فصاح به نوح: أدخل ويلك! فجعل يضطرب؛ فقال: أدخل ويلك! وإن كان معك الشيطان؛ كلمة زلّت على لسانه، فدخل ووثب الشيطان فدخل. ثم إن نوحاً رآه يغنّي في السفينة، فقال له: يا لعين ما أدخلك بيتي؟! قال: أنت أذنت لي؛ فذكر له؛ فقال له: قم فاخرج. قال: ما لك بدّ في أن تحملني معك؛ فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك. وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان، واحدة مكان الشمس، والأخرى مكان القمر. ابن عباس: إحداهما بيضاء كبياض النهار، والأخرى سوداء كسواد الليل؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات.
قال الله عز وجل إخباراً ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾[هود: ٧٢] وكما قال الشاعر:

قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ الموج جمع موجة؛ وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح. والكاف للتشبيه، وهي في موضع خفض نعت للموج. وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعاً. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ

[٣٥٨٣]ضعيف جداً. أخرجه أبو يعلىٰ ٦٧٨١ وابن عدي ١٩٨/٧ من حديث الحسين وفيه يحيىٰ بن العلاء الرازي، متروك، وانظر «تفسير الشوكاني» ١٢٣٨ بتخريجي.

---

(١) هذه الروايات من سخافات اليهود، لا تصح عن ابن عباس وأمثاله ولو أعرض المصنف عن مثل هذا لكان أولىٰ.

﴿ٱبْنَهُۥ﴾ قيل: كان كافراً واسمه كنعان. وقيل: يام. ويجوز على قول سيبويه: «ونادى نوح أبنه» بحذف الواو من «ابنه» في اللفظ، وأنشد:

لَـهُ زَجَـلٌ كَأَنَّـهُ صـوتُ حـادِ

فأما «ونَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَ وَكَانَ» فقراءة شاذّة، وهي مروية عن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعروة بن الزبير. وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد «ابنها» فحذف الألف كما تقول: «أبنه»؛ فتحذف الواو. وقال النحاس: وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها. ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي من دين أبيه. وقيل: عن السفينة. وقيل: إن نوحاً لم يعلم أن أبنه كان كافراً، وأنه ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وسيأتي. وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق؛ وقبل رؤية اليأس، بل كان في أوّل ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح. وقرأ عاصم: «يَابُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا» بفتح الياء، والباقون بكسرها. وأصل «يا بنيّ» أن تكون بثلاث ياءات؛ ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير في لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع؛ هذا أصل قراءة من كسر الياء، وهو أيضاً أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفاً لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضاً من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء. قال النحاس: أما قراءة عاصم فمشكلة؛ قال أبو حاتم: يريد يا بُنَيَّاه ثم يحذف؛ قال النحاس: رأيت عليّ بن سليمان يذهب إلي أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة. قال أبو جعفر النحاس: ما علمت أن أحداً من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفاً؛ قال الله عز وجل إخباراً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ [هود: ٧٢] وكما قال الشاعر:

فيـا عجبَـا مِـن رَحْلِهـا المتحمَّـلِ

فيريد يا بنيّا، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول: جاءني عبدا الله في التثنية. والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف. والكسر على أن تحذف الياء للنداء. والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ﴾ أي أرجع وأنضم. ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى﴾ أي يمنعني ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فلا أغرق. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لا مانع؛ فإنه يوم حقّ فيه العذاب على الكفار. وأنتصب «عاصم» على التبرئة. ويجوز «لا عاصم اليوم» تكون لا

بمعنى ليس. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأوّل؛ أي لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج. ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن عاصماً بمعنى معصوم؛ مثل: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[الطارق: ٦] أي مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر:

بطـيءُ القيـامِ رخيـمُ الكـلا ... مِ أَمْسَـى فـؤادِي بـهِ فَـاتِنَـا

أي مفتوناً. وقال آخر:

دَعِ المكـارِمَ لا تَنهـضْ لبغيتهـا ... وٱقعدْ فإنَّك أنتَ الطاعمُ الكَاسِي

أي المطعوم المكسوّ. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون «مَن» في موضع رفع؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم؛ أي إلا الله. وهذا اختيار الطَّبَرِيّ. ويُحسّن هذا أنك لم تجعل عاصماً بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا «إلاّ» بمعنى «لكن». ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ يعني بين نوح وٱبنه. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ قيل: إنه كان راكباً على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى الماء جاء قال: يا أبت فار التنور، فقال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ فما ٱستتمّ المراجعة حتى جاءت مَوْجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق. وقيل: إنه اتخذ لنفسه بيتاً من زجاج يتحصّن فيه من الماء، فلما فار التّنور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوّط فيه ويبول حتى غرق بذلك[2]. وقيل: إن الجبل الذي آوى إليه «طورسيناء».

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ هذا مجاز لأنها موات. وقيل: جعل فيها ما تُميّز به. والذي قال إنه مجاز قال: لو فُتّش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها، وبلاغة رصفِها، واشتمال المعاني فيها. وفي الأثر: إن الله تعالى لا يخلي الأرض من مطر في عام أو عامين، وأنه ما نزل من السماء ماء قطّ إلا بحفظ مَلَك موكّل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظه الملَك. وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١] فجرت بهم السفينة إلى أن تناهىٰ الأمر؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع. يقال: بلَع الماء يبلَعه مثل منع يمنع وبَلِع يبلَع مثل حمِد يحمَد؛ لغتان حكاهما الكسائيّ والفرّاء. والبالُوعة الموضع الذي يشرب الماء. قال ابن العربي: التقى الماءان على أمر قد قدر، ما كان في الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتصّ الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط. وذلك

---

(١) مثل هذا لو لم يذكره المصنف رحمه الله لكان أولى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ وقيل: ميّز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته، وصار ماء السماء بحاراً.

قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ أي نقص؛ يقال: غاض الشيءُ وغِضته أنا؛ كما يقال: نَقَص بنفسه ونَقَصه غيره، ويجوز «غيض» بضم الغين[1]. ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي أحكم وفرغ منه؛ يعني أهلك قوم نوح على تمام وإحكام. ويقال: إن الله تعالى أعقم أرحامهم أي أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فيمن هلك صغير. والصحيح أنه أهلك الوِلدان بِالطّوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم. وحكي أنه لما كثر الماء في السّكك خشيت أمّ صبيّ عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء آستوت على الجبل؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بابنها حتى ذهب بها الماء؛ فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أمّ الصبي.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي هلاكاً لهم. الجُوديّ جبل بقرب الْمَوْصل؛ استوت عليه في العاشر[2] من المحرّم يوم عاشوراء؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه، شكراً لله تعالى؛ وقد تقدّم هذا المعنى. وقيل: كان ذلك يوم الجمعة. وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت، وبقي الجُوديّ لم يتطاول تواضعاً لله، فاستوت السّفينة عليه، وبقيت عليه أعوادها. وفي الحديث أن النبيّ ﷺ قال:

[٣٥٨٤] «لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة». وقال مجاهد: تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق؛ فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً، وتطامن[3] الجوديّ، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورست السُفينة عليه. وقد قيل: إن الجوديّ اسم لكل جبل؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل:

سُبحانه ثُمّ سُبحاناً يَعودُ لَه ... وقَبْلَنا سَبَّحَ الجُوديُّ والجَمَدُ

ويقال: إن الجُوديّ من جبال الجنة؛ فلهذا آستوت عليه. ويقال: أكرم الله ثلاثة

[٣٥٨٤] لا أصل له في المرفوع. وإنما هو من قول قتادة. كذا ذكره السيوطي في الدر ٣/ ٦٠٦ فقال: أخرجه أبو الشيخ وابن أبي حاتم عن قتادة ا هـ وكذا قال ابن كثير ٢/ ٤٦٢.

---

(١) أي بإشمام الكسرة بالضمّ.
(٢) تقدم أنه حديث موضوع.
(٣) طَمَنَ: سكن.

جبال بثلاثة نفر: الجوديّ بنوح، وطورسيناء بموسى، وحِراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

مسألة: لما تواضع الجوديّ وخضع عزَّ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذَلّ، وهذه سُنّة الله في خلقه، يرفع من تخشّع، ويضع من ترفّع؛ ولقد أحسن القائل:

وإذا تـذلّلـتِ الـرّقـابُ تَخشُّعـاً   مِنّـا إليـكَ فعِـزُّهـا فـي ذُلّهـا

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال:

[٣٥٨٥] كانت ناقة للنبي ﷺ تُسمَّى العَضْباء؛ وكانت لا تُسبق؛ فجاء أعرابيّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتدّ ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سُبِقت العضباءُ! فقال رسول الله ﷺ: «إن حقّا على الله ألا يَرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه». وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

[٣٥٨٦] «ما نَقَصت صدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وقال ﷺ:

[٣٥٨٧] «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يَبغِي أحد على أحد ولا يَفخر أحد على أحد». خرجه البخاريّ.

مسألة: نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة. ذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له عن الحسن: أن نوحاً أوّل رسول بعثه الله إلى [أهل] الأرض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. وكان قد: كثرت فيهم المعاصي، وكثرت الجبابرة وعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً، وكان نوح يدعوهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، وكان صبوراً حليماً، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقي نوح؛ فكانوا يدخلون عليه فيخنقونه حتىٰ يترك وَقِيذاً[1]، ويضربونه في

[٣٥٨٥] صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٠١ وأحمد ٣/١٠٣ من حديث أنس. ولم أره عند مسلم ونص الحافظ في «الفتح» ٦/٢٣٩ على أنه تفرد به البخاري، والله أعلم.

[٣٥٨٦] صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٨٨ وأحمد ٢/٢٣٥ والدارمي ١/٣٩٦ والترمذي ٢٠٢٩ وابن حبان ٣٢٤٨ من حديث أبي هريرة.

[٣٥٨٧] صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٦٥ ح ٦٤ وأبو داود ٤٨٩٥ من حديث عياض بن حمار، وأخرجه ابن ماجه ٤٢١٤ من حديث أنس، وحسنه البوصيري، وقال العراقي في تخريج الإحياء ٢/١٩٥: رجاله رجال الصحيح اهـ. وفي إسناد أبي داود حجاج وهو غير قوي.

تنبيه: عزاه المصنف للبخاري والصواب أنه لم يروه.

---

(١) الوَقْذُ: شدة الضرب، والوقيذ: شديد المرض.

المجالس ويطرد؛ وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ» فكان لا يزيدهم ذلك إلا فراراً منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلفّ رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً من كلامه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]. وقال مجاهد وعُبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفَاق قال: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ». وقال ٱبن عباس: إن نوحاً كان يضرب ثم يُلفّ في لِبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ٱبنه وهو يتوكأ على عصا؛ فقال: يا بُنيّ أنظر هذا الشيخ لا يغرّنك، قال: يا أبت أمكنّي من العصا، فأمكنه فأخذ العصا ثم قال: ضعني في الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة مُوضِحة في رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح: «ربّ قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خيرية فاهدهم وإن يك غير ذلك فصبّرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين» فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن؛ قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ؛ أي لا تحزن عليهم. ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ قال: يارب وأين الخشب؟ قال: ٱغرس الشجر. قال: فَغرس السّاج عشرين سنة، وكفّ عن الدعاء، وكفّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجرُ أمره ربه فقطعها وجفّفها، فقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: ٱجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كرأس الدّيك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذنَبه كذنَب الديك؛ وٱجعلها مطبقة وٱجعل لها أبواباً في جنبها، وشدّها بدُسُرٍ، يعني مسامير الحديد. وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطىء. قال ابن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينته من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأوّل، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما، وجعل أولاد آدم أربعين رجلاً وأربعين ٱمرأة في الباب الأعلىٰ وأطبق عليهم، وجعلَ الذرّ[1] معه في الباب الأعلىٰ لضعفها ألا تطأها الدوابّ.

قال الزُّهريّ: إن الله عز وجل بعث ريحاً فحمل إليه من كل زوجين ٱثنين؛ من السباع والطير والوحش والبهائم. وقال جعفر بن محمد: بعث الله جبريل فحشرهم، فجعل يضرب بيديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى،

(١) هذه الآثار متلقاة عن أهل الكتاب لاحجة فيها.

فيدخله السفينة. وقال زيد بن ثابت: استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة، فدفعها بيده في ذنبها؛ فمن ثَم انكسر ذنبها فصار مَعْقوفاً وبدا حَياؤها. ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياؤها؛ قال إسحق: أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحاً حمل أهل السفينة، وجعل فيها من كل زوجين اثنين، وحمل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدة في السفينة قبل أن تظهر الأرض، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكاناً، فلم يجد طيناً ولا تراباً، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبراً فدفنها فيه، فذلك الريش الناتىء في قفا الهدهد موضع القبر؛ فلذلك نتأت أقفية الهداهد. وقال رسول الله ﷺ:

[٣٥٨٨] «كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة». وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره: أن نوحاً عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدّجاج: أنا؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها: أنت مختومة بخاتمي لا تطيري أبداً، أنت ينتفع بك أمتي؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه، ولذلك يقتل في الحل والحَرَم ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت. وبعث الحمامة فلم تجد قراراً فوقعت على شجرة بأرض سيناء فحملت ورقة زيتونة، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادي الحرم، فإذا الماء قد نضب من مواضع الكعبة، وكانت طينتها حمراء، فاختضبت رجلاها، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت: بشراي منكَ أن تهب لي الطوق في عنقي، والخِضاب في رجلي، وأسكنَ الحرَمَ؛ فمسح يده على عنقها وطوقها، ووهب لها الحمرة في رجليها، ودعا لها ولذريتها بالبركة. وذكر الثعلبيّ أنه بعث بعد الغراب التُّدْرُج[1] وكان من جنس الدّجاج؛ وقال: إياك أن تعتذر، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع، وأخذ أولاده عنده رهناً إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

[٣٥٨٨] باطل. أخرجه إسحق بن بشر في كتاب المبتدأ كما في الدر المنثور ٣/ ٥٩٧ من حديث علي، وإسحق هذا متهم بالكذب وسرقة الحديث كما في الميزان.

---

(١) التُّدْرُجُ: طائر يغرد بأصوات جميلة موطنه بلاد فارس.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ أي دعاه. ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي من أهلي الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق؛ ففي الكلام حذف. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني الصدق. وقال علماؤنا: وإنما سأل نوح ربه ٱبنه لقوله: «وَأَهْلَكَ» وترك قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ فلما كان عنده من أهله قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ يدلّ على ذلك قوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي لا تكن ممن لست منهم؛ لأنه كان عنده مؤمناً في ظنه، ولم يك نوح يقول لربه: «إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي» إلا وذلك عنده كذلك؛ إذْ محال أن يسأل هلاك الكفار، ثم يسأل في إنجاء بعضهم؛ وكان ٱبنه يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمان؛ فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفرد به من علم الغيوب؛ أي علمت من حال ٱبنك ما لم تعلمه أنت. وقال الحسن: كان منافقاً؛ ولذلك ٱستحل نوح أن يناديه. وعنه أيضاً: كان ٱبن ٱمرأته؛ دليله قراءة عليّ «وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَا». ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ابتداء وخبر. أي حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي ليس من أهلك الذين وعدتهم أن أنجيهم؛ قاله سعيد بن جُبير. وقال الجمهور: ليس من أهل دينك ولا ولايتك؛ فهو على حذف مضاف؛ وهذا يدلّ على أن حكم الاتفاق في الدِّين أقوى من حكم النسب. ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ قرأ ٱبن عباس وعُروة وعِكرمة ويعقوب والكسائيّ «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ» أي من الكفر والتكذيب؛ وٱختاره أبو عبيد. وقرأ الباقون «عَمَلٌ» أي ٱبنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف؛ قاله الزجاج وغيره. قال[1]:

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتَّى إذا ادَّكَرتْ ... فَإنما هي إقبالٌ وإدبار

أي ذات إقبال وإدبار. وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد. ويجوز أن تكون الهاء للسؤال؛ أي إن سؤالك إياي أن أنجيه عمل غير صالح. قاله قتادة. وقال الحسن: معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ٱبنه. وكان لغير رِشْدَة، وقاله أيضاً مجاهد. قال قتادة سألت الحسن عنه فقال: والله[1] ما كان ٱبنه؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال: «إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي» فقال: لم يقل مني، وهذه إشارة إلى أنه كان ٱبن ٱمرأته من زوج آخر؛ فقلت له: إن الله حكى عنه أنه قال: «إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي» «وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ» ولا يختلف أهل الكتابين أنه ٱبنه؛ فقال الحسن: ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب! إنهم

(١) البيت للخنساء.

يكذِبون. وقرأ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]. وقال ٱبن جريج: ناداه وهو يحسب أنه ٱبنه، وكان ولد على فراشه، وكانت ٱمرأته خانته فيه؛ ولهذا قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾. وقال ٱبن عباس: ما بغت ٱمرأة نبيّ قطّ، وأنه كان ٱبنه لصُلْبه. وكذلك قال الضّحاك وعِكرمة وسعيد بن جُبير وميمون بن مِهران وغيرهم، وأنه كان ٱبنه لصُلْبه. وقيل لسعيد بن جُبير يقول نوح: «إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي» أكان من أهله؟ أكان ٱبنه؟ فسبّح اللّهَ طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمداً ﷺ أنه ٱبنه، وتقول إنه ليس ٱبنه! نعم كان ٱبنه؛ ولكن كان مخالفاً في النية والعمل والدِّين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾؛ وهذا هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به، وإن قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ ليس مما ينفي عنه أنه ٱبنه. وقوله: «فَخَانَتَاهُمَا» يعني في الدِّين لا في الفِراش، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها: نعم. قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التّنور؛ فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفورهذا التّنور، فهذه خيانتها. وخيانة الأخرى أنها كانت تدلّ على الأضياف على ما سيأتي إن شاء الله. والله أعلم. وقيل: الولد قد يسمى عملاً كما يسمى كَسْباً، كما في الخبر:

[٣٥٨٩] «أولادكم من كَسْبكم». ذكره القشيريّ.

الثالثة: في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين. وروي أن ٱبن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطّاه، قال: فعلم مالك أنه قد فهمه الناس؛ فقال مالك: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات. وفيها أيضاً دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرعاً، ومن أهل البيت؛ فمن وصّى لأهله دخل في ذلك ٱبنه، ومن تضمنه منزلُه، وهو في عياله. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الصافات: ٧٥ ـ ٧٦] فسمى جميع من ضمه منزله من أهله.

الرابعة: ودلّت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما: أن الولد للفراش؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذاً بظاهر الفراش. وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير[1] يقول: نرى رسول الله ﷺ إنما قضى بالولد للفراش من أجل ٱبن

[٣٥٨٩] مضى وهو حديث جيد.

(١) عبيد هذا تابعي، وهذا اجتهاد منه.

نوح عليه السلام؛ ذكره أبو عمر في كتاب «التمهيد». وفي الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٣٥٩٠] «الولدُ للفراش وللعاهِر الحَجَر» يريد الخيبة. وقيل: الرّجم بالحجارة. وقرأ عُروة بن الزّبير. «ونَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَا» يريد ٱبن ٱمرأته، وهي تفسير القراءة المتقدّمة عنه، وعن عليّ رضي الله عنه، وهي حجة للحسن ومجاهد؛ إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها لها. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون، أو كراهية أن تكون من الجاهلين؛ أي الآثمين. ومنه قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] أي يحذركم الله وينهاكم. وقيل: المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ٱبن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين؛ فـ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الآية وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام، فشكر الله تذلله وتواضعه. ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ ما فرط من السؤال. ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ أي بالتوبة. ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي أعمالاً. فقال: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي قالت له الملائكة، أو قال الله تعالى له: ٱهبط من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى الأرض؛ فقد ٱبتلعت الماء وجفّت. ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي بسلامة وأمن. وقيل: بتحية. ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ أي نعم ثابتة؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامته. ومنه البِركة لثبوت الماء فيها. وقال ٱبن عباس رضي الله عنهما: نوح آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته؛ على قول قَتادة وغيره، حسب ما تقدّم؛ وفي التنزيل ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ قيل: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة. ودخل في قوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ كل كافر إلى يوم القيامة؛ رُوي ذلك عن محمد بن كعب. والتقدير على هذا: وعلى ذرية أمم ممن معك، وذرية أمم سنمتعهم. وقيل: «مِن»

[٣٥٩٠] أخرجه البخاري ٦٧٥٠ و٦٨١٨ ومسلم ١٤٥٨ والترمذي ١١٥٧ والنسائي ٦/ ١٨٠ وابن ماجه ٢٠٠٦ من حديث أبي هريرة، وله شواهد كثيرة.

للتبعيض، وتكون لبيان الجنس. «وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ» ارتفع «وَأُمَمٌ» على معنى وتكون أمم. قال الأخفش سعيد كما تقول: كلمت زيداً وعمرو جالس. وأجاز الفراء في غير القراءة وأمماً، وتقديره: ونمتّع أمماً. وأعيدت «على» مع «أُمَمٌ» لأنه معطوف على الكاف من «عَلَيْكَ» وهي ضمير المجرور، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره. وقد تقدّم في «النساء» بيان هذا مستوفى في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] بالخفض. والباء في قوله: «بِسَلَامٍ» متعلقة بمحذوف؛ لأنها في موضع الحال؛ أي أهبط مسلّماً عليك. و«مِنَّا» في موضع جر متعلق بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات. «وَعَلَى أُمَمٍ» متعلق بما تعلق به«عَلَيْكَ»؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف. و«من» في قوله: «مِمَّنْ مَعَكَ» متعلق بمحذوف؛ لأنه في موضع جر نعت للأمم. و«مَعَكَ» متعلق بفعل محذوف؛ لأنه صلة «لمن» أي ممن ٱستقر معك، أو آمن معك، أو ركب معك.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ [هود: ٤٩] أي تلك الأنباء، وفي موضع آخر «ذلك» أي ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك. ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ أي لتقف عليها. ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ أي كانوا غير عارفين بأمر الطوفان، والمجوس الآن ينكرونه. ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ خبر أي مجهولة عندك وعند قومك. ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وإذاية القوم كما صبر نوح. وقيل: أراد جهلهم بقصة ٱبن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان فإنه على الجملة. «فَٱصْبِرْ» أي ٱصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من أذى العرب الكفار، كما صبر نوح على أذى قومه. ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظّفر، وفي الآخرة بالفوز. ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ عن الشرك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ

إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا، فهو معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾. وقيل له أخوهم لأنه منهم، وكانت القبيلة تجمعهم؛ كما تقول: يا أخا تميم. وقيل: إنما قيل له أخوهم لأنه من بني آدم كما أنهم من بني آدم؛ وقد تقدّم هذا في «الأعراف» وكانوا عبدة الأوثان. وقيل: هم عادان، عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم الأولى؛ وأما الأخرى فهو شدّاد ولقمان المذكوران في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ [الفجر: ٧]. وعاد ٱسم رجل ثم ٱستمرّ على قوم ٱنتسبو إليه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ بالخفض على اللفظ، و«غيره» بالرفع على الموضع، و«غيرَه» بالنصب على الاستثناء. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي ما أنتم في اتخاذكم إلهاً غيره إلا كاذبون عليه جلّ وعزّ.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ تقدّم معناه. والفِطرة ٱبتداء الخلق. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ تقدّم في أوّل السورة. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة. ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير؛ أي يرسل السماء بالمطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً؛ والعرب تحذف الهاء في مِفعال على النسب، وأكثر ما يأتي مِفعال من أفعل، وقد جاء هاهنا من فَعل؛ لأنه من درّت السماء تَدِر وتَدُر فهي مدرار. وكان قوم هود ـ أعني عاداً ـ أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن كما تقدّم في «الأعراف». ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ عطف على يرسل. ﴿قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ قال مجاهد: شدّة على شدّتكم. الضحاك: خصباً إلى خصبكم. علي بن عيسى: عزّاً على عزّكم. عِكرمة: ولداً إلى ولدكم. وقيل: إن الله حبس عنهم المطر وأعقم الأرحام ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد؛ فقال لهم هود: إن آمنتم أحيى الله بلادكم ورزقكم المال والولد؛ فتلك القوّة. وقال الزجاج: المعنى يزدكم قوّة في النِّعم. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أي حجة واضحة. ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ إصراراً منهم على الكفر.

قوله تعالى: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ ﴾ أي أصابك. ﴿ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي أصنامنا. ﴿ بِسُوٓءٍ ﴾ أي بجنون لسبِّك إياها، عن ٱبن عباس وغيره. يقال: عراه الأمر وٱعتراه إذا أَلَمَّ به. ومنه ﴿ وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ [الحج: ٣٦]. ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ ﴾ أي على نفسي. ﴿ وَٱشْهَدُوٓاْ ﴾ أي وأشهدكم؛ لا أنهم كانوا أهل شهادة، ولكنه نهاية للتقرير؛ أي لتعرفوا ﴿ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي من عبادة الأصنام التي تعبدونها. ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أي أنتم وأوثانكم في عداوتي وضري. ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي لا تؤخرون. وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر الله تعالى. وهو من أعلام النبوّة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾وكذلك قال النبي ﷺ لقريش. وقال نوح ﷺ: ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ [يونس: ٧١] الآية.

قوله تعالى: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ أي رضيت بحكمه، ووثقت بنصره. ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي نفس تدب على الأرض؛ وهو في موضع رفع بالابتداء. ﴿ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أي يصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء؛ أي فلا تصلون إلى ضرى. وكل ما فيه رُوح يقال له دابّ ودابّة؛ والهاء للمبالغة. وقال الفراء: مالكها، والقادر عليها. وقال القتبيّ: قاهرها؛ لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه. وقال الضحّاك: يحييها ثم يميتها؛ والمعنى متقارب. والناصية قُصاص الشّعر في مقدم الرأس. ونَصوتُ الرجل أنصوه نَصْواً أي مددت ناصيته. قال ٱبن جريج: إنما خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلّة والخضوع؛ فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان؛ أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء. وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزوا ناصيته ليعرفوا بذلك فخراً عليه؛ فخاطبهم بما يعرفونه في كلامهم. وقال الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» قوله تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العباد، ثم نظر إليها، ثم خلق خلقه، وقد نفذ بصره في جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن يخلقهم، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة في نواصيهم فذلك النور آخذ بنواصيهم، يجريهم إلى أعمالهم المقدّرة عليهم يوم المقادير. وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٣٥٩١] «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

ولهذا قويت الرسل وصاروا من أولي العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال، فأوفرهم حظاً من الملاحظة أقواهم في العزم، ولذلك ما قوي هود النبي ﷺ حتى قال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾. ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾. وإنما سمِّيت ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة في المقادير، قد نفذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقدرة، ثم وضعت حركات كل من دبّ على الأرض حياً في جبهته بين عينيه، فسُمّي ذلك الموضع منه ناصية؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدّر؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها. ووصف ناصية أبي جهل فقال: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق: ١٦] يخبر أنّ النواصي فيها كاذبة خاطئة؛ فعلى سبيل ما تأوّلوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ. والله أعلم. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ قال النحاس: الصّراط في اللغة المنهاج الواضح؛ والمعنى أن الله جلّ ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق. وقيل: معناه لا خَلل في تدبيره، ولا تفاوت في خلقه سبحانه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ في موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا، فحذفت التاء لاجتماع تاءين. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ بمعنى قد بيّنت لكم. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه. «ويَسْتَخْلِفُ» مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله: «فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ». وروي عن حفص عن عاصم «وَيَسْتَخْلِفْ» بالجزم حملاً على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل: ﴿وَيَذَرْهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1][الأعراف: ١٨٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ أي بتوليكم وإعراضكم. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ أي لكل شيء حافظ. «على» بمعنى اللام؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا بهلاك عاد. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لأن أحداً لا ينجو إلا برحمة الله تعالى، وإن كانت له أعمال صالحة. وفي

[٣٥٩١] أخرجه مسلم ٢٦٥٣ والترمذي ٢١٥٦ وأحمد ٢/١٦٩ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

---

(١) قراءة حفص «ويذرُهم» بضم الراء.

صحيح مسلم والبخاريّ وغيرهما عن النبي ﷺ:

[٣٥٩٢] «لن يُنجي أحداً منكم عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا إلا أن يَتغمَّدني الله برحمة منه». وقيل: معنى «بِرَحْمَةٍ مِنَّا» بأن بيّنا لهم الهدى الذي هو رحمة. وكانوا أربعة آلاف. وقيل: ثلاثة آلاف. ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ أي عذاب يوم القيامة. وقيل: هو الريح العقيم كما ذكر الله في «الذاريات» وغيرها وسيأتي. قال القُشيريّ أبو نصر: والعذاب الذي يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه؛ نعم! لا يبعد أن يبتلي الله نبياً وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصاً للمؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ ابتداء وخبر. وحكى الكسائيّ أن من العرب من لا يصرف «عاداً» فيجعله اسماً للقبيلة. ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي كذّبوا بالمعجزات وأنكروها. ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هودا وحده؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] يعني النبي ﷺ وحده؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه؛ وإنما جمع هاهنا لأن من كذّب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل. وقيل: عصوا هوداً والرسل قبله، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل. ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ أي اتبع سقّاطُهم رؤساءهم. والجبار المتكبر. والعنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له. قال أبو عَبيد: العنِيد والعَنود والعانِد والمعاند المعارض بالخلاف، ومنه قيل للعِرق الذي ينفجر بالدم عانِد. وقال الراجز:

* إنّي كبيرٌ لا أطيقُ العُنَّدَا *

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي أُلحقوها. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي واتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ». ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ قال الفرّاء: أي كفروا نعمة ربهم؛ قال: ويقال كفرته وكَفَرت به، مثل شكرته وشكرت له. ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ أي لا زالوا مبعدين عن رحمة الله. والبعد الهلاك. والبُعد التّباعد من الخير. يقال: بَعُدَ يَبعُد بُعْداً إذا تأخر وتباعد. وبَعِد يبعَد بَعَداً إذا هلك؛ قال:

لا يَبعَدَنْ قومي الذين هُمُ ... سَمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزْرِ

وقال النابغة:

فلا تَبعَدنْ إنّ المنيةَ مَنهَلٌ ... وكل امرىء يوماً به الحالُ زائلُ

[٣٥٩٢] متفق عليه. وقد مضى.

قوله تعالى: ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أي أرسلنا إلى ثمود ﴿ صَٰلِحًا ﴾ أي في النسب. ﴿ ۞وَإِلَىٰ ﴾. وقرأ يحيى بن وثّاب «وَإِلَى ثَمُودٍ» بالتنوين في كل القرآن؛ وكذلك روي عن الحسن. وٱختلف سائر القرّاء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع. وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث. قال النحاس: الذي قال أبو عبيدة ـ رحمه الله ـ من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثموداً يقال له حيّ؛ ويقال له قبيلة، وليس الغالب عليه القبيلة، بل الأمر على ضدّ ما قال عند سيبويه. والأجود عند سيبويه فيما لم يُقـل فيه بنو فلان الصَّرف؛ نحو قريش وثقيف وماأشبههما، وكذلك ثمود، والعلة في ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى. والتأنيث جيد بالغ حسن. وأنشد سيبويه في التأنيث[1]:

غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سَمَاحةً ... وكَفَى قريشَ المعضِلاتِ وسادَهَا

الثانية: قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ تقدّم. ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ابتدأ خلقكم من الأرض، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدّم في «البقرة» و«الأنعام» وهم منه. وقيل: أنشأكم في الأرض. ولا يجوز إدغام الهاء من «غيره» في الهاء من «هو» إلا على لغة من حذف الواو في الإدراج. ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي جعلكم عُمّارها وسكّانها. قال مجاهد: ومعنى «اسْتَعْمَرَكُمْ» أعمركم من قوله: «أعْمر فلان فلاناً داره؛ فهي له عُمْـرى» وقال قَتَادة: أسكنكم فيها؛ وعلى هذين القولين تكون ٱستفعل بمعنى أفعل؛ مثل ٱستجاب بمعنى أجاب. وقال الضّحاك: أطال أعماركم، وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف. ٱبن عباس: أعاشكم فيها. زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن، وغرس أشجار. وقيل: المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها.

الثالثة: قال ٱبن العربيّ قال بعض علماء الشافعية: الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب؛ قال القاضي أبو بكر: تأتي كلمة استفعل في

---

(١) البيت لعدي بن الرقاع.

لسان العرب على معان: منها؛ آستفعل بمعنى طلب الفعل كقوله: آستحملته أي طلبت منه حملاناً؛ وبمعنى آعتقد، كقولهم: استسهلت هذا الأمر آعتقدته سهلاً، أو وجدته سهلاً، وآستعظمته أي آعتقدته عظيماً ووجدته؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت، كقولهم: آستجدته أي أصبته جيـداً. ومنها بمعنى فَعل؛ كقوله: قرّ في المكان وآستقرّ؛ وقالوا وقوله: «يَسْتَهْزِئُونَ» و«يَسْتَسْخِرُونَ» منه؛ فقوله تعالى: «اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» خلقكم لعمارتها، لا على معنى استجدته وآستسهلته؛ أي أصبته جيداً وسهلاً، وهذا يستحيل في الخالق، فيرجع إلى أنه خلق؛ لأنه الفائدة، وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازاً؛ ولا يصح أن يقال: إنه طلبٌ من الله تعالى لعمارتها، فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه، أما إنه يصح أن يقال: أنه آستدعى عمارتها فإنه جاء بلفظ آستفعل، وهو آستدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمراً، وطلب للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى رغبة.

قلت: لم يذكر آستفعل بمعنى أفعل، مثل قوله: استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه وهي:

الرابعة: ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في «البقرة» في السُّكنى والرُّقْبى. وأما العُمْرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تمليك لمنافع الرقبة حياةَ المُعْمَر مدة عمره؛ فإن لم يذكر عقباً فمات المعمر رجعت إلى الذي أعطاها أو لورثته هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعي، وقد تقدّم في «البقرة» حجة هذا القول. الثاني: أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهي هبة مبتولة[1]؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثّوري والحسن بن حيّ وأحمد بن حنبل وآبن شُبْرمة وأبي عُبيد؛ قالوا: من أعمر رجلاً شيئاً حياته فهو له حياته، وبعد وفاته لورثته؛ لأنه قد ملك رقبتها، وشرط المعطي الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله ﷺ قال:

[٣٥٩٣] «العمرى جائزة».

[٣٥٩٤] و«العمرى لمن وُهِبت له». الثالث: إن قال عُمرك ولم يذكر العقب كان

[٣٥٩٣] أخرجه مسلم ١٦٢٥ من حديث جابر، وتقدم.

[٣٥٩٤] أخرجه مسلم ١٦٢٥ ح ٢٥ وأحمد ٣/ ٣٠٤ والطيالسي ١٦٨٧ من حديث جابر، وكرره أحمد ٣/ ٣٩٣ من وجه آخر وكذا البخاري ٢٦٢٥ وأبو داود ٣٥٥٠ كلهم من حديث جابر.

---

(١) بَتَلَهُ: قطعهُ. والمراد غير راجعة إلى الواهب.

كالقول الأوّل: وإن قال لعقبك كان كالقول الثاني؛ وبه قال الزهريّ وأبو ثور وأبو سلَمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب، وقد رُوي عن مالك؛ وهو ظاهر قوله في الموطأ. والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعْمِر؛ إذا انقرض عقب المُعْمَر؛ إن كان المُعْمِر حيّا، وإلا فإلى من كان حيّا من ورثته، وأولى الناس بميراثه. ولا يملك المُعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ العُمْرى المنفعة دون الرقبة. وقد قال مالك في الحبس أيضاً: إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه. وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك العُمْرى قياساً، وهو ظاهر الموطأ. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٥٩٥] «أيّما رجلٍ أعْمر رجلاً عُمْرى له ولعقبِه فقال قد أعطيتُكَها وعقِبَك ما بقي منكم أحد فإنها لمن أعطِيها وأنها لا ترجع إلى صاحبها من أجلِ أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث». وعنه قال:

[٣٥٩٦] إن العمرى التي أجاز رسول الله ﷺ أن يقول: هي لك ولعقبِك، فأما إذا قال: هي لك ما عِشتَ فإنها ترجع إلى صاحبها؛ قال مَعْمَر: وبذلك كان الزّهري يفتي.

قلت: معنى القرآن يجري مع أهل القول الثاني؛ لأن الله سبحانه قال: «وَٱسْتَعْمَرَكُمْ» بمعنى أعمركم؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن؛ وبالعكس الرجل الفاجر؛ فالدنيا ظرف لهما حياة وموتاً. وقد يقال: إن الثناء الحسن يجري مجرى العقِب. وفي التنزيل: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤] أي ثناء حسناً. وقيل: هو محمد ﷺ. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧] وقال: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي سلوه المغفرة من عبادة الأصنام. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إلى عبادته. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ أي قريب الإجابة لمن دعاه. وقد مضى في «البقرة» عند قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ القولُ فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا

[٣٥٩٥] أخرجه مسلم ١٦٢٥ ح ٢٠ ومالك ٢/٧٥٦ وأبو داود ٣٥٥٣ والترمذي ١٣٥٠ والنسائي ٦/٢٧٥ وابن حبان ٥١٣٧ من حديث جابر.

[٣٥٩٦] أخرجه مسلم ١٦٢٥ ح ٢٣ من حديث جابر.

لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيّداً قبل هذا؛ أي قبل دعوتك النبوّة. وقيل: كان صالح يعيب آلهتهم ويشنؤها، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا: انقطع رجاؤنا منك. ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ استفهام معناه الإنكار. ﴿أَن نَّعْبُدَ﴾ أي عن أن نعبد. ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فأن في محل نصب بإسقاط حرف الجر. ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ وفي سورة «إبراهيم» «وَإِنَّا» والأصل وإنّنا؛ فاستثقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة. ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾ الخطاب لصالح، وفي سورة «إبراهيم» «تَدْعُونَنَا» لأن الخطاب للرسل صلوات الله وسلامه عليهم ﴿إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلاً يوجب لديه الريبة. قال الهذلي[1]:

كنتُ إذا أتوتُهُ من غَيْبِ ... يَشُمُّ عِطْفِي ويَبُزُّ ثَوْبِي[2]

* كأنّما أربتُه بريْبِ *

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ تقدّم معناه في قول نوح. ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ استفهام معناه النفي؛ أي لا ينصرني منه إن عصيته أحد. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ أي تضليل وإبعاد من الخير؛ قاله الفرّاء. والتخسير لهم لا له ﷺ؛ كأنه قال: غير تخسير لكم لا لي. وقيل: المعنى ما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ ابتداء وخبر. ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ نصب على الحال، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه في «هَـٰذِهِ». وإنما قيل: ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل ـ على ما طلبوا ـ على أنهم يؤمنون. وقيل: أخرجها من صخرة

---

(١) هو خالد بن زهير.

(٢) يبز ثوبي: يجذبه إليه.

صمّاء منفردة في ناحيةِ الحجر يقال لها الكاثبة، فلما خرجت الناقة ـ على ما طلبوا ـ قال لهم نبي الله صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ أمر وجوابه؛ وحذفت النون من «فذروها» لأنه أمر. ولا يقال: وَذِرَ ولا وَاذِرٌ إلا شاذاً. وللنحويين فيه قولان؛ قال سيبويه: استغنوا عنه بتَرك. وقال غيره: لما كانت الواو ثقيلة وكان في الكلام فِعل بمعناه لا واو فيه ألغوه؛ قال أبو إسحاق الزّجاج: ويجوز رفع «تأكل» على الحال والاستئناف. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ جزم بالنهي. ﴿بِسُوٓءٍ﴾ قال الفرّاء: بعَقْر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي. ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ أي قريب من عَقْرِها.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ إنما عقرها بعضهم؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين. وقد تقدّم الكلام في عقرها في «الأعراف». ويأتي أيضاً. ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ﴾ أي قال لهم صالح تمتعوا؛ أي بنعم الله عزّ وجلّ قبل العذاب. ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ أي في بلدكم، ولو أراد المنزل لقال في دوركم. وقيل: أي يتمتع كل واحد منكم في داره ومسكنه؛ كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي كل واحد طفلاً. وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميّت لا يتلذذ ولا يتمتع بشيء؛ فعقرت يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد. وإنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثاً على ما تقدّم في «الأعراف» فاصفرّت ألوانهم في اليوم الأول، ثم ٱحمرّت في الثاني، ثم ٱسودّت في الثالث، وهلكوا في الرابع؛ وقد تقدّم في «الأعراف».

الثانية: استدلّ علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يُجمع على إقامة أربع ليال قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدّم في «النساء» ما للعلماء في هذا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ أي غير كذب. وقيل: غير مكذوب فيه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ تقدّم. ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ؛ أي من فضيحته وذلّته. وقيل: الواو زائدة؛ أي نجيناهم من خزي يومئذ. ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع «لما» و«حتى» لا غير. وقرأ نافع والكسائيّ «يَوْمَئِذٍ» بالنصب. الباقون بالكسر على إضافة «يوم» إلى «إذ». وقال أبو حاتم:

حدّثنا أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» أدغم الياء في الياء، وأضاف، وكسر الميم في «يومئذ». قال النحاس: الذي يرويه النحويون ـ مثل سيبويه ومن قاربه عن أبي عمرو في مثل هذا ـ الإخفاء؛ فأما الإدغام فلا يجوز، لأنه يلتقي ساكنان، ولا يجوز كسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي في اليوم الرابع صِيح بهم فماتوا؛ وذكَّر لأن الصّيحة والصِّياح واحد. قيل: صيحة جبريل. وقيل: صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا. وقال هنا: «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ» وقال في «الأعراف» ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] وقد تقدّمبيانه هناك. وفي التفسير: أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتة؟! قالوا: فما نصنع؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعُدَدهم، وكانوا فيما يقال ٱثني عشر ألف قبيلة، في كل قبيلة ٱثنا عشر ألف مقاتل[١]، فوقفوا على الطرق والفِجاج، زعموا يلاقون العذاب؛ فأوحى الله تعالى إلى الملَك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرّها، فأدناها من رؤوسهم فاشتوت أيديهم، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش، ومات كل ما كان معهم من البهائم. وجعل الماء يتفوّر من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدّة حره، فما زالوا كذلك، وأوحى الله إلى ملَك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيباً لهم إلى أن غربت الشمس؛ فصيح بهم فأهلكوا. ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾ أي ساقطين على وجوههم، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جَثَمت. ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾ تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هذه قصة لوط عليه السلام، وهو ٱبن عم إبراهيم عليه السلام لَحًّا[٢]، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قِراه، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافاً. وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام؛ قاله ٱبن عباس. الضحّاك: كانوا تسعة. السّدي: أحد عشر ملَكاً

---

(١) هذا من مجازفات مقاتل وأباطيله.

(٢) أي لازق النسب منه.

على صورة الغلمان الحسان الوجوه، ذوو وضاءة وجمال بارع. «بِالْبُشْرَى» قيل: بالولد. وقيل: بإهلاك قوم لوط. وقيل: بشروه بأنهم رسل الله عزّ وجلّ، وأنه لا خوف عليه. ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ نصب بوقوع الفعل عليه؛ كما تقول: قالوا خيراً. وهذا ٱختيار الطبريّ. وأما قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ﴾ [الكهف: ٢٢] فالثلاثة ٱسم غير [قول] مقول. ولو رفعا جميعاً أو نصبا جميعاً ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ جاز في العربية. وقيل: ٱنتصب على المصدر. وقيل: «قالوا سلاماً» أي فاتحوه بصواب من القول. كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣] أي صواباً؛ فسلاماً معنى قلوهم لا لفظه؛ قال معناه ٱبن العربيّ وٱختاره. قال: ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبراً عن الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ [الرعد: ٢٤] ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ [الزمر: ٧٣]. وقيل: دَعَوا له؛ والمعنى سَلِمت سَلاماً. ﴿قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ في رفعه وجهان: أحدهما: على إضمار مبتدأ أي هو سلام، وأمرِي سلام. والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر. وجاز سلام على التنكير لكثرة استعماله، فحذف الألف واللام كما حذفت من لا همّ في قولك اللهم. وقرىء «سِلْمٌ» قال الفرّاء: السّلم والسّلام بمعنى؛ مثل الحِلّ والحلال.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩﴾ فيه أربع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ «أن» بمعنى حتى، قاله كبراء النحويين؛ حكاه ٱبن العربيّ. التقدير: فما لبث حتى جاء. وقيل: «أن» في موضع نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير: فما لبث عن أن جاء؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل؛ فلما حذف حرف الجر بقي «أن» في محل النصب. وفي «لبث» ضمير ٱسم إبراهيم. و«ما» نافية؛ قاله سيبويه. وقال الفراء: فما لبث مجيئه؛ أي ما أبطأ مجيئه؛ فأن في موضع رفع، ولا ضمير في «لبث»، و«ما» نافية؛ ويصح أن تكون «ما» بمعنى الذي، وفي «لبث» ضمير إبراهيم و«أن جاء» خبر «ما» أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ. و﴿حَنِيذٖ ۝٦٩﴾ مشويّ. وقيل: هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار. يقال حنذت الشاة أحنِذها حنذاً أي شويتها، وجعلت فوقها حجارة مُحْمَاة لتنضجها فهي حنيذ. وحَنَذْت الفرس أحنِذه حَنْذاً، وهو أن تُحْضِره شوطا أو شوطين ثم تُظاهِر عليه الجِلال في الشمس ليعرَق، فهو محنوذ وحنِيذ؛ فإن لم يعرق قيل: كَبَا. وحَنَذٌ موضع قريب من المدينة. وقيل: الحنِيذ السَّمِيط. ٱبن عباس وغيره: حنيذ نضِيج. وحنِيذٍ بمعنى محنوذ؛ وإنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله.

الثانية: في هذه الآية من أدب الضّيف أن يُعجّل قِراه، فيقدّم الموجود الميسّر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدَة، ولا يتكلف ما يضرّ به. والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين. وإبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدّم في «البقرة» وليست بواجبة عند عامة أهل العلم؛ لقوله ﷺ:

[٣٥٩٧] «الضّيافة ثلاثة أيامٍ وجائِزته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة». والجائزة العطية والصلة التي أصلها على النّدب. وقال ﷺ:

[٣٥٩٨] «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». وإكرام الجار ليس بواجب إجماعاً، فالضيافة مثله. والله أعلم. وذهب الليث إلى وجوبها تمسكاً بقوله ﷺ:

[٣٥٩٩] «ليلة الضّيف حقّ» إلى غير ذلك من الأحاديث. وفيما أشرنا إليه كفاية، والله الموفق للهداية. قال ابن العربيّ: وقد قال قوم: إن وجوب الضِّيافة كان في صدر الإسلام ثم نسخ، وهذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت، والناسخ لم يرِد؛ وذكر حديث أبي سعيد الخدريّ خرجه الأئمة، وفيه:

[٣٦٠٠] «فاْستضفناهم فأبوا أن يُضيِّفونا فلُدِغ سيّد ذلك الحيّ» الحديثَ. وقال: هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقاً لَلامَ النبيّ ﷺ القوم الذين أَبوا، ولَبيّن لهم ذلك.

الثالثة: اختلف العلماء فيمن يخاطب بها؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية. وقال مالك: ليس على أهل الحضر ضيافة. قال سُحْنون: إنما الضّيافة على أهل القُرى، وأما الحضر فالفُنْدق ينزل فيه المسافر حكىٰ اللغتين صاحب العين وغيره. واحتجوا بحديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

[٣٦٠١] «الضّيافة على أهل الوَبَر وليست على أهل المَدَر». وهذا حديث لا يصح،

[٣٥٩٧] صحيح. أخرجه البخاري ٦٠١٩ و ٦٤٧٦ ومسلم (٤٨) (٤١) ص ١٣٥٢ ومالك ٢/ ٩٢٩ وأحمد ٦/ ٣٨٥ والترمذي ١٩٦٧ وابن حبان ٥٢٨٧ من حديث أبي شُريح الكعبي.

[٣٥٩٨] هو صدر الحديث المتقدم.

[٣٥٩٩] أخرجه أبو داود ٣٧٥٠ والبيهقي في الشعب ٩٥٩٠ من حديث المقدام بأتم منه، وإسناده صحيح على شرطهما. وانظر صحيح أبي داود ٣١٩٠.

[٣٦٠٠] متفق عليه، وقد مضى في تفسير سورة الفاتحة، وفيه قصة اللديغ.

[٣٦٠١] موضوع. أخرجه القضاعي ٢٨٤ وابن عدي ١/ ٢٧٣ والديلمي ٣٨٩٧ من حديث ابن عمر، وفي إسناده إبراهيم بن عبد الله الصنعاني كذبه الدارقطني وغيره، وقال الذهبي في الميزان: ومن مصائبه=

وإبراهيم ٱبن أخي عبد الرزاق متروك الحديث منسوب إلى الكذب، وهذا مما ٱنفرد به، ونسب إلى وضعه؛ قاله أبو عمر بن عبد البر. قال ٱبن العربيّ: الضيافة حقيقة فرض على الكفاية، ومن الناس من قال: إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأْوَاة والأقوات؛ ولا شك أن الضّيف كريم، والضيافة كرامة؛ فإن كان غريباً فهي فريضة.

الرابعة: قال ٱبن العربيّ قال بعض علمائنا: كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب، وهذا حكم بالظن في موضع القطع، وبالقياس في موضع النقل؛ من أين عِلِم أنه قليل؟! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم؛ وعجل لثلاثة عظيم؛ فما هذا التفسير لكتاب الله بالرأي؟! هذا بأمانةِ الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه.

الخامسة: السنة إذا قُدِّم للضّيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل؛ فإن كرامة الضّيف تعجيل التقديم، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه. وروي أنهم كانوا يَنكُتون بِقداح[1] كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم، فلما رأى ذلكَ منهم. ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أضمر. وقيل: أحس؛ والوجوس الدخول؛ قال الشاعر:

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ بهِ فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جَزَعَا

«خِيفَةً» خوفاً؛ أي فزعاً. وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شراً؛ فقالت الملائكة ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾.

السادسة: من أدب الطعام أن لصاحب الضّيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر. روي أن أعرابياً أكل مع سليمان بن عبد الملك، فرأىٰ سليمان في لقمة الأعرابيّ شعرة فقال له: أزل الشعرة عن لقمتك؛ فقال له: أتنظر إليّ نظر من يرى الشّعرة في لقمتي؟! والله لا أكلت معك.

قلت: وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان،

= هذا الحديث فذكره، وقال: فهذا من وضع إبراهيم.

---

(١) هو السهم قبل أن ينصل ويُراش.

وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

ولَلموتُ خيرٌ من زيـارة باخل يُلاحظُ أطرافَ الأَكِيلِ على عَمْدِ

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: أنكرهم، تقول: نكِرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته؛ قال الشاعر[1]:

وأنكرتنِي وما كان الذي نكِرتْ من الحوادِث إلا الشّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين. ويقال: نكِرت لما تراه بعينك. وأنكرت لما تراه بقلبك.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ ابتداء وخبر، أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل: كانت من وراء الستر. وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس. وقال محمد بن إسحق: قائمة تصلي. وفي قراءة عبد الله بن مسعود «وامرأته قائِمة وهو قاعِد».

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قال مجاهد وعِكرمة: حاضت، وكانت آيسة؛ تحقيقاً للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللغويون:

وإني لآتي العِرسَ عند طُهورها وأهجرُها يوماً إذا تَكُ ضاحِكَا

وقال آخر:

وضِحْكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا كمثلِ دمِ الجوفِ يوم اللِّقَا

والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت؛ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعِكرمة؛ أخذا من قولهم: ضحكت الكافورة ـ وهي قشرة الطلعة ـ إذا انشقّت. وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحِكت بمعنى حاضت. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التعجّب؛ قال أبو ذؤيب:

فجاءَ بمزجٍ لم يَرَ الناسُ مثله هو الضَّحْكُ[2] إلا أنه عمل النَّحْلِ

وقال مقاتل: ضحكت من خوف إبراهيم، ورِعدته من ثلاثة نفر، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوّم وحده بمائة رجل. قال: وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم. وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء: لم أسمعه من ثقة؛ وإنما هو كناية. وروي أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه، فضحكت سارة عند ذلك فبشّروها بإسحق. ويقال: كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام

---

(١) هو الأعشى.

(٢) فُسِّر الضحك هنا بالعسل أو الشهد.

سارة تخدمهم، فذلك قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ أي قائمة في خدمتهم. ويقال: «قَائِمَةٌ» لروع إبراهيم «فَضَحِكَتْ» لقولهم: «لاَ تَخَفْ» سروراً بالأمن. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير؛ المعنى: فبشرناها بإسحق فضحكت، أي ضحكت سروراً بالولد، وقد هرِمت؛ والله أعلم أيّ ذلك كان. قال النحاس فيه أقوال: أحسنها ـ أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلما قالوا لا تخف، وأخبروه أنهم رُسُل الله، فـرح بذلك، فضحكت ٱمرأته سروراً بفرحه. وقيل: إنها كانت قالت له: أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطاً إليك، فلما جاءت الرسل بما قالته سرّت به فضحكت؛ قال النحاس: وهذا إن صح إسناده فهو حسن. والضحك ٱنكشاف الأسنان. ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه؛ تقول: رأيت فلاناً ضاحكاً؛ أي مشرقاً. وأتيت على رَوْضة تضحك؛ أي مشرقة. وفي الحديث:

[٣٦٠٢] «إن الله سبحانه يبعث السّحاب فيضحك أحسن الضَّحِك». جعل ٱنجلاءه عن البرق ضَحِكا؛ وهذا كلام مستعار. وروي عن رجل من قرّاء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي. «فَضَحَكت» بفتح الحاء؛ قال المهدوي: وفتح «الحاء» من «فضحكت» غير معروف. وضَحِك يضحَك ضَحْكاً وضِحكاً وضِحِكاً وضَـحِكـا أربع لغات. والضَّحْكة المرّة الواحدة، ومنه قول كُثيّر:

غَلِقت لضَحكتِـهِ رقابُ المـال

قاله الجوهري.

العاشرة: روى مسلم عن سهل بن سعد قال:

[٣٦٠٣] دعا أبو أُسَيْدٍ الساعديّ رسول الله ﷺ في عُرْسه، فكانت ٱمرأته يومئذ خادمهم وهي العَروس. قال سهل: أتدرون ما سقت رسول الله ﷺ؟ أنقعت له تمراتٍ من الليل في تَوْر[1]، فلما أكل سقته إياه. وأخرجه البخاري وترجم له «باب قيام المرأة على الرجال في العُرْس وخدمتهم بالنفس»[2]. قال علماؤنا: فيه جواز خدمة العَروس زوجها وأصحابه في عُرْسها. وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه، ويستخدمهنّ لهم. ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب. والله أعلم.

[٣٦٠٢] أخرجه أحمد ٥/ ٤٣٥ والآجري ص ٢٨٣ وإسناده حسن، رجاله ثقات.

[٣٦٠٣] صحيح أخرجه البخاري ٥١٨٢ ومسلم ٢٠٠٦ من حديث سهل بن سعد.

---

(١) إناء من نحاس وغيره، وصرح البخاري في روايته أنه من حجارة ا هـ انظر الفتح ٩/ ٢٥١.

(٢) أي بنفسها.

الحادية عشرة: ذكر الطبريّ أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا: لا نأكل طعاماً إلا بثمن؛ فقال لهم: «ثمنه أن تذكروا الله في أوّله وتحمدوه في آخره» فقال جبريل لأصحابه: بحق اتخذ الله هذا خليلاً. قال علماؤنا: ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل. وقد كان من الجائز كما يَسَّر الله للملائكة أن يتشكّلوا في صفة الآدمي جسداً وهيئة أن ييسر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضّيافة حتىٰ إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى فجأة.

الثانية عشرة: ودلّ هذا على أن التسمية في أوّل الطعام، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكله معه، فلقي يوماً رجلاً، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم: سمّ الله، قال الرجل لا أدري ما الله؟ فقال له: فاخرج عن طعامي، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له: يقول الله إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة[1]؛ فخرج إبراهيم فزعاً يجرّ رداءه، وقال: ارجع، فقال: لا أرجع حتى تخبرني لم تردّني لغير معنى؟ فأخبره بالأمر؛ فقال: هذا رب كريم، آمنت؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمناً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ لما ولد لإبراهيم إسمٰعيل من هاجر تمنّت سارة أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبياً ويلد نبياً، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر «يعقوبَ» بالنصب. ورفع الباقون؛ فالرفع على معنى: ويحدث لها من وراء إسحٰق يعقوبُ. ويجوز أن يرتفع بالفعل الذي يعمل في «من» كأن المعنى: وثبت لها من وراء إسحق يعقوبُ. ويجوز أن يرتفع بالابتداء، ويكون في موضع الحال؛ أي بشّروها بإسحٰق مقابلاً له يعقوب. والنصب على معنى: ووهبنا لها من وراء إسحٰق يعقوبُ. وأجاز الكسائيّ والأخفش وأبو حاتم أن يكون «يعقوب» في موضع جرّ على معنى: وبشرناها من وراء إسحٰق بيعقوب. قال الفراء: ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض؛ قال سيبويه ولو قلت: مررت بزيد أوّل من أمس وأمس عمرٍو كان قبيحاً خبيثاً؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو، كما تفرق بين الجار والمجرور؛ لأن الجار لا يفصل

---

(١) هذا الأثر من الإسرائيليات كما ذكر القرطبي رحمه الله. ومع ذلك هو منكر، فإن إبراهيم لم يمنعه الطعام بخلا، بل لإجلال الله سبحانه وتعالى.

بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ قال الزجاج: أصلها يا ويلتي؛ فأبدل من الياء ألفاً، لأنها أخفّ من الياء والكسرة؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه؛ وعجبت من ولادتها ومن كون بعلها شيخاً لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر. و﴿ءَأَلِدُ﴾ ٱستفهام معناه التعجب. ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ أي شيخة. ولقد عَجَزت تَعْجِزُ عَجْزاً وعَجَّزت تعجِيزاً؛ أي طعنت في السنّ. وقد يقال: عجوزة أيضاً. وعجزت المرأة بكسر الجيم؛ عظمت عجيزتها عُجْزاً وعَجَزاً بضم العين وفتحها. قال مجاهد: كانت بنت تسع وتسعين سنة. وقال ابن إسحٰق: كانت بنت تسعين سنة. وقيل غير هذا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ أي زوجي. ﴿شَيْخًا﴾ نصب على الحال، والعامل فيه التنبيه أو الإشارة. «وَهَذَا بَعْلِي» ٱبتداء وخبر. وقال الأخفش: وفي قراءة ابن مسعود وأُبيّ «وهذا بعلي شيخ» قال النحاس: كما تقول هذا زيد قائم؛ فزيد بدل من هذا؛ وقائم خبر الابتداء. ويجوز أن يكون «هذا» مبتدأ «وزيد قائم» خبرين؛ وحكى سيبويه: هذا حلوٌ حامضٌ. وقيل: كان إبراهيم ٱبن مائة وعشرين سنة. وقيل: ٱبن مائة فكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة. وقيل: إنها عرضت بقولها: «وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً» أي عن ترك غِشْيانه لها. وسارّة هذه ٱمرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ، وهي بنت عم إبراهيم. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي الذي بشرتموني به لشيء عجيب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ لما قالت: «وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً» وتعجبت، أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أمر الله، أي من قضائه وقدره، أي لا عجب من أن يرزقكما الله الولد، وهو إسحٰق. وبهذه الآية ٱستدلّ كثير من العلماء

على أن الذَّبيح إسمٰعيل، وأنه أسنّ من إسحٰق؛ لأنها بشّرت بأن إسحٰق يعيش حتى يولد له يعقوب. وسيأتي الكلام في هذا؛ وبيانه في «الصافات» إن شاء الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وحكى سيبويه «عليكِم» بكسر الكاف لمجاورتها الياء. وهل هو خبر أو دعاء؟ وكونه إخباراً أشرف؛ لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، المعنى: أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت. وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يُترجّى ولم يتحصّل بعد. ونصب ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه. وقيل: على النداء.

الثالثة: هذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل البيت؛ فدلّ هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت؛ فعائشة رضي الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي ﷺ؛ ممن قال الله فيهم: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ وسيأتي.

الرابعة: ودلّت الآية أيضاً على أنّ منتهى السلام «وَبَرَكَاتُهُ» كما أخبر الله عن صالحي عباده «رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ». والبركة النموّ والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارّة. وروى مالك عن وهب بن كَيْسَان أبي نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: كنت جالساً عند عبد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته؛ ثم زاد شيئاً مع ذلك؛ فقال ٱبن عباس ـ وهو يومئذ قد ذهب بصره ـ مَن هذا؟ فقالوا اليمانيّ الذي يغشاك، فعرّفوه إياه، فقال: إن السلام ٱنتهى إلى البركة. ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي ﷺ في عصبة من أصحابه، فقلت:

[٣٦٠٤] السلام عليكم؛ فقال: «وعليك السلام ورحمة الله عشرون لي وعشرة لك». قال: ودخلت الثانية؛ فقلت: السلام عليكم ورحمة الله فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وعشرون لك». فدخلت الثالثة فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وثلاثون لك أنا وأنت في السلام سواء. ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ أي محمود ماجد. وقد بيناهما في «الأسماء الحسنى».

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ

[٣٦٠٤] أخرجه البزار كما في المجمع ٨/ ٣٠ من حديث علي، وفيه مختار بن نافع ضعيف، وعبيد بن إسحق متروك قاله الهيثمي، وورد بمعناه أحاديث. تقدمت في سورة النساء.

إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي الخوف؛ يقال: ارتاع من كذا إذا خاف؛ قال النابغة:

فارتاعَ من صَوْتِ كَلَّابٍ[1] فبات لهُ طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي بإسحق ويعقوب. وقال قَتَادة: بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، وأنه لا يخاف. ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ أي يجادل رسلنا، وأضافه إلى نفسه، لأنهم نزلوا بأمره. وهذه المجادلة رواها حُميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة؛ وذلك أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا قال: فعشرون؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها عشرة ـ أو خمسة شك حميد ـ قالوا: لا. قال قَتَادة: نحواً منه؛ قال فقال يعني إبراهيم: قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم. وقيل إن إبراهيم قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال عبد الرحمن بن سَمُرة: كانوا أربعمائة ألف[2]. ابن جُريج. وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف[2]. ومذهب الأخفش والكسائيّ أنّ «يجادلنا» في موضع «جادلنا». قال النحاس: لما كان جواب «لمّا» يجب أن يكون بالماضي جعل المستقبل مكانه؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضي مكانه. وفيه جواب آخر ـ أن يكون «يجادلنا» في موضع الحال؛ أي أقبل يجادلنا؛ وهذا قول الفرّاء. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾تقدّم في «براءة» معنىٰ ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾. [التوبة: ١١٤] والمنيب الراجع؛ يقال: أناب إذا رجع. وإبراهيم ﷺ كان راجعاً إلى الله تعالىٰ في أموره كلها. وقيل: الأوّاه المتأوّه أسفاً على ما قد فات قوم لوط من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ أي دع عنك الجدال في قوم لوط. ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذابه لهم. ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ﴾ أي نازل بهم. ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع.

---

(١) الكَلَّاب: صاحب الكلاب.

(٢) هذه الآثار مصدرها كتب الأقدمين، لاحجة فيها. فالله تعالى وحده يعلم عددهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط ـ وهما تستقيان ـ بالملائكة ورأتا هيئة حسنة؛ فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أَبِها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هذا الشيخ وأشارتا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم. ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي ساءه مجيئهم؛ يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوءه فهو متعدّ أيضاً، وإن شئت ضممت السين؛ لأن أصلها الضمّ، والأصل سُوِىءَ بهم من السوء؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: «سِيَ بِهِم» مخففاً، ولغة شاذة بالتشديد. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله أن يَذْرَعَ البعير بيديه في سيره ذَرْعاً على قدر سعة خَطْوِه؛ فإذا حُمِل على أكثر من طَوْقه ضاق عن ذلك، وضعف ومدّ عنقه؛ فضيق الذّرع عبارة عن ضيق الوُسع. وقيل: هو من ذَرَعه القيء أي غلبه؛ أي ضاق عن حبسه المكروه في نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ أي شديد في الشر. وقال الشاعر:

وإنَّكَ إلاَّ تُرضِ بكرَ بنَ وائلٍ ... يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصِيبُ

وقال آخر:

يومٌ عصِيبٌ يَعصِبُ الأبطالاَ ... عَصْبَ القَوِيّ السَّلَمَ الطِّوالاَ

ويقال: عصِيبٌ وَعَصَبْصَبٌ على التكثير؛ أي مكروه مجتمع الشر وقد عصب؛ أي عصب بالشر عِصابة؛ ومنه قيل: عُصبة وعِصابة أي مجتمعو الكلمة؛ أي مجتمعون في أنفسهم. وعَصَبة الرجل المجتمعون معه في النسب؛ وتعصّبت لفلان صرت كعصبته،

ورجل معصوب، أي مجتمع الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في موضع الحال. «يَهْرَعُونَ» أي يسرعون. قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رِعدة؛ يقال: أُهْرِع الرجل إهراعاً أي أسرع في رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمَّى، وهو مُهرَع؛ قال مُهلهِل:

فجـاؤوا يُهـرَعـون وهُـمْ أسـارَى نَقــودُهُــمُ علــى رَغْــمِ الأُنــوفِ

وقال آخر:

* بمعجَـلاتٍ نحوه مهَـارعِ *

وهذا مثل: أُولِع فلان بالأمر، وأرعِد زيد، وزُهِي فلان. وتجيء ولا تستعمل إلا على هذا الوجه. وقيل: أهرع أي أهرعه حِرصُه؛ وعلى هذا «يُهْرَعُونَ» أي يُستحثّون عليه. ومن قال بالأول قال: لم يسمع إلا أُهْرِع الرجلُ أي أسرع؛ على لفظ ما لم يسمّ فاعله. قال ابن القوطيّة: هُرِع الإنسان هَرَعا، وأُهرِع: سِيق واستعجِل. وقال الهروي: يقال: هُرِع الرجلُ وأُهْرِع أي ٱستُحِثّ. قال ابن عباس وقتادة والسّديّ: «يُهرعون» يهرولون. الضحاك: يَسعون. ابن عُيينة: كأنهم يدفعون. وقال شِمر بن عطية: هو مشي بين الهرولة والجَمزَى[1]. وقال الحسن: مشيٌ بين مشيين؛ والمعنى متقارب. وكان سبب إسراعهم ما روي أن ٱمرأة لوط الكافرة، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم: إن لوطاً قد أضاف الليلة فِتية ما رؤي مثلهم جمالاً؛ وكذا وكذا؛ فحينئذ جاؤوا يُهرعون إليه. ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حرث له. وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سَدوم؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم؛ فقالوا: نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض ـ وقد كان الله عزّ وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات. فلما قال لوط هذه المقالة، قال جبريل لأصحابه: هذه واحدة، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي ومن قبل مجيء الرسل. وقيل: من قبل لوط. ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي كانت عادتهم إتيان الرجال. فلما جاؤوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعاً، وقال: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ ابتداء وخبر. وقد اختلف في قوله:

(١) الجمزىٰ: السريع.

«هَؤُلاءِ بَنَاتِي» فقيل: كان له ثلاث بنات من صُلبه. وقيل: بنتان؛ زيتا وزعوراء؛ فقيل: كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ٱبنتيه. وقيل: ندبهم في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزاً ثم نسخ؛ فزوج رسول الله ﷺ بنتاً له من عُتْبَة بن أبي لهب، والأخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين. وقالت فرقة ـ منهم مجاهد وسعيد بن جُبير ـ أشار بقوله: «بَنَاتِي» إلى النساء جملة؛ إذ نبيّ القوم أب لهم؛ ويقوّي هذا أن في قراءة ابن مسعود: «ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أنفسهم وَأَزواجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وهو أبٌ لهم»[1]. وقالت طائفة: إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه؛ روي هذا القول عن أبي عبيدة؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا. وقال عِكرمة: لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا.

قوله تعالى: ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ٱبتداء وخبر؛ أي أزوّجكموهنّ؛ فهو أطهر لكم مما تريدون، أي أحلّ. والتطهر التنزّه عما لا يحل. وقال ٱبن عباس: كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه ببناته. وليس أَلِف «أطهر» للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح الرجال طهارة، بل هو كقولك: الله أكبر وأعلى وأجلّ، وإن لم يكن تفضيلاً؛ وهذا جائز شائع في كلام العرب، ولم يكابر الله تعالى أحدٌ حتى يكون الله تعالى أكبر منه. وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أُحد:

[٣٦٠٥] ٱعْلُ هُبَلُ ٱعْلُ هُبَلُ؛ فقال النبي ﷺ لعمر: «قل الله أعلى وأجلّ». وهبل لم يكن قط عالياً ولا جليلاً. وقرأ العامة برفع الراء. وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو «هُنَّ أطهرَ» بالنصب على الحال. و«هُنّ» عِماد. ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون «هُنّ» هاهنا عماداً، وإنما يكون عماداً فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك، لتدلّ بها على أن الأخ ليس بنعت. قال الزجاج: ويدلّ بها على أنّ كان تحتاج إلى خبر. وقال غيره: يدلّ بها على أن الخبر معرفة أو ما قارنها.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ أي لا تهينوني ولا تذلّوني. ومنه قول حسان:

فأخزاك ربي يا عُتيبَ بن مالِك ... ولقاكَ قبل الموت إحدى الصَّواعِق
مـــددتَ يمينــــاً للنبـــي تعمُّـــداً ... ودَمَّيْــتَ فــاهُ قُطِّعــتْ بــالبَــوارق

[٣٦٠٥] مضى.

(١) انظر الأحزاب، آية: ٦.

ويجوز أن يكون من الخَزَاية، وهو الحياء، والخجل؛ قال ذو الرُّمة:

خـزايـة أدركتـه بعـد جـولتِـهِ   من جانبِ الحبلِ مخلوطاً بها الغضب

وقال آخر:

من البيضِ لا تَخزَى إذا الريحُ ألصقتْ   بها مِرْطهَا أو زايلَ الحلْيُ جِيدَهَا

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه في الأصل مصدر؛ قال الشاعر:

لا تَعـدِمـي الـدهـرَ شِفـار الجـازِر   لِلضّيـفِ والضيـفُ أحـقّ زائـر

ويجوز فيه التثنية والجمع؛ والأوّل أكثر كقولك: رجالٌ صَوْم وفِطر وزَوْرٍ. وخزي الرجلُ خَزَايَةً؛ أي ٱستحيا مثل ذَلّ وهان. وخَزِي خِزياً إذا افتضح؛ يَخْزَى فيهما جميعاً. ثم وبخهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيل: «رشيد» أي ذو رَشَد. أو بمعنى راشد أو مرشِد، أي صالح أو مصلِح. ٱبن عباس: مؤمن. أبو مالك: ناه عن المنكر. وقيل: الرشيد بمعنى الرّشَد؛ والرَّشَد والرّشاد الهدى والاستقامة. ويجوز أن يكون بمعنى المرشد؛ كالحكيم بمعنى المحكِم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ روي أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم، وكانت سنتهم أن من ردّ في خِطبة ٱمرأة لم تحل له أبداً؛ فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ وبعد ألاّ تكون هذه الخاصيّة. فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا هنّ قصدنا، ولا لنا عادة نطلب ذلك. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾ إشارة إلى الأضياف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ لما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم، ولـم يقـدر علـى دفعهـم، تمنـى لـو وجـد عـوناً علـى ردهـم؛ فقـال علـى جهـة التفجـع والاستكانة: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» أي أنصاراً وأعواناً. وقال ٱبن عباس: أراد الولد. و«أنّ» في موضع رفع بفعل مضمر، تقديره: لو ٱتفق أو وقع. وهذا يطرد في «أن» التابعة لِـ«لو». وجواب «لو» محذوف؛ أي لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون. ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾ أي ألجأ وأنضوي. وقرىء «أو آوِيَ» بالنصب عطفاً على «قوّة» كأنه قال: «لو أن لي بكم قوّة» أو إيواء إلى ركن شديد؛ أي وأن آوى، فهو منصوب بإضمار «أن». ومراد لوط بالركن العشيرة، والمنعة بالكثرة. وبلغ بهم قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى؛ فيروى أن الملائكة وَجَدت عليه حين قـال هـذه الكلمـات، وقـالـوا: إن ركنـك لشـديـد. وفـي البخـاري عـن أبـي هُـريـرة أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٦٠٦] «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» الحديث؛ وقد تقدّم في «البقرة». وخرجه الترمذيّ وزاد «ما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه». قال محمد بن عمرو: والثروة الكثرة والمنعة؛ حديث حسن. ويروى أن لوطاً عليه السلام لما غلبه قومه، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه، قالت له الرسل: تنحّ عن الباب؛ فتنحّى وانفتح الباب؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]. وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنّصب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم[(١)] آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدّم. وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، فأوصل الله إلى عين مَن بَعُد ومَن قَرُب من ذلك التراب فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقاً، ولا اهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء النجاء! فإن في بيت لوط قوماً هم أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا. وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى؛ يتوعدونه.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ لما رأت الملائكة حزنه واضطرابه ومدافعته عرّفوه بأنفسهم، فلما علم أنهم رسلٌ مكّن قومه من الدخول، فأمرّ جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا، وعلى أيديهم فجفّت. ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ أي بمكروه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ قرىء «فأسرِ» بوصل الألف وقطعها؛ لغتان فصيحتان. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ [الفجر: ٤] وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] وقال النابغة، فجمع بين اللغتين:

أَسْرتْ عليه من الجوزاء ساريةٌ ... تُزجِي الشمالُ عليهِ جامِدَ البَرَدِ

وقال آخر:

حَيِّ النَّضيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ ... أَسْرتْ إليكَ ولم تكنْ تَسْرِي

وقد قيل: «فَأَسْرِ» بالقطع إذا سار من أوّل الليل، وسرى إذا سار من آخره؛ ولا يقال في النهار إلا سار. وقال لبيد:

[٣٦٠٦] متفق عليه. مضى.

---

(١) في الأصل «وأنهم».

إذا المـرءُ أَسْـرَى ليلـةً ظَـنَّ أنّـهُ   قَضَى عملاً والمرءُ ما عاش عامِلُ

وقال عبد الله بن رَوَاحَةَ:

عند الصّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى   وتَنْجَلِي عنهم غَيَاباتُ الكَرَى

[قوله تعالىٰ][1]: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا﴾ قال ٱبن عباس: بطائفة من الليل. الضحّاك: ببقية من الليل. قَتَادة: بعد مضي صدر من الليل. الأخفش: بعد جنح من الليل. ٱبن الأعرابي: بساعة من الليل. وقيل: بظلمة من الليل. وقيل: بعد هدءٍ من الليل. وقيل: هزيع[2] من الليل. وكلها متقاربة؛ وقيل: إنه نصف الليل؛ مأخوذ من قطعه نصفين؛ ومنه قول الشاعر:

ونـائحـةٍ تَنُـوحُ بِقطـعِ ليـلٍ   علـى رجـلٍ بقـارعـةِ الصّعيـدِ

فإن قيل: السُّرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى «بقطع من الليل»؟ فالجواب: أنه لو لم يقل: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» جاز أن يكون أوّله. ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ أي لا ينظر وراءه منكم أحد؛ قاله مجاهد. ٱبن عباس: لا يتخلف منكم أحد. عليّ بن عيسى: لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع. ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ بالنصب؛ وهي القراءة الواضحة البيّنة المعنى؛ أي فأسر بِأهلِك إلا ٱمرأتك. وكذا في قراءة ٱبن مسعود «فأسرِ بِأهلِك إلا ٱمرأتك» فهو ٱستثناء من الأهل. وعلى هذا لم يخرج بها معه. وقد قال الله عز وجل: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ [العنكبوت: ٣٢] أي من الباقين. وقرأ أبو عمرو وٱبن كثير: «إلا ٱمرأتُك» بالرفع على البدل من «أحد». وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد؛ وقال: لا يصح ذلك إلا برفع «يلتفت» ويكون نعتاً؛ لأن المعنى يصير ـ إذا أبدلت وجزمت ـ أن المرأة أبيح لها الالتفات، وليس المعنى كذلك. قال النحاس: وهذا الحمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون؛ والرفع على البدل له معنى صحيح، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه: لا يخرج فلان؛ فلفظ النهي لفلان ومعناه للمخاطب؛ أي لا تدعه يخرج؛ ومثله قولك: لا يقم أحد إلا زيد؛ يكون معناه: ٱنههم عن القيام إلا زيداً؛ وكذلك النهي للوط ولفظه لغيره؛ كأنه قال: ٱنههم لا يلتفت منهم أحد إلا ٱمرأتك. ويجوز أن يكون استثناء من النهي عن الالتفات لأنه كلام تام؛ أي لا يلتفت منكم أحد إلا ٱمرأتك فإنها تلتفت وتهلك، وأن لوطاً خرج بها، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته؛ فإنها لما سمعت هدّة العذاب

(١) زيادة يقتضيها السياق.
(٢) طائفة من الليل.

التفتت وقالت: واقوماه! فأدركها حجر فقتلها. ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ أي من العذاب. والكناية في «إنه» ترجع إلى الأمر والشأن؛ أي فإن الأمر والشأن والقصة. ﴿مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ لما قالت الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لوط: الآن الآن. أستعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه؛ فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ وقرأ عيسى بن عمر «أليس الصُّبُحُ» بضم الباء وهي لغة. ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم؛ لأن النفوس فيه أودع، والناس فيه أجمع. وقال بعض أهل التفسير: إن لوطاً خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر، وأن الملائكة قالت له: إن الله قد وكّل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد، وخطف برق، وصواعق عظيمة، وقد ذكرنا لهم أن لوطاً سيخرج فلا تؤذوه؛ وأمارته أنه لا يلتفت، ولا تلتفت ابنتاه فلا يهولنّك ما ترى. فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، وهي خمس: سدوم ـ وهي القرية العظمى ـ وعامورا، ودادوما، وضعوه، وقتم، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم، لم تنكفىء لهم جرّة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم، وأتبعهم الله بالحجارة. مقاتل: أهلكت أربعة، ونجت ضعوه. وقيل غير هذا؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم؛ وقد تقدّم في «الأعراف». وفي التفسير: أمطرنا في العذاب، ومطرنا في الرحمة. وأما كلام العرب فيقال: مطرت السماء وأمطرت، حكاه الهرويّ. واختلف في «السِّجِّيل» فقال النحاس: السجيل الشديد الكثير؛ وسجيل وسِجِّين اللام والنون أختان. وقال أبو عبيدة: السجيل الشديد؛ وأنشد:

* ضَرْباً تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّينَا *

قال النحاس: وردّ عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال: هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به؟! قال النحاس: وهذا الرد لا يلزم، لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى؛ وقول أبي عبيدة يردّ من جهة أخرى؛ وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلاً؛ لأنه لا يقال: حجارة من شديد؛ لأن شديداً نعت. وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء سجيل. وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلاً طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء. وقالت طائفة منهم ابن

عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق: إن سجيلاً لفظة غير عربية عُرِّبت، أصلها سَنْج وجِيلْ. ويقال: سَنْك وكِيلْ؛ بالكاف موضع الجيم، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً. وقيل: هو من لغة العرب. وقال قتادة وعِكرمة: السجيل الطين بدليل قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣﴾ [الذاريات: ٣٣]. وقال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشدّدت. والسجيل عند العرب كل شديد صُلْب. وقال الضحاك: يعني الآجر. وقال ٱبن زيد: طين طبخ حتى كان كالآجر؛ وعنه أن سجيلاً ٱسم السماء الدنيا؛ ذكره المهدويّ؛ وحكاه الثعلبيّ عن أبي العالية؛ وقال ٱبن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بـ«ـمنضود». وعن عكرمة: أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة. وقيل: هي جبال في السماء، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]. وقيل: هو مما سجّل لهم أي كتب لهم أن يصيبهم؛ فهو في معنى سِجين؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين: ٨ ـ ٩] قاله الزجاج وٱختاره. وقيل: هو فِعِّيل من أسجلته أي أرسلته؛ فكأنها مرسَلة عليهم. وقيل: هو من أسجلته إذا أعطيتَه؛ فكأنه عذاب أُعطوه؛ قال[1]:

مَـنْ يُسـاجِلْنـي يُسـاجِـلْ مـاجِـداً يَمْـلأ الـدَّلْـو إلـى عَقْـدِ الكَـرَب[2]

وقال أهل المعاني: السجّيل والسجّين الشديد من الحَجَر والضَّرب؛ قال ٱبن مُقْبِل:

ورَجْلَـةٍ يضـربـون البَيْـضَ ضَـاحِيَـة ضَرْباً تَواصَى بِهِ الأبطالُ سِجِّينَا

﴿مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ قال ٱبن عباس: متتابع. وقال قتادة: نُضِد بعضها فوق بعض. وقال الرّبيع: نُضد بعضه على بعض حتى صار جسداً واحداً. وقال عِكرمة: مصفوف. وقال بعضهم مرصوص؛ والمعنى متقارب. يقال: نَضَدت المتاع واللّبِن إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونَضِيد ونَضَدٌ؛ قال:

* ورفَّعَتْـه إلى السَّجْفَيـن فالنَّضَـدِ *

وقال أبو بكر الهُذَليّ: مُعدّ؛ أي هو مما أعدّه الله لأعدائه الظّلمة. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلمَة، من السِّيما وهي العلامة؛ أي كان عليها أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر ٱسم من رُمي به، وكانت لا تشاكل حجارة الأرض. وقال الفرّاء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض، فذلك تسويمها. وقال كعب: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقال الشاعر[3]:

---

(١) البيت للفضل بن عباس بن عتبة.
(٢) الكَرَبُ: الحبل يشد به الدلو.
(٣) هو أسيد بن عنقاء الفزاري.

غلامٌ رماه اللّهُ بالحسنِ يافِعاً ... له سِيمياء لا تَشقُّ على البَصَرْ

و«مُسَوَّمَةً» من نعت حجارة. و«منضودٍ» من نعت «سِجّيل». وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض؛ قاله الحسن. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ يعني قوم لوط؛ أي لم تكن تخطئهم. وقال مجاهد: يُرهِب قريشاً؛ المعنى: ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد. وقال قتادة وعِكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة؛ والله ما أجار الله منها ظالماً بعد. وروي عن النبي ﷺ أنه قال:

[٣٦٠٧] «سيكون في آخر أمّتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قومِ لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾. وفي رواية عنه عليه السلام:

[٣٦٠٨] «لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحلّ هذه الأمة أدبار الرجال كما ٱستحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك». وقيل: المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد؛ وهي بين الشام والمدينة. وجاء «بِبَعِيدٍ» مذكراً على معنى بمكان بعيد. وفي الحجارة التي أمطرت قولان: أحدهما: أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. الثاني: أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجاً عنها.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٦ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ

[٣٦٠٧] لم أجده بهذا اللفظ وأخرج البزار ٣٤٠٥ بمعناه من حديث أبي هريرة، وليس فيه ذكر الآية، وفيه سليمان بن داود اليمامي متروك.

[٣٦٠٨] لم أجده بهذا اللفظ، وورد بنحوه من حديث أنس وواثلة أخرجه الخطيب ٩/ ٣٠ والآجري ٢٣ في «ذم اللواط» وفيه أيوب بن مدرك، متروك.

رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى مدين، ومدين هم قوم شعيب. وفي تسميتهم بذلك قولان: أحدهما ـ أنهم بنو مدين بن إبراهيم؛ فقيل: مدين والمراد بنو مدين. كما يقال مُضَر والمراد بنو مُضَر. الثاني ـ أنه ٱسم مدينتهم، فنسبوا إليها. قال النحاس: لا ينصرف مدين لأنه ٱسم مدينة؛ وقد تقدّم في «الأعراف» هذا المعنى وزيادة. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ تقدّم. ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وٱستوفوا بغاية ما يَقدِرون عليه وظلموا؛ وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحّحوا له بغاية ما يقدِرون؛ فأمروا بالإيمان إقلاعاً عن الشرك، وبالوفاء نهياً عن التطفيف. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي في سَعة من الرزق، وكثرة من النِّعم. وقال الحسن: كان سعرهم رخيصاً. ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك: يوم شديد؛ أي شديد حرّه. وٱختلف في ذلك العذاب؛ فقيل: هو عذاب النار في الآخرة. وقيل: عذاب الاستئصال في الدنيا. وقيل: غلاء السعر؛ روي معناه عن ٱبن عباس. وفي الحديث عن النبي ﷺ:

[٣٦٠٩] «ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ٱبتلاهم الله بالقحط والغلاء». وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيداً. والإيفاء الإتمام. «بالقسطِ» أي بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذي نصيب إلى نصيبه؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل: أوفوا بالمكيال وبالميزان؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال المعهود، وكذا الصنجات. ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم مما ٱستحقوه شيئاً. ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ بيّن أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض، وقد مضى في «الأعراف» زيادة لهذا، والحمد لله.

[٣٦٠٩] تقدم في سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبّر والظلم؛ قال معناه الطبريّ وغيره. وقال مجاهد: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يريد طاعته. وقال الرّبيع: وصية الله. وقال الفرّاء: مراقبة الله. ابن زيد: رحمة الله. قتادة والحسن: حظكم من ربكم خير لكم. وقال ابن عباس: رزق الله خير لكم. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين. وقيل: يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ أي رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم؛ أي لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق. وقيل: أي لا يتهيأ لي أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ وقرىء «أَصَلاَتُكَ» من غير جمع. ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ «أن» في موضع نصب؛ قال الكسائي: موضعها خفض على إضمار الباء. وروي أن شعيباً عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظباً على العبادة فرضها ونفلها ويقول: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عيّروه بما رأوه يستمرّ عليه من كثرة الصلاة، واستهزؤوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم. وقيل: إن الصلاة هنا بمعنى القراءة؛ قاله سفيان عن الأعمش، أي قراءتك تأمرك؛ ودلّ بهذا على أنهم كانوا كفاراً. وقال الحسن: لم يبعث الله نبيّاً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء. وقرأ السُّلَميّ والضّحاك بن قيس «أو أن تفعل في أموالِنا ما تشاء» بالتاء في الفعلين، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: «أو أن» على هذه القراءة معطوفة على «أن» الأولى. ورُوي عن زيد بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حَذْف الدراهم. وقيل: معنى. «أَوْ أَنْ نَفْعَل في أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ» إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فَلِم تمنعنا منه؟!. ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ يعنون عند نفسك بزعمك؛ ومثله في صفة أبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩] أي عند نفسك بزعمك. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة. ومنه قولهم للحبشي: أبو البيضاء، وللأبيض أبو الْجَون[1]؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل. «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ». وقال سفيان بن عُيَينة: العرب تصف الشيء بضدّه للتطيّر والتفاؤل، كما قيل لِلَّدِيغ سَلِيم، وللفلاة مَفازة. وقيل: هو تعريض أرادوا به السبّ؛ وأحسن من هذا كله،

(١) الجَوْنُ هنا: الأسود.

ويدلّ ما قبله على صحته، أي إنك أنت الحليم الرشيد حقاً، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا! ويدلّ عليه. ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضاً ما يدلّ عليه. ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي أفلا أنهاكم عن الضلال؟! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه. ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة للنبي ﷺ حين قال لهم:

[٣٦١٠] «يا إخوة القردة» فقالوا: يا محمد ما علمناك جهولاً!

مسألة: قال أهل التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعُذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدّاً، وعلى المقروضة وزنا، وكانوا يبخسون في الوزن. وقال ابن وهب قال مالك: كانوا يكسرون الدنانير والدراهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدّمين كسعيد بن المسيّب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرهما ذنب عظيم. وفي كتاب أبي داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال:

[٣٦١١] نهى رسول الله ﷺ أن تكسر سَكَّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بـأس» فإنها إذا كانت صحاحاً قام معناها، وظهرت فائدتها، وإذا كسرت صارت سِلعة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس؛ ولذلك حرم. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل: ٤٨] أنهم كانوا يكسرون الدراهم؛ قاله زيد بن أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القُرَظيّ.

مسألة: قال أَصْبـغ: قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة مولى زيد بن الحارث العُتَقيّ: من كسرها لم تقبل شهادته، وإن اعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا بموضع عذر؛ قال ابن العربي: أما قوله: لم تقبل شهادته فلأنه أتى كبيرةً، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر؛ وأما قوله: لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلأنه أمرٌ بيّنٌ لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفِي وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من العبد كما قال مالك.

[٣٦١٠] مرسل. أخرجه الطبري ٢٨٤٤٦ عن قتادة مرسلاً في أثناء خبر طويل وتقدم.

[٣٦١١] ضعيف. أخرجه أبو داود ٣٤٤٩ وابن ماجة ٢٢٦٣ من حديث ابن مسعود، وفيه محمد بن فضاء ضعفه الحافظ في التقريب وفضاء بن خالد مجهول أيضاً.

مسألة: إذا كان هذا معصية وفساداً تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك. ومرّ ابن المسيّب برجل قد جُلد فقال: ما هذا؟ قال رجل: يقطع الدنانير والدراهم؛ قال ٱبن المسيّب: هذا من الفساد في الأرض؛ ولم ينكر جلده؛ ونحوه عن سفيان. وقال أبو عبد الرحمن التَّجِيبي: كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتى برجل يقطع الدراهم وقد شُهِد عليه فضربه وحَلَقه، وأمر فطِيف به، وأمره أن يقول: هذا جزاء من يقطع الدراهم؛ ثم أمر أن يُرَدّ إليه؛ فقال: إنه لم يمنعني أن أقطع يدك إلا أني لم أكن تقدّمت في ذلك قبل اليوم، وقد تقدّمت في ذلك فمن شاء فليقطع. قال القاضي أبو بكر بن العربيّ: أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه، وأما حلقه فقد فعله عمر؛ وقد كنت أيام الحكم بين الناس أضرب وأحلق، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عوناً له على المعصية، وطريقاً إلى التجمل به في الفساد، وهذا هو الواجب في كل طريق للمعصية، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها، فإن الكسر إفساد الوصف، والقرض تنقيص للقدر، فهو أخْذُ مالٍ على جهة الاختفاء؛ فإن قيل: أليس الحِرز أصلاً في القطع؟ قلنا: يحتمل أن يكون عمرُ يرى أن تهيئتها[1] للفصل بين الخلق ديناراً أو درهماً حِرز لها، وحِرزُ كل شيء على قدر حاله؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدراهم. وقد قال علماؤنا المالكية: إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليها اسمه؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتماً لله كان أهلاً لذلك، أو من كسر خاتم سلطان عليه أسمه أدّب، وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة. قال ابن العربيّ: وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرها، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتي الحكم، إلا أني كنت محفوفاً بالجهال، فلم أجبن بسبب المقال للحسدة الضلال فمن قدر عليه يوماً من أهل الحق فليفعله احتساباً لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ تقدم. ﴿ وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ أي واسعاً حلالاً، وكان شعيب عليه السلام كثير المال، قاله ابن عباس وغيره. وقيل: أراد به الهدى والتوفيق، والعلم والمعرفة، وفي الكلام حذف، وهو ما ذكرناه، أي أفلا أنهاكم عن الضلال! وقيل: المعنى «أرأيتم إن كنت على بينة من ربي» أتبع الضلال؟ وقيل: المعنى «أرأيتم إن كنت على بينة من ربي» أتأمرونني بالعصيان في البخس والتطفيف، وقد أغناني الله عنه. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾ في موضع نصب بـ «أُريدُ». ﴿ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه، كما لا أترك ما أمرتكم به.

---

(١) وقع في الأصل «تهيئنها» والتصويب عن أحكام القرآن ٣/ ٢٥.

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أي ما أريد إلا فعل الصلاح؛ أي أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة، وقال: «مَا اسْتَطَعْتُ» لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة. و «ما» مصدرية، أي إن أريد إلا الإصلاح جهدي واستطاعتي. ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ ﴾ أي رشدي، والتوفيق الرشد. ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت. ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ أي أرجع فيما ينزل بي من جميع النوائب. وقيل: إليه أرجع في الآخرة. وقيل: إن الإنابة الدعاء، ومعناه وله أدعو.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب «يُجْرِمَنَّكُمْ». ﴿ شِقَاقِيٓ ﴾ في موضع رفع. ﴿ أَن يُصِيبَكُم ﴾ في موضع نصب، أي لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار قبلكم، قاله الحسن وقتادة. وقيل: لا يكسبنكم شقاقي إصابتكم العذاب، كما أصاب من كان قبلكم، قاله الزجاج. وقد تقدّم معنى «يجرمنكم» في «المائدة» و «الشقاق» في «البقرة» وهو هنا بمعنى العداوة، قاله السدّي، ومنه قول الأخطل:

ألاَ مَنْ مُبلغٌ عنّي رسولاً ... فكيف وجَدتُمُ طَعْمَ الشِّقاق

وقال الحسن البصري: إضراري. وقال قتادة: فِراقي. ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط. وقيل: وما ديار قوم لوط منكم ببعيد، أي بمكان بعيد، فلذلك وحد البعيد. قال الكسائيّ: أي دورهم في دوركم.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ تقدم. ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه، وقد بيناهما في كتاب «الأسنى في شرح الأسماء الحسنى». قال الجوهريّ: وَدِدت الرجل أوده وداً إذا أحببته، والودود المحب، والوَد والوِد والوُد والمودة المحبة. وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا ذكر شعيباً قال:

[٣٦١٢] «ذاك خطيب الأنبياء».

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ أي ما نفهم؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله. وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقاراً لكلامه؛ يقال: فقِه يفقَه إذا فهم فِقْهاً؛ وحكى الكسائي: فَقُه فَقَهاً وفِقْهاً إذا صار فقيهاً. ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قيل: إنه كان مصاباً ببصره[1]؛ قاله

[٣٦١٢] ضعيف جداً. ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨٩ ـ ١٩٠ فقال: أخرجه إسحق بن بشر عن ابن عباس اهـ وإسحق هذا متهم بالكذب انظر الميزان. وأخرجه الحاكم ٤٠٧١ عن ابن إسحاق معضلاً.

---

(١) هذه الآثار مصدرها أهل الكتاب لاحجة فيها، وهي تنافي عصمة الأنبياء كما قال الجمهور.

سعيد بن جبير وقتادة. وقيل: كان ضعيف البصر؛ قاله الثوري وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن حِمْيَر تقول للأعمى ضعيفاً؛ أي قد ضعف بذهاب بصره؛ كما يقال له ضرير؛ أي قد ضرّ بذهاب بصره؛ كما يقال له: مكفوف؛ أي قد كف عن النظر بذهاب بصره. قال الحسن: معناه مهين. وقيل: المعنى ضعيف البدن؛ حكاه عليّ بن عيسى. وقال السدي: وحيداً ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا. وقيل: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها. و «ضعيفاً» نصب على الحال. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ رفع بالابتداء، ورهط الرجل عشيرته الذي يستند إليهم ويتقوّى بهم؛ ومنه الرّاهِطَاء لجُحر اليَرْبُوع؛ لأنه يَتوثّق به ويخبِّىء فيه ولده. ومعنى ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ لقتلناك بالرّجم، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه بالحجارة، وكان رهطه من أهل ملتهم. وقيل: معنى «لَرَجَمْنَاكَ» لشتمناك؛ ومنه قول الجعدي:

تَــراجَمْنــا بمُــرّ القَــولِ حتــى ... نصيــر كــأنّنــا فَــرسَــا رِهــانِ

والرجم أيضاً اللعن؛ ومنه الشيطان الرجيم. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾ أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ﴾ «أرَهْطِيَ» رفع بالابتداء؛ والمعنى أرهطي في قلوبكم ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وأعظم وأجل وهو يملككم. ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهرياً؛ أي جعلتموه وراء ظهوركم، وامتنعتم من قتلي مخافة قومي؛ يقال: جعلت أمره بِظهرٍ إذا قصرت فيه، وقد مضى في «البقرة». ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي من الكفر والمعصية. ﴿مُحِيطٌ ۝٩٢﴾ أي عليم. وقيل: حفيظ.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد؛ وقد تقدّم في «الأنعام». ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يهلكه. و «من» في موضع نصب، مثل ﴿يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾. [البقرة: ٢٢٠] ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطف عليها. وقيل: أي وسوف تعلمون من هو كاذب منا. وقيل فيُ محل رفع؛ تقديره: ويخزي من هو كاذب. وقيل: تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه، ويذوق وبال أمره. وزعم الفرّاء أنهم إنما جاؤوا بـ«هو» في «وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ» لأنهم لا يقولون مَن قائم؛ إنما يقولون: مَن قام، ومَن يقوم، ومَن القائم؛ فزادوا «هو» ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل. قال النحاس: ويدل على خلاف هذا قوله:

مَــنْ رَسُــولـي إلـى الثُّـرَيّـا بِـأنّـي ... ضِقْــتُ ذَرْعــاً بِهَجْـرِهَــا والكتـابِ

﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ أي ٱنتظروا العذاب والسخطة، فإني منتظر النصر والرحمة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ قيل: صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ أي صيحة جبريل. وأنث الفعل على لفظ الصيحة، وقال في قصة صالح: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٦٧] فذكّر على معنى الصياح. قال ٱبن عباس: ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب، أهلكهم الله بالصيحة؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم. ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ تقدّم معناه. وحكى الكسائيّ أن أبا عبد الرحمن السلميّ قرأ «كَمَا بَعُدَتْ» ثَمُودُ بضم العين. قال النحاس: المعروف في اللغة إنما يقال بعِد يَبْعَدُ بَعَداً وبُعْداً إذا هلك. وقال المهدوي: من ضم العين من «بعدت» فهي لغة تستعمل في الخير والشر، ومصدرها البعد؛ وبعِدت تستعمل في الشر خاصة؛ يقال: بَعِدَ يَبعَد بَعَداً؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللّعنة؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بين أنه أتبع النبي النبيّ لإقامة الحجة، وإزاحة كل علّة «بِآيَاتِنَا» أي بالتوراة. وقيل: بالمعجزات. ﴿ وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ ﴾ أي حجة بيّنة؛ يعني العصا. وقد مضى في «آل عمران» معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة. ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي شأنه وحاله، حتى ٱتخذوه إلها، وخالفوا أمر الله تعالى. ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ أي بسديد يؤدّي إلى صواب، وقيل: «بِرَشِيدٍ» أي بمرشد إلى خير.

قوله تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم. يقال: قَدَمهم يقدُمُهم قدماً وقُدُوماً إذا تقدّمهم. ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ أي أدخلهم فيها. ذُكِر بلفظ الماضي؛ والمعنى فيوردهم النار؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن؛ فلهذا يُعبَّر عن

المستقبل بالماضي. ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾ أي بئس المدخل المدخول؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجع إلى المورود، وهو كما تقول: نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك. والمورود الماء الذي يورد، والموضع الذي يورد؛ وهو بمعنى المفعول.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ أي في الدنيا. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي ولعنة يوم القيامة؛ وقد تقدّم هذا المعنى. ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾ حكى الكسائي وأبو عبيدة: رَفَدْتُه أَرْفِدُه رَفْداً؛ أي أعنته وأعطيته. وٱسم العطية الرِّفْد؛ أي بئس العطاء والإعانة. والرفد أيضاً القدح الضخم؛ قاله الجوهري، والتقدير: بئس الرفد رِفد المرفود. وذكر الماوردي: أن الرَّفد بفتح الراء القدح، والرفد بكسرها ما في القدح من الشراب؛ حكي ذلك عن الأصمعي؛ فكأنه ذمّ بذلك ما يسقونه في النار. وقيل: إن الرفد الزيادة؛ أي بئس ما يرفدون به بعد الغرق النارُ؛ قاله الكلبي.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ «ذَٰلِكَ» رفع على إضمار مبتدأ، أي الأمر ذلك. وإن شئت بالابتداء؛ والمعنى: ذلك النبأ المتقدّم من أنباء القرى نقصه عليك. ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾ قال قتادة: القائم ما كان خاوياً على عروشه، والحصيد ما لا أثر له. وقيل: القائم العامر، والحصيد الخراب؛ قاله ٱبن عباس: وقال مجاهد: قائم خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل؛ يعني محصوداً كالزرع إذا حصد؛ قال الشاعر:

والنـاس فـي قَسْـم المنيّـة بينهـم ... كـالـزّرع منـه قـائِـمٌ وحَصِيـدُ

وقال آخر[1]:

(١) البيت للطرماح كما في اللسان.

إنمـا نحـن مثـلُ خَـامَـةِ زَرْعٍ　　فمتـى يَـأْنِ يَـأْتِ مُخْتَصِـدُهْ

قال الأخفش سعيد: حصيد أي محصود، وجمعه حصدى وحِصاد مثل مرضى ومِراض؛ قال: يكون فيمن يعقل حصدى، مثل قتِيل وقتلى. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أصل الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه، وقد تقدّم في «البقرة» مستوفى. ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي. وحكى سيبويه أنه يقال: ظلم إياه ﴿فَمَآ أَغْنَتْ﴾ أي دفعت. ﴿عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ في الكلام حذف، أي التي كانو يعبدون؛ أي يدعون. ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي غير تخسير؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال لبيد:

فلقـد بَلِيـتُ وكـلُّ صـاحـبِ جِـدّةٍ　　لِبِلًـى يَعُـودُ وذَاكُـمُ التَّتْبِيـبُ

والتَّبَاب[1] الهلاك والخسران، وفيه إضمار؛ أي ما زادتهم عبادة الأصنام، فحذف المضاف؛ أي كانت عبادتهم إياهم قد خسَّرتهم ثواب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي كما أخذ هذه القرى التي كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة. وقرأ عاصم الجحدري وطلحة بن مصرف «وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرَى» وعن الجحدريّ أيضاً «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ» كالجماعة «إِذْ أَخَذَ القُرَى». قال المهدويّ من قرأ: «وكذلك أخذ ربك إِذْ أخذ» فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من تقدّم من الأمم؛ والمعنى: وكذلك أَخَذَ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذْ أخذهم. وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى: كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه؛ فإذْ لما مضى؛ أي حين أخذ القرى؛ وإذا للمستقبل ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾أي وأهلها ظالمون؛ فحذف المضاف مثل﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ أي عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة. وفي صحيح مسلم والترمذيّ من حديث أبي موسىٰ أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٦١٣] «إن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» ثم قرأ «وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى» الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي لعبرة وموعظة. ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

[٣٦١٣] أخرجه البخاري ٤٦٨٦ ومسلم ٢٥٨٣ والترمذي ٣١١٠ وابن ماجه ٤٠١٨ وابن حبان ٥١٧٥ من حديث أبي موسى.

---

(١) وقع في الأصل «والتبات» وهو خطأ ظاهر.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾، ابتداء وخبر. ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ من نعته. ﴿لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ اسم ما لم يسم فاعله؛ ولهذا لم يقل مجموعون؛ فإن قدرت ارتفاع «الناس» بالابتداء، والخبر «مَجْمُوعٌ لَهُ» فإنما لم يقل: مجموعون على هذا التقدير؛ لأن «له» يقوم مقام الفاعل. والجمع الحشر، أي يحشرون لذلك اليوم. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي يشهده البر والفاجر، ويشهده أهل السماء. وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب «التذكرة» وبيناهما والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي ما نؤخر ذلك اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي لأجل سبق به قضاؤنا، وهو معدود عندنا. ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ وقرىء «يَوْمَ يَأْتِ» لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة؛ تقول: لا أدر؛ ذكره القشيري. قال النحاس: قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء في الإدراج، وحذفها في الوقف؛ وروي أن أُبيًّا وابن مسعود قرأا «يوم يأتِي» بالياء في الوقف والوصل. وقرأ الأعمش وحمزة «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياء في الوقف والوصل، قال أبو جعفر النحاس: الوجه في هذا ألاّ يوقف عليه، وأن يوصل بالياء، لأن جماعة من النحويين قالوا: لا تحذف الياء، ولا يجزم الشيء بغير جازم؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول للكسائيّ؛ قال: لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم، فحذف الياء، كما تحذف الضمة. وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بحجتين إحداهما: أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمان رضي الله عنه بغير ياء. والحجة الأخرى ـ أنه حكى أنها لغة هُذَيل؛ تقول: ما أدر؛ قال النحاس: أما حجته بمصحف عثمان رضي الله عنه فشيء يردّه عليه أكثر العلماء؛ قال مالك بن أنس رحمه الله: سألت عن مصحف عثمان رضي الله عنه فقيل لي ذَهَب؛ وأما حجته بقولهم: «ما أدر» فلا حجة فيه؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه. وأنشد الفراء في حذف الياء:

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُليقُ درهما جوداً وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدَّمَا

أي تعطي. وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول: لا أدرِ، فتحذف الياء وتجتزىء بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء؛ قال: والذي أراه اتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنة؛ وقد جاء مثله في كلام العرب. ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ الأصل تتكلم؛ حذفت إحدى التاءين تخفيفاً. وفيه إضمار؛ أي لا تتكلم فيه نفس إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح. وقيل: المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا

بإذنه. وقيل: إن لهم في الموقف وقتاً يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه. وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدِّين. فيقول لمَ قال: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ و﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦] وقال في موضع من ذكر القيامة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: ٢٧]. وقال: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١٦]. وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤]. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩]. والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيراً، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقتَ بشيء، فسمّي من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم. وقال قوم: ذلك اليوم طويل، وله مواطن ومواقف في بعضها يمنعون من الكلام، وفي بعضها يطلق لهم الكلام؛ فهذا يدلّ على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ أي من الأنفس، أو من الناس؛ وقد ذَكَرهم في قوله: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾. والشقي الذي كتبت عليه الشّقاوة. والسّعيد الذي كتبت عليه السّعادة؛ قال لَبيد:

فمنهم سعيدٌ آخذ بنصيبهِ ... ومنهم شَقيٌّ بالمعيشةِ قانع

وروى الترمذي عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال:

[٣٦١٤] لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا نبي الله فعلامَ نعمل؟ على شيء قد فُرغ منه، أو على شيء لم يُفرَغ منه؟ فقال: «بل على شيء قد فُرغ منه وجرت به الأقلامُ يا عُمر ولكن كل مُيسَّر لما خُلِق له». قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر؛ وقد تقدم في «الأعراف».

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ ابتداء. ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ في موضع الخبر، وكذا ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ قال أبو العالية: الزّفير من الصدر، والشهيق من الحلق؛ وعنه أيضاً ضد ذلك. وقال الزجاج: الزّفير من شدة الأنين، والشّهيق من الأنين المرتفع

[٣٦١٤] أخرجه الترمذي ٣١١١ والطبري ١٣٥٨٣ من حديث ابن عمر عن عمر، وقال الترمذي: حسن غريب اهـ، ومداره على سليمان بن سفيان، وهو ضعيف كما في التقريب، فالخبر واهٍ، لكن ورد بمعناه أحاديث كثيرة. وليس فيها ذكر نزول الآية، راجع السنة لابن أبي عاصم ١٦١ ـ ١٦٦ ـ ٧٠.

جداً؛ قال: وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير في النّهيق، والشّهيق بمنزلة آخـر صوت الحمار في النّهيق. وقال ٱبن عباس رضي الله عنه عكسه؛ قال: الزفير الصوت الشديد، والشّهيق الصوت الضعيف. وقال الضحاك ومقاتل: الزفير مثل أول نهيق الحمار، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته؛ قال الشاعر[1]:

حَشْرَجَ في الجوفِ سَحِيلاً[2] أو شَهَقْ حتـى يقـال نـاهـقٌ ومـا نهـق

وقيل: الزّفير إخراج النفَس، وهو أن يمتلىء الجوف غمًّا فيخرج بالنفس، والشَّهيق ردّ النفَس وقيل: الزفير ترديد النفَس من شدّة الحزن؛ مأخوذ من الزَّفْر وهو الحَمْل على الظهر لشدّته؛ والشهيق النفس الطويل الممتدّ؛ مأخوذ من قولهم: جبل شاهق؛ أي طويل. والزفير والشهيق من أصوات المحزونين.

قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ «مَا دَامَتِ» في موضع نصب على الظرف؛ أي دوام السموات والأرض، والتقدير: وقت ذلك. واختلف في تأويل هذا؛ فقالت طائفة منهم الضحاك: المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك؛ وفي التنزيل: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]. وقيل: أراد به السماء والأرض المعهودتين في الدنيا وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده؛ كقولهم: لا آتيك ما جَنَّ ليلٌ، أو سال سيلٌ، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية؛ فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك. وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض. وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش، وأن السموات والأرض في الآخرة تردّان إلى النور الذي أخذتا منه؛ فهما دائمتان أبداً في نور العرش.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في موضع نصب؛ لأنه استثناء ليس من الأول؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة: الأول: أنه استثناء من قوله: «فَفِي النَّارِ» كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك[3]؛ وهذا قول رواه أبو نَضْرة عن أبي سعيد الخُدْرِي

---

(١) هو العجاج يصف المفازة.

(٢) السحيل: الصوت الذي يدور في صدر الحمار.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧ والطبري ١٨٥٩١ والدر ٣/ ٦٣٤.

وجابر رضي الله عنهما. وإنما لم يقل من شاء؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص؛ كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣]. وعن أبي نَضْرَة عن رسول الله ﷺ «إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية»[١]. الثاني: أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدّة من النار؛ وعلى هذا يكون قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من «خَالِدِينَ»؛ قاله قتادة والضّحاك وأبو سِنان وغيرهم. وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

[٣٦١٥] «يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحُمَمَة[٢] أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون» وقد تقدّم هذا المعنى في «النساء» وغيرها. الثالث: أن الاستثناء من الزَّفير والشَّهيق؛ أي لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذي لم يذكره، وكذلك لأهل الجنة من النعيم ما ذكر، وما لم يذكر. حكاه ابن الأنباري. الرابع: قال ابن مسعود: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ» لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم، ثم يجدد خلقهم.

قلت: وهذا القول خاص بالكافر والاستثناء له في الأكل، وتجديد الخلق. الخامس: أن «إلا» بمعنى «سوى» كما تقول في الكلام: ما معي رجل إلاّ زيد، ولي عليك ألفا درهم إلا الألف التي لي عليك. قيل: فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود. السادس: أنه استثناء من الإخراج، وهو لا يريد أن يخرجهم منها. كما تقول في الكلام: أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره، وأنت مقيم على ذلك الفعل؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها، ذكر هذين القولين الزّجاج عن أهل اللغة، قال: ولأهل المعاني قولان آخران، فأحد القولين: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ» من مقدار موقفهم على رأس قبورهم، وللمحاسبة، وقدر مكثهم في الدنيا، والبرزخ، والوقوف للحساب. والقول الآخر: وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب، وتقديره: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوٰت وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ» من زيادة النعيم لأهل النعيم، وزيادة العذاب لأهل الجحيم.

[٣٦١٥] صحيح أخرجه البخاري ٦٥٥٩ و٧٤٥٠ وأحمد ٣/ ١٣٤ وعبد الرزاق ٢٠٨٥٩ وأبو يعلىٰ ٢٨٨٦ من حديث أنس.

---

(١) هذا مرسل، أبو نضرة تابعي، ولم أقف على إسناده، وهو غير صحيح، فلو صح ما اختلف المفسرون في تفسير الآية.

(٢) الرماد والفحم وكل ما احترق من النار واحده: حمة.

قلت: فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين في الدنيا واختاره التّرمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي، أي خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض، وذلك مدّة العالم، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه، وهو قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨] فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم، واشترىٰ منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفّىٰ بذلك العهد فله الجنة، ومن ذهب برقبته يخلّد في النار بمقدار دوام السموات والأرض، فإنما داما للمعاملة؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩] فيخلّد أهل الدارين بمقدار دوامهما، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحقّ الأحديّة، فمن لقيه موحّداً لأحديته بقي في داره أبداً، ومن لقيه مشركاً بأحديّته إلهاً بقي في السجن أبداً؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود، ثم قال: «إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ» من زيادة المدّة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبداً. وقد قيل: إن «إلا» بمعنى الواو، قاله الفراء وبعض أهل النظر وهو ـ الثامن ـ والمعنى: وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدّة دوام السموات والأرض في الدنيا. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ١٥٠] أي ولا الذين ظلموا. وقال الشاعر[1]:

وكــــلُّ أخٍ مفــــارِقُـــه أخـــوه لعَمــــرُ أبيــــكَ إلا الفَـــرْقَـــدان

أي والفرقدان. وقال أبو محمد مكيّ: وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون «إلا» بمعنى الواو، وقد مضى في «البقرة» بيانه. وقيل: معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] أي كما قد سلف، وهو ـ التاسع، العاشر ـ وهو أن قوله تعالى: «إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ» إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام؛ فهو على حدّ قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فهو استثناء في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك؛ كأنه قال: إن شاء ربك، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى: «عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» ونحوه عن أبي عُبيد قال: تقدّمت عزيمة المشيئة من الله تعالى في خلود الفريقين في الدارين؛ فوقع لفظ الاستثناء، والعزيمة قد تقدّمت في الخلود، قال: وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

(١) هو عمرو بن معدي كرب.

ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقد علم أنهم يدخلونه حتماً، فلم يوجب الاستثناء في الموضعين خياراً؛ إذ المشيئة قد تقدّمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام؛ ونحوه عن الفراء. وقول ـ حادي عشر ـ وهو أن الأشقياء هم السعداء، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم، والاستثناء في الموضعين راجع إليهم؛ وبيانه أن «ما» بمعنى «من» استثنى الله عز وجل من الداخلين في النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد ﷺ بما معهم من الإيمان، واستثنى من الداخلين في الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة. وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني؛ كأنه قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ ألا يخلده فيها، وهم الخارجون منها من أمة محمد ﷺ بإيمانهم وبشفاعة محمد ﷺ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء؛ كما روى الضّحّاك عن ابن عباس إذ قال: الذين سعِدوا شَقُوا بدخول النار ثم سعِدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة.

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائي «وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا» بضم السين. وقال أبو عمرو: والدليل على أنه سَعِدوا أن الأول شَقُوا ولم يقل أشقوا. قال النحاس: ورأيت عليّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائيّ «سُعِدوا» مع علمه بالعربية! إذ كان هذا لحناً لا يجوز؛ لأنه إنما يقال: سَعِد فلان وأسعده الله، وأسعد مثل أُمرِض؛ وإنما احتج الكسائي بقولهم: مسعود ولا حجة له فيه؛ لأنه يقال: مكان مسعود فيه، ثم يحذف فيه ويسمى به. قال المهدوي: ومن ضمّ السين من «سعدوا» فهو محمول على قولهم: مسعود وهو شاذ قليل؛ لأنه لا يقال: سعده الله، إنما يقال: أسعده الله. وقال الثعلبي: «سُعِدوا» بضم السين أي رزقوا السعادة؛ يقال: سُعِد وأسعِد بمعنى واحد وقرأ الباقون «سَعدوا» بفتح السين قياساً على «شَقُوا» واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقال الجوهري: والسعادة خلاف الشّقاوة؛ تقول: منه سَعِد الرجل بالكسر فهو سعيد، مثل سَلِم فهو سليم، وسعُد فهو مسعود؛ ولا يقال فيه: مُسْعَد، كأنهم ٱستغنوا عنه بمسعود. وقال القشيريّ أبو نصر عبد الرحيم: وقد ورد سَعَده الله فهو مسعود، وأسعده الله فهو مسعَد؛ فهذا يقوي قول الكوفيين. وقال سيبويه: لا يقال سُعِد فلان كما لا يقال شُقي فلان؛ لأنه مما لا يتعدى.

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ۝١٠٨﴾ أي غير مقطوع؛ من جَذّه يَجُذُّه أي قطعه؛ قال النابغة:

تَجُدُّ السَّلُوقِيَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ[1]

(١) السلوقي: درع منسوب إلى قرية باليمن. الصفاح: الحجارة العراض. الحباحب: ذباب له شعاع بالليل. وقيل: الشَّرر.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ﴾ جزم بالنهي؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال. ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أي في شك. ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من الآلهة أنها باطل. وأحسن من هذا: أي قل يا محمد لكل من شك «لاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاَءِ» أن الله عز وجل ما أمرهم به، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليداً لهم. ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: نصيبهم من الرزق؛ قاله أبو العالية. الثاني: نصيبهم من العذاب؛ قاله ٱبن زيد. الثالث: ما وُعِدوا به من خير أو شر؛ قاله ٱبن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر. قيل: المراد بين المختلفين في كتاب موسى؛ فإنهم كانوا بين مصدّق بـه ومكذّب. وقيل: بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب، ولكن سبق الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ إن حملت على قوم موسى؛ أي لفي شك من كتاب موسى فهم في شك من القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي إن كلاً من الأمم التي عددناهم يرون جزاء أعمالهم؛ فكذلك قومك يا محمد. وٱختلف القراء في قراءة ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ فقرأ أهل الحرمين ـ نافع وٱبن كثير وأبو بكر معهم ـ «وَإِنْ كُلاًّ لَمَا» بالتخفيف، على أنها «إن» المخففة من الثقيلة معملة؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه، قال سيبويه: حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول: إن زيداً لمنطلقٌ؛ وأنشد قول الشاعر[1]:

كأَنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ

أراد كأنها ظبية فخفّف ونصب ما بعدها؛ والبصريون يجوزون تخفيف «إنّ» المشدّدة مع إعمالها؛ وأنكر ذلك الكسائيّ وقال: ما أدري على أي شيء قرىء «وَإِنْ كُلاًّ»! وزعم

(١) هو ابن صريم اليشكري.

الفراء أنه نصب «كلاّ» في قراءة من خفف بقوله: «لَيُوفينهم» أي وإن ليوفينهم كلاّ؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا: هذا من كبير الغلط؛ لا يجوز عند أحد زيداً لأضربنه[1]. وشدّد الباقون «إنّ» ونصبوا بها «كلاّ» على أصلها. وقرأ عاصم وحمزة وأبن عامر «لَمَّا» بالتشديد. وخففها الباقون على معنى: وإن كلا ليوفينهم، جعلوا «ما» صلة. وقيل: دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ«ـما».
وقال الزجاج: لام «لمّا» لام «إنّ» و«ما» زائدة مؤكدة؛ تقول: إن زيداً لمنطلق؛ فإنّ تقتضي أن يدخل على خبرها أو آسمها لام كقولك: إنّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢١]. واللام في «ليوفينهم» هي التي يُتَلقى بها القسم، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشدّدة أو المخففة؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ«ـما» و«ما» زائدة مؤكدة، وقال الفراء: «ما» بمعنى «من» كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢] أي وإنّ كلاً لمن ليوفِينهم، واللام في «ليوفينهم» للقسم؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج، غير أن «ما» عند الزجاج زائدة وعند الفراء آسم بمعنى «من». وقيل: ليست بزائدة، بل هي آسم دخل عليها لام التأكيد، وهي خبر «إن» و«ليوفينهم» جواب القسم، التقدير: وإنكلاً خَلْق ليوفينهم ربك أعمالهم. وقيل: «ما» بمعنى «من» كقوله: ﴿فَأَنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] أي مَنْ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه. وأما من شدّد «لما» وقرأ «وإنَّ كُلاًّ لَمَّا» بالتشديد فيهما ـ وهو حمزة ومن وافقه ـ فقيل: إنه لحن؛ حكي عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز؛ ولا يقال: إنّ زيداً إلاّ لأضربَنّه، ولا لَمّا لضربته. وقال الكسائي: الله أعلم بهذه القراءة، وما أعرف لها وجهاً. وقال هو وأبو علي الفارسي: التشديد فيهما مشكل. قال النحاس وغيره: وللنحويين في ذلك أقوال: الأول: أن أصلها «لمن ما» فقلبت النون ميماً، واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى فصارت «لما» و«ما» على هذا القول بمعنى «من» تقديره: وإن كلا لمن الذين؛ كقولهم:

وإنّـيَ لَمَّـا أصْـدِرُ الأمـرَ وجهَـهُ إذا هـو أَعْيَـا بـالسَّبِيـلِ مَصَـادِرُه

وزيّف الزجاج هذا القول، وقال: «من» آسم على حرفين فلا يجوز حذفه. الثاني؛ أن الأصل لِمن ما، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات، والتقدير: وإنّ كُلاًّ لِمَنْ خَلْقٍ ليوفينهم. وقيل: «لمَّا» مصدر «لَمَّ» وجاءت بغير تنوين حملاً للوصل على الوقف؛ فهي على هذا كقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ [الفجر: ١٩] أي جامعاً للمال المأكول؛ فالتقدير على هذا: وإن كلاًّ ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لمًّا؛ أي جامعة

(١) قال الطبري: وذلك لأن العرب لاتنصب بفعل بعد لام القسم اسماً قبلها.

لأعمالهم جمعاً، فهو كقولك: قياماً لأقومنّ. وقد قرأ الزهري «لَمًّا» بالتشديد والتنوين على هذا المعنى. الثالث: أن «لمّا» بمعنى «إلاّ» حكى أهل اللغة: سألتك بالله لمّا فعلت؛ بمعنى إلاّ فعلت؛ ومثله قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ [الطارق: ٤]أي إلا عليها؛ فمعنى الآية: ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم؛ قال القُشيريّ: وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفي لقوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ حتى تقدر «إلا» ولا يقال: ذهب الناس لما زيد. الرابع: قال أبو عثمان المازني: الأصل وإن كلاّ لَمَا بتخفيف «لَمّا» ثم ثقلت كقوله[1]:

لقد خَشِيتُ أَنْ أَرى جَدَبَّا في عامِنَا ذا بعدَ ما أَخْصَبَّا

وقال أبو إسحاق الزجاج: هذا خطأ! إنما يخفّف المثقل، ولا يثقّل المخفّف. الخامس: قال أبو عبيد القاسم بن سلاّم: يجوز أن يكون التشديد من قولهم: لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّهُ لَمًّا إذا جمعته، ثم بنى منه فَعْلَى، كما قرىء ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] بغير تنوين وبتنوين. فالألف على هذا للتأنيث، وتمال على هذا القول لأصحاب الإمالة؛ قال أبو إسحاق: القول الذي لا يجوز غيره عندي أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون بمعنى «ما» مثل: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ [الطارق: ٤] وكذا أيضاً تشدّد على أصلها، وتكون بمعنى «ما» و«لما» بمعنى «إلا» حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين؛ وأن «لما» يستعمل بمعنى «إلا» قلت: هذا القول الذي ارتضاه الزجاج حكاه عنه النحاس وغيره؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له، إلا أن ذلك القول صوابه «إنْ» فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا وبقيت قراءتان؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أُبَي: «وَإِنْ كُلٌّ إلاّ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ» وروي عن الأعمش «وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا» بتخفيف «إن» ورفع «كل» وبتشديد «لما». قال النحاس: وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها «إنْ» بمعنى «ما» لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١﴾ تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولغيره. وقيل: له والمراد أمته؛ قاله السديّ. وقيل: «اْسْتَقِمْ» أطلب الإقامة على الدّين من الله وأسأله ذلك. فتكون

(١) البيت لرؤبة بن العجاج.

السين سين السؤال، كما تقول: أستغفر الله أطلب الغفران منـه والاستقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال؛ فاستقم على امتثال أمر الله. وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك! قال:

[٣٦١٦] «قل آمنت بالله ثم استقم». وروى الدارميّ أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزديّ قال: دخلت على ابن عباس فقلت أوصني! فقال: نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع. ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي استقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومَن بعده ممن اتبعه من أمته. قال ابن عباس: ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! فقال:

[٣٦١٧] «شيبتني هود وأخواتها». وقد تقدّم في أول السورة. وروي عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ قال سمعت أبا علي السَّرِي يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود». فقال: «نعم» فقلت له: ما الذي شيّبك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم! فقال: «لا ولكن قوله: فاستقم كما أمرت». ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ نهي عن الطغيان والطغيان مجاوزة الحد؛ ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾[الحاقة: ١١]. وقيل: أي لا تتجبروا على أحد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به، قال قتادة: معناه لا تودّوهم ولا تطيعوهم. ابن جريج: لا تميلوا إليهم. أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم؛ وكله متقارب. وقال ابن زيد: الركون هنا الإدْهَان[1] وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم.

[٣٦١٦] أخرجه مسلم (٣٨) والطيالسي ١٢٣١ والترمذي ٢٤١٠ وابن ماجه ٣٩٧٢ وأحمد ٣/٤١٣ وابن حبان ٩٤٢ من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي.

[٣٦١٧] تقدم في أول هذه السورة ٣٥٧٢ وبرقم ٣٥٧٣.

---

(١) من المداهنة وهي المصانعة.

الثانية: قرأ الجمهور: «تَرْكَنُوا» بفتح الكاف؛ قال أبو عمرو: هي لغة أهل الحجاز. وقرأ طلحة بن مُصرِّف وقتادة وغيرهما: «تركُنوا» بضم الكاف؛ قال الفراء: وهي لغة تميم وقيس. وجوز قوم ركَن يركَن مثل منَعَ يَمنَع.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قيل: أهل الشرك. وقيل: عامة فيهم وفي العصاة، على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: ٦٨] الآية. وقد تقدّم. وهذا هو الصحيح في معنى الآية؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة؛ وقد قال حكيم[(١)]:

عن المرء لا تَسأَل وسَلْ عن قَرينه ... فكلُّ قرينٍ بالمُقَارن يَقْتَدِي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقيّة فقد مضى القول فيها في «آل عمران» و«المائدة». وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحرقكم. بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم وموافقتهم في أمورهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان، وإليها يفزع في النوائب؛ وكان النبي ﷺ إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة[(٢)].

وقال شيوخ الصوفية: إن المراد بهذه الآية ٱستغراق الأوقات بالعبادة فرضاً ونفلاً؛ قال ٱبن العربي: وهذا ضعيف، فإن الأمر لم يتناول ذلك إلا واجباً لا نفلاً، فإن الأوراد معلومة، وأوقات النوافل المرغّب فيها محصورة، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم، وليس ذلك في قوة بشر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ قال مجاهد الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر؛ وٱختاره ٱبن عطية. وقيل: الطرفان الصبح

---

(١) هو طرفة بن العبد.

(٢) مضىٰ في سورة البقرة.

والمغرب؛ قاله ٱبن عباس والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثاني العصر وحده؛ وقاله قتادة والضحّاك. وقيل: الطّرفان الظهر والعصر. والزُّلَف المغرب والعشاء والصبح؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة. وحكى الماورديّ أن الطرف الأوّل صلاة الصبح باتفاق.

قلت: وهذا الاتفاق ينقصه القول الذي قبله. ورجح الطّبري أن الطرفين الصبح والمغرب، وأنه ظاهر؛ قال ٱبن عطية: ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل. قال ٱبن العربي: والعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل! فقلب القوس ركوة، وحاد عن البرجاس[1] غلوة؛ قال الطبري: والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب، ولم يجمع معه على ذلك أحد.

قلت: هذا تحامل من ٱبن العربي في الرد، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد؛ وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح، وقد وقع الاتفاق ـ إلا من شذّ ـ بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمداً أنْ يومه ذلك يوم فطر، وعليه القضاء والكفارة، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار؛ فدلّ على صحة ما قاله الطّبري في الصبح، وتبقى عليه المغرب والردّ عليه فيه ما تقدّم. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي في زُلَفٍ من الليل، والزّلف الساعات القريبة بعضها من بعض؛ ومنه سميت المزْدَلِفَة؛ لأنها منزل بعد عَرَفَة بقرب مكة. وقرأ ابن القَعْقاع وابن أبي إسحاق وغيرهما «وَزُلُفاً» بضم اللام جمع زَلِيف؛ لأنه قد نطق بزليف، ويجوز أن يكون واحده «زُلُفة» لغة؛ كبُسرة وبسُر، في لغة من ضمّ السين. وقرأ ٱبن محيصن «وَزُلْفاً» من الليل بإسكان اللام؛ والواحدة زُلْفة تجمع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدرّةٍ ودُرّ وبُرّة وبُرّ. وقرأ مجاهد وٱبن محيصن أيضاً «زُلْفَى» مثل قُربى. وقرأ الباقون «وَزُلَفاً» بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف. قال ابن الأعرابي: الزُّلف الساعات، واحدها زُلْفَة. وقال قوم: الزّلفة أوّل ساعة من الليل بعد مغيب الشمس؛ فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة العَتَمَة؛ قاله ابن عباس. وقال الحسن: المغرب والعشاء. وقيل: المغرب والعشاء والصبح؛ وقد تقدّم. وقال الأخفش: يعني صلاة الليل ولم يعين.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذهب جمهور المتأولين من

---

(١) البرجاس: شيء يوضع على رأس رمح ونحوه. وهو مولّد. والغلوة: قدر رمية سهم.

الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس وقال مجاهد: الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، قال ٱبن عطية: وهذا على جهة المثال في الحسنات، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات؛ لقوله ﷺ:

[٣٦١٨] «ما ٱجتنبتِ الكبائر».

قلت: سبب النزول يعضد قول الجمهور؛ نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو أبو اليَسَر بن عمرو. وقيل: ٱسمه عَبّاد؛ خلا بامرأة فقبّلها وتلذذ بها فيما دون الفرج. روى الترمذي عن عبد الله قال:

[٣٦١٩] جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت ٱمرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أَمسّها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله! لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ إلى آخر الآية؛ فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا بل للناس كافة». قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وخرّج أيضاً عن ٱبن مسعود أن رجلاً أصاب من ٱمرأة قُبلةَ حرام فأتى النبي ﷺ فسأله عن كفارتها فنزلت: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فقال الرجل:

[٣٦٢٠] أَلِي هذه يا رسول الله؟ فقال: «لك ولمن عمل بها من أمتي». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروي عن أبي اليَسَر قال: أتتني ٱمرأة تبتاع تمراً فقلت: إن في البيت تمراً أطيب من هذا، فدخلت معي في البيت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال: ٱستر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال: ٱستر على نفسك وتُبْ ولا تخبر أحداً فلم أصبر، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال:

[٣٦١٨] صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٣ والترمذي ٢١٤ وابن ماجه ١٠٨٦ وأحمد ٢/٣٥٩ وابن حبان ١٧٣٣ من حديث أبي هريرة وصدره «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهنّ...».

[٣٦١٩] صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٣ ح ٤٢ والترمذي ٣١١٢ والطبري ١٨٦٦٨ من حديث ابن مسعود.

[٣٦٢٠] صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٣ ح ٣٩ و ٤٠ والترمذي ٣١١٤ من حديث ابن مسعود.

[٣٦٢١] «أَخَلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا»؟ حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار. قال: وأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾. قال أبو اليَسَر: فأتيته فقرأها عليّ رسول الله ﷺ فقال أصحابه: يا رسول الله! أَلِهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال: «بل للناس عامة». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقيس بن الربيع ضعّفه وَكِيعٌ وغيره[1]؛ وقد روي أن النبي ﷺ أعرض عنه، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له:

[٣٦٢٢] «أشهدت معنا الصلاة؟ قال نعم؛ قال: «اذهب فإنها كفارة لما فعلت». وروي أن النبي ﷺ لما تلا عليه هذه الآية قال له:

[٣٦٢٣] «قم فصل أربع ركعات». والله أعلم. وخرّج الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال:

[٣٦٢٤] «لم أر شيئاً أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾».

الخامسة: دلّت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللّمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ، وقد يستدلّ به على أن لا حدّ ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وُجدا في ثوب واحد، وهو اختيار ابن المنذر؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء في هذه المسألة ذكر هذا الحديث مشيراً إلى أنه لا يجب عليهما شيء، وسيأتي ما للعلماء في هذا في «النور» إن شاء الله تعالى.

[٣٦٢١] أخرجه الترمذي ٣١١٥ والطبري ١٨٦٩٨ من حديث أبي اليَسَر واسمه كعب بن عمرو، وهو حسن لشواهده. قال الترمذي: فيه قيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره ورواه شريك بمثل رواية قيس ا هـ.

[٣٦٢٢] أخرجه الطبري ١٨٦٩٧ من حديث أبي اليَسَر، وإسناده ضعيف لضعف قيس بن الربيع، والحديث صحيح أخرجه مسلم ٢٧٦٥ وليس فيه «نزل جبريل» وهو عنده من حديث أبي أمامة.

[٣٦٢٣] أخرجه الطبري ١٨٦٩٦ عن يحيى بن جدة، وهذا مرسل لأن يحيى تابعي. وهو يخالف ما رواه مسلم ٢٧٦٤ من حديث أنس، وفيه «هل حضرت الصلاة معنا؟ قال: نعم. قال: قد غُفر لك».

[٣٦٢٤] ضعيف. الحكيم في نوادر الأصول ص ٢٣٩ والطبراني في الكبير ١٢٧٩٨ من حديث ابن عباس، وقال الهيثمي في المجمع ٣٩/٧: فيه مالك بن يحيى النُّكري ضعيف.

---

(١) إلى هنا كلام الترمذي.

السادسة: ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال: «أَقِمِ الصَّلاَةَ» الآية. وقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية. وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨]. وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. وقال: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الحج: ٧٧]. وقال: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤] على ما تقدم. وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك؛ وهذا كله مجمل أجمله في كتابه، وأحال على نبيه في بيانه؛ فقال جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فبيّن ﷺ مواقيت الصلاة، وعدد الركعات والسَّجَدَات، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها، وما لا تصح الصلاة إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال في صحيح البخاري:

[٣٦٢٥] «صلّوا كما رأيتموني أصلي». ونقل ذلك عنه الكافّة عن الكافة، على ما هو معلوم، ولم يمت النبي ﷺ حتى بَيّنَ جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدِّين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى. والذكرى مصدر جاء بألف التأنيث.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي على الصلاة؛ كقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. وقيل: المعنى وأصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ يعني المصلين.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ أي فهلاّ كان. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي من الأمم

[٣٦٢٥] متفق عليه. وقد مضى.

التي قبلكم. ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر. ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم. ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ لِما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهذا توبيخ للكفار. وقيل: لولا هاهنا للنفي؛ أي ما كان من قبلكم؛ كقوله: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ [يونس: ٩٨] أي ما كانت. ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ استثناء منقطع؛ أي لكن قليلاً. ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نهوا عن الفساد في الأرض. قيل: هم قوم يونس؛ لقوله: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨]. وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي أَشْرَكُوا وَعَصَوا. ﴿مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة. ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي أهل القرى. ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط؛ ودلّ هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشِّرك، وإن كان عذاب الشِّرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذيّ من حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٣٦٢٦] «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده». وقد تقدّم. وقيل: المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون، فإنه يكون ذلك ظلماً لهم ونقصاً من حقهم، أي ما أهلك قوماً إلا بعد إعذار وإنذار. وقال الزّجاج: يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح؛ لأنه تصرف في ملكه؛ دليله قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]. وقيل: المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أي مخلصون في الإيمان. فالظلم المعاصي على هذا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال سعيد بن جُبير: على ملّة الإسلام وحدها. وقال الضّحاك: أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى. ﴿وَلاَ يَزَالُونَ

[٣٦٢٦] إسناده قوي. وقد مضى.

﴿مُخْتَلِفِينَ ۝﴾ أي على أديان شتى؛ قاله مجاهد وقتادة. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ استثناء منقطع؛ أي لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف. وقيل: مختلفين في الرزق، فهذا غنيّ وهذا فقير. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ بالقناعة؛ قاله الحسن. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء ويمان: الإشارة للاختلاف؛ أي وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس ومجاهد وقَتَادة والضّحاك: ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال: «وَلِذَٰلِكَ» ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضاً فإن تأنيث الرحمة غير حقيقي، فحملت على معنى الفضل. وقيل: الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة، وقد يشار بـ «ذلك» إلى شيئين متضادين؛ كقوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ١١٠] وكذلك قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أي ولِما ذُكِر خَلَقَهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألت مالكاً عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير؛ أي خلَق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة. وروي عن ابن عباس أيضاً قال: خَلَقهم فريقين، فريقاً يرحمه وفريقاً لا يرحمه. قال المهدويّ: وفي الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى: ولا يزالون مختلفين إلا من رحِم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم. وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝﴾ [هود: ١٠٣] والمعنى: ولشهود ذلك اليوم خلقهم. وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝﴾ أي للسعادة والشّقاوة خلقهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى «تمت» ثبت ذلك كما أخبر وقدّر في أزله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝﴾ «مِن» لبيان الجنس؛ أي من جنس الجِنة وجنس الناس. «أجمعين» تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه ﷺ أنه يملأ جنته بقوله:

[٣٦٢٧] «ولكل واحدة منكما مِلؤها». خرجه البخاريّ من حديث أبي هريرة وقد تقدّم.

[٣٦٢٧] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٥٠ من حديث أبي هريرة في أثناء خبر طويل وصدره «تحاجَّتِ الجنة والنار...». وهو عند مسلم ٢٨٤٧ وأحمد ٣/ ١٣ من حديث أبي سعيد.

قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ «كُلاًّ» نصب بـ «نقص» معناه وكلّ الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقصّ عليك. وقال الأخفش: «كُلاًّ» حال مقدّمة، كقولك: كُلاًّ ضربت القوم. ﴿ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم. ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أي على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. وقيل: نزيدك به تثبيتاً ويقيناً. وقال ٱبن عباس: ما نشدّ به قلبك. وقال ٱبن جُريج: نُصبّر به قلبك حتى لا تجزع. وقال أهل المعاني: نُطيّب، والمعنى متقارب: و «ما» بدل من «كلاًّ» المعنى: نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك. ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ أي في هذه السورة؛ عن ابن عباس وأبي موسى وغيرهما؛ وخصّ هذه السورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار. وقيل: خصّها بالذّكر تأكيداً وإن كان الحقّ في كل القرآن. وقال قَتادة والحسن: المعنى في هذه الدنيا، يريد النبوّة. ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ الموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة؛ وهذا تشريف لهذه السّورة؛ لأن غيرها من السّور قد جاء فيها الحقّ والموعظة والذّكرى ولم يقل فيها كما قال في هذه على التّخصيص. «وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» أي يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد ووعيد. ﴿ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ تهديد آخر، و قد تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي غيبهما وشهادتهما؛ فحذف لدلالة المعنى. وقال ٱبن عباس: خزائن السموات والأرض. وقال الضّحاك: جميع ما غاب عن العباد فيهما. وقال الباقون: غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض. وقال أبو علي الفارسيّ: «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ» أي عِلم ما غاب فيهما؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعاً؛ لأنه حذف حرف الجر؛ تقول: غبت في الأرض وغبت ببلد كذا. ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ أي يوم القيامة؛ إذ ليس لمخلوق أمر

إلا بإذنه. وقرأ نافع وحفص «يُرْجَعُ» بضم الياء وبفتح الجيم؛ أي يُرَد. ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ أي ألجأ إليه وثِق به. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ أي يجازي كلا بعمله. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة. الباقون بياء على الخبر. قال الأخفش سعيد: «يعملون» إذا لم يخاطب النبي ﷺ معهم؛ قال: بعضهم وقال: «تعملون» بالتاء لأنه خاطب النبي ﷺ وقال: قل لهم «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ». وقال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة «هود» من قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى آخر السورة. تمت سورة «هود» ويتلوها سورة «يوسف» عليه السلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية كلها. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها. وروي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصّة يوسف فنزلت السّورة؛ وسيأتي. وقال سعد بن أبي وقاص:

[٣٦٢٨] أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو قصصت علينا؛ فنزل: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو حدثتنا؛ فأنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]. قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررّها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررّها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرّر، ولا على معارضة غير المتكرّر، والإعجاز لمن تأمل.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ تقدّم القول[1] فيه؛ والتقدير هنا: تلك آيات الكتاب، على الابتداء والخبر. وقيل: «الر» اسم السورة؛ أي هذه السورة المسماة «الر» ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾ يعني بالكتاب المبين القرآن المبين؛ أي المبين حلاله وحرامه،

[٣٦٢٨] أخرجه الحاكم ٢/ ٣٤٥ والواحدي ٥٤٤ من حديث سعد، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

---

(١) أي تقدم الكلام على المقطَّعات في أول سورة البقرة.

وحدوده وأحكامه وهُداه وبركته. وقيل: أي هذه تلك الآيات التي كنتم توعدون بها في التوّراة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يجوز أن يكون المعنى: إنا أنزلنا القرآن عربياً؛ نصب «قرآنا» على الحال؛ أي مجموعاً. و «عربيّاً» نعت لقوله «قرآناً». ويجوز أن يكون توطئة للحال، كما تقول: مررت بزيد رجلاً صالحاً، و «عربيّاً» على الحال، أي يُقرأ بلغتكم يا معشر العرب. أَعْرَبَ بَيَّنَ، ومنه:

[٣٦٢٩] «الثَّيِّبُ تُعرِب عن نفسها». ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ أي لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه. وبعض العرب يأتي بأن مع «لعل» تشبيهاً بعسى. واللام في «لعل» زائدة للتوكيد؛ كما قال الشاعر[1]:

يـا أَبَتَـا عَـلَّكَ أَوْ عَسَاكـا

وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أي لتكونوا على رجاء من تدبّره؛ فيعود معنى الشّك إليهم لا إلى الكتاب، ولا إلى الله عز وجل. وقيل: معنى «أَنْزَلْنَاهُ» أي أنزلنا خبر يوسف؛ قال النحاس: وهذا أشبه بالمعنى؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن خبر يوسف؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما في التوراة، وفيه زيادة ليست عندهم. فكان هذا للنبي ﷺ ـ إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتاباً قـط ولا هو في موضع كتاب ـ بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتي فيه.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ ابتداء وخبر. ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ بمعنى المصدر، والتقدير: قصصنا أحسن القَصَص. وأصل القَصَص تتبع الشيء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]أي تتبعي أثره؛ فالقاصّ يتبع الآثار فيخبر بها. والحسن يعود إلى القَصَص لا إلى القصّة. يقال: فلان حسن الاقتصاص للحديث أي جيّد السّياقة له. وقيل: القَصَص ليس مصدراً، بل هو في معنى الاسم، كما يقال: الله رجاؤنا، أي مرجوّنا فالمعنى على هذا: نحن نخبرك بأحسن الأخبار. ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي بوحينا فـ«ما»

[٣٦٢٩] انظر الحديث ٣/ ٧٣ ـ ١٢٣.

---

(١) الرجز للعجاج بن رؤبة.

مع الفعل بمنزلة المصدر. ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا، أو بدل منه، أو عطف بيان. وأجاز الفراء الخفض؛ قال: على التكرير؛ وهو عند البصريين على البدل من «ما». وأجاز أبو إسحاق الرفع على إضمار مبتدأ؛ كأن سائلاً سأله عن الوحي فقيل له: هو هذا القرآن. ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٣)﴾ أي من الغافلين عما عرّفناكه.

مسألة: وٱختلف العلماء لِمَ سُمِيت هذه السورة أحسن القَصَص من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العِبر والحِكم ما تتضمن هذه القصّة؛ وبيانه قوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]. وقيل: سماها أحسن القَصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم ـ بعد الالتقاء بهم ـ عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]. وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين، والجنّ والإنس والأنعام والطّير، وسير الملوك والممالك، والتّجار والعلماء والجهّال، والرجال والنّساء وحِيلهنّ ومكرهنّ، وفيها ذكر التّوحيد والفقه والسَّيَر وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا. وقيل: لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما. وقيل: «أَحْسَنَ» هنا بمعنى أعجب. وقال بعض أهل المعاني: إنما كانت أحسن القَصَص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة؛ ٱنظر إلى يوسف وأبيه وإخوته، وٱمرأة العزيز؛ قيل: والملك أيضاً أسلم بيوسف وحسن إسلامه، ومستعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ (٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ «إذْ» في موضع نصب على الظرف؛ أي ٱذكر لهم حين قال يوسف. وقراءة العامة بضم السين. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «يُؤْسِف» بالهمز وكسر السين. وحكى أبو زيد «يؤسَف» بالهمز وفتح السين. ولم ينصرف لأنه أعجميّ؛ وقيل: هو عربيّ. وسئل أبو الحسن الأقطع ـ وكان حكيماً ـ عن «يوسف» فقال: الأسف في اللغة الحزن؛ والأسِيف العبد، وقد ٱجتمعا في يوسف؛ فلذلك سمي يوسف. ﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاء قراءة أبي عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلاً من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة

التأنيث على المذكر فيقال: رجل نُكَحَة وهُزأة؛ قال النحاس: إذا قلت «يَا أَبَتِ» بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها ـ أن قولك: «يا أبه» يؤدّي عن معنى «يا أبي»؛ وأنه لا يقال: «يا أبت» إلا في المعرفة؛ ولا يقال: جاءني أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال: «يا أبتي» لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يَا أَبتِ» فكسر دلّ على الياء لا غير؛ لأن الياء في النية. وزعم أبو إسحاق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: «يا أبتي»؟! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر «يا أبَت» بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا «يا أبتي» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفاً فصارت «يا أبتا» فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا غلاماً أقبل. وأجاز الفراء «يا أبتُ» بضم التاء. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ليس بين النحويين ٱختلاف أنه يقال: جاءني أحدَ عشَر، ورأيت ومررت بأحدَ عشر، وكذلك ثلاثةَ عشَر وتسعةَ عشَر وما بينهما؛ جعلوا الاسمين ٱسماً واحداً وأعربوهما بأخف الحركات. قال السّهيليّ: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسنداً؛ رواه الحارث بن أبي أسامة قال:

[٣٦٣٠] جاء بستانة ـ وهو رجل من أهل الكتاب ـ فسأل النبي ﷺ عن الأحد عشر كوكباً الذي رأى يوسف فقال: «الحرثان والطارق والذيال وقابِس والمصبح والضروح وذو الكنفات وذو القرع والفَلِيق ووَثّاب والعَمُودَان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له». قال ٱبن عباس وقَتَادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قَتَادة أيضاً: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت أبيه. ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ توكيد. وقال: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» فجاء مذكراً؛ فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسّجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنها كما يخبر عمن يعقل. وقد تقدم هذا المعنى في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾. [الأعراف: ١٩٨] والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته، وإن كان خارجاً عن الأصل.

[٣٦٣٠] ضعيف جداً. أخرجه البزار ٢٢٢٠ والطبري ١٨٧٩٢ من حديث جابر، ومداره على الحكم بن ظُهير، قال الهيثمي في المجمع ١١٠٨٤: متروك، وضعفه ابن كثير في تفسيره ٢/٤٨٦ والصواب أنه واهٍ بمرة قال الذهبي في ميزانه في ترجمة الحكم: قال البخاري: منكر الحديث. وقال يحيى: ليس بثقة اهـ والمعروف في قول البخاري عن رجل ما: منكر الحديث أي: لايحل الرواية عنه كما قرر ذلك البخاري في تاريخه. وانظر تفسير الشوكاني ١٢٦١ بتخريجي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾.

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي يحتالوا في هلاكك؛ لأن تأويلها ظاهر؛ فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ. واللام في «لك» تأكيد، كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۝٤٣﴾ [يوسف: ٤٣].

الثانية: الرؤيا حالة شريفة، ومنزلة رفيعة؛ قال ﷺ:

[٣٦٣١] «لم يبق بعدي من المبشِّرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له». وقال:

[٣٦٣٢] «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً». وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة، وروي «من سبعين جزءاً من النبوّة»[(١)]. وروي من حديث ٱبن عباس رضي الله عنهما «جزءاً من أربعين جزءاً من النبوّة»[(٢)]. ومن حديث ٱبن عمرو[(٣)] «جزء من تسعة وأربعين جزءاً». ومن حديث العباس «جزء من خمسين جزءاً من النبوّة»[(٤)]. ومن حديث أنس «من ستة وعشرين»[(٥)].

[٣٦٣٣] وعن عُبادة بن الصّامت: «من أربعة وأربعين من النبوّة». والصحيح منها

[٣٦٣١] أخرجه مسلم ٤٧٩ وأبو داود ٨٧٦ والنسائي ٢/٢١٧ وابن حبان ١٨٩٦ من حديث ابن عباس بأتم منه، وله شواهد عند البخاري ٦٩٩٠ من حديث أبي هريرة، وأحمد ٦/١٢٩ من حديث عائشة.

[٣٦٣٢] أخرجه البخاري ٧٠١٧ ومسلم ٢٢٦٣ وأحمد ٢/٥٧٠ والدارمي ٢/١٢٥ والترمذي ٢٢٧٠ وابن ماجه ٣٩١٧ وابن حبان ٦٠٤٠ من طرق عن أبي هريرة مرفوعاً في أثناء حديث.

[٣٦٣٣] أخرجه الطبري ١٧٧٤٥ من حديث عبادة لكن على الشك فيه «جزء من أربعة وأربعين ـ أو جزء من =

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢٦٥ وأحمد ٢/١٨ من حديث ابن عمر وابن حبان ٦٠٤٤ وأحمد ٢/٢٣٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) ذكره الحافظ في الفتح ١٢/٣٦٣ فقال: أخرجه الطبري في تهذيب الآثار عن ابن عباس مرفوعاً به.

(٣) أخرجه الطبري ١٧٧٤٤ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وفيه رشدين بن سعد غير قوي، وكذا درَّاج فيه ضعف. تنبيه: وقع في الأصل «بن عمر» والتصويب من الطبري والفتح ١٢/٣٦٣.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٧/١٧٣/١١٧١٧ فقال: أخرجه البزار والطبراني عن ابن عباس عن العباس مرفوعاً، وفيه ابن إسحق مدلس، وبقية رجاله ثقات.

(٥) ذكره الحافظ في الفتح ١٢/٣٦٣ فقال: أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس، والمحفوظ عن أنس «من ستة وأربعين».

حديث الستة والأربعين، ويتلوه في الصحة حديث السبعين؛ ولم يخرّج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين، أما سائرها فمن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بَطّال. قال أبو عبد الله المازَريّ: والأكثر والأصح عند أهل الحديث «من ستة وأربعين». قال الطّبريّ: والصواب أن يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله: «إنها جزء من سبعين جزءاً من النبوّة» فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان؛ وأما قوله: «إنها من أربعين ـ أو ـ ستة وأربعين» فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السَّبَرات[1]، والصبر في الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة ـ إن شاء الله ـ جزء من أربعين جزءاً من النبوّة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين جزءين؛ ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال: اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف متضاد متدافع ـ والله أعلم ـ لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدِّين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوّة أقرب: كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

قلت: فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكره أبو سعيد الأسْفاقُسِي عن بعض أهل العلم قال: معنى قوله: «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة» فإن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ في النبوّة ثلاثة وعشرين عاماً ـ فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاماً وجدنا ذلك جزءاً من ستة وأربعين جزءاً؛ وإلى هذا القول أشار المازَريّ في كتابه «المعلم» واختاره الغزنويّ[2] في تفسيره من سورة «يونس» عند

= ستين جزءاً» وفي إسناده موسى بن عبيدة ضعيف. قال الحافظ في الفتح ١٢/٣٦٣: والمحفوظ عن عبادة «من ستة وأربعين. .».

---

(١) جمع سَبْرَة ـ بسكون الباء ـ شدة البرد.
(٢) وقع في الأصل «القونوي» والصواب ما أثبتهُ.

قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٦٤]. وهو فاسد من وجهين: أحدهما ـ ما رواه أبو سَلَمة عن ابن عباس وعائشة بأن مدّة الوحي كانت عشرين سنة، وأن النبي ﷺ بعث على رأس أربعين، فأقام بمكة عشر سنين؛ وهو قول عروة والشعبيّ وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيّب على اختلاف عنه، وهي رواية ربيعة وأبي غالب عن أنس، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل ـ الثاني: أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى.

الثالثة: إنما كانت الرؤيا جزءاً من النبوّة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب؛ كما قال عليه السلام:

[٣٦٣٤] «إنه لم يبق من مبشِّرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة في النوم» الحديث. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها[1] من النبوّة؛ قال ﷺ:

[٣٦٣٥] «الرؤيا من الله والحُلْم من الشيطان» وأن التصديق بها حقّ، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه؛ ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشِرذمة من المعتزلة.

الرابعة: إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوّة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلِّط أهلاً لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة؛ كمنام رؤيا الملِك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين في السجن، ورؤيا بُخْتُنَصَّر، التي فسّرها دانيال في ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبي ﷺ، ومنام عاتكة، عمة رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة، وقد ترجم البخاري «باب رؤيا أهل السجن» ـ فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوّة؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة؛ وقد تقدّم في «الأنعام» أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء؛ قال المهلَّب: إنما ترجم البخاري بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا

[٣٦٣٤] تقدم برقم ٣٦٣١.

[٣٦٣٥] أخرجه البخاري ٣٣٩٢ و٥٧٤٧ ومسلم ٢٢٦١ وأبو داود ٥٠٢١ والترمذي ٢٢٧٧ وابن ماجه ٣٩٠٩ ومالك ٢/ ٩٥٧ وأحمد ٥/ ٣١٠ من حديث أبي قتادة بأتم منه.

---

(١) كذا في الأصل، والصواب «وإنها».

الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوّة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءاً من النبوّة.

الخامسة: الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقاً لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحُلْم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضِغثاً؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلّب. وقد قسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقساماً تغني عن قول كل قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال:

[٣٦٣٦] «الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليُحزِن ٱبن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة». قال قلت: سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله ﷺ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأى في المنام، رؤيا على وزن فُعلى كالسُّقْيا والبُشْرى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد ٱختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقيل: هي إدراكٌ في أجزاء لم تحلّها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم؛ فيخلق الله تعالى للرائي علماً ناشئاً، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ٱبن العربيّ: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصاً قائماً قاعداً بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات. وقيل: إن لله ملَكاً يعرض المرئيات على المحل المدرِك من النائم، فيمثل له صوراً محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوُجُود، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين تكون مُبشّرةً أو مُنذرة؛ قال ﷺ في صحيح مسلم وغيره:

[٣٦٣٧] «رأيتُ امرأة سوداء[1] ثائرةَ الرأسِ تَخرج من المدينة إلى مَهْيَعة فأوّلتها الحُمَّى».

[٣٦٣٦] صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٧٥ وابن ماجه ٣٩٠٧ والطحاوي في المشكل ٣/ ٤٦ وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٦ وابن حبان ٦٠٤٢ من حديث عوف بن مالك قال البوصيري في زوائد ابن ماجه: إسناده صحيح رجاله ثقات اهـ وأصله عند مسلم ٢٢٦١ من حديث أبي قتادة.

[٣٦٣٧] أخرجه البخاري ٧٠٣٨ و ٧٠٣٩ و ٧٠٤٠ من حديث ابن عمر، ولم أره في مسلم.

---

(١) في الأصل «رأيت سوداء» والتصويب من صحيح البخاري اهـ والمهيعة هي: الجحفة. وهي ميقات أهل الشام.

[٣٦٣٨] و «رأيت سيفي قد ٱنقطع صدرُه وبَقَراً تُنْحَر فأولتُهما رجلٌ من أهل بيتي يُقتل والبقر نفر من أصحابي يُقتلون».

[٣٦٣٩] و «رأيت أني أدخلت يدي في دِرعٍ حصِينة فأولتها المدينة».

[٣٦٤٠] و «رأيت في يديّ سُوَارين فأولتُهما كذابيّن يَخرجان بعدي». إلى غير ذلك مما ضربتْ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلاً فأولا، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكر؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقراً فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه.

السابعة: إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيراً وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: «لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ»؟ فالجواب ـ أن الرؤيا إدراك حقيقةٍ على ما قدّمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وُجدت كما رأى فلا ٱعتراض؛ روي أن يوسف عليه السلام كان ٱبن ٱثنتي عشرة سنة.

الثامنة: هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها.

[٣٦٤١] روى أبو رَزِين العُقَيليّ أن النبيّ ﷺ

قال: «الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوّة».

و «الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدّث بها صاحبها فإذا حدّث بها وقعت فلا تحدّثوا بها إلا عاقلاً أو مُحِباً أو ناصحاً»[1] أخرجه الترمذيّ وقال فيه: حديث حسن

[٣٦٣٨] أخرجه البخاري ٣٦٢٢ و ٤٠٨١ و ٧٠٣٥ ومسلم ٢٢٧٢ وابن حبان ٦٢٧٦ من حديث أبي موسى.

[٣٦٣٩] صحيح. أخرجه أحمد ٣/٣٥١ من حديث جابرٍ بإسناد على شرط مسلم.

[٣٦٤٠] أخرجه البخاري ٧٠٣٧ ومسلم ٢٢٧٤ من حديث أبي هريرة.

[٣٦٤١] حسن. أخرجه أحمد ٤/١٢ والطيالسي ١٠٨٨ والترمذي ٢٢٧٨ وصححه ابن حبان ٦٠٤٩ والحاكم ٤/٣٩٠ وسكت الذهبي كلهم من حديث أبي رزين العُقيلي، وقال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه الحافظ في الفتح ١٢/٤٣٢.

---

(١) هذا السياق لابن حبان ٦٠٥٥ من حديث أبي رزين، وهو عند الترمذي ٢٢٧٨ من حديثه مع اختلاف يسير، وبرقم ٢٢٨٠ من حديث أبي هريرة.

صحيح؛ وأبو رَزِين ٱسمه لَقِيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كلّ أحد؟ فقال: أَبِالنبوّة يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبّر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبّرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأوّلت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوّة فلا يتلاعب بالنبوّة.

التاسعة: وفي هذه الآية دليل على أن مباحاً أن يحذّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغِيبة؛ لأن يعقوب ـ عليه السلام ـ قد حذّر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً، وفيها أيضاً ما يدلّ على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً؛ وقال النبيّ ﷺ:

[٣٦٤٢] «استعينوا على إنـجـاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود».
وفيها أيضاً دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولـم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدلّ أيضاً على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تَغِلّ بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدلّ على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبريّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيويّ، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، والتآمر في قتله، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلّة نبيّ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعاً من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما ٱختلفوا في الصغائر على ما تقدّم ويأتي.

العاشرة: روى البخاريّ عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٣٦٤٣] «لم يبق من النبوّة إلا المبشِّرات» قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: «الرؤيا

[٣٦٤٢] ضعيف. أخرجه ابن عدي ٣/ ٤٠٤ والعقيلي ٢/ ١٠٩ والبيهقي في الشعب ٦٦٥٥ والطبراني في الصغير ١١٥٢ والأوسط كما في المجمع ٨/ ١٩٥ وابن الجوزي ٢/ ١٦٥ من حديث معاذ، ومداره على سعيد بن سلام العطار كذبه يحيى وغيره، وقال الذهبي في ميزانه: قال البخاري: يُذكر بوضع الحديث، وكذبه أحمد، وله شواهد أخرى ذكرها السيوطي في اللآلىء ٢/ ٨١ وكلها واهية، بل قال ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٢٥٥: قال أبي: هذا حديث منكر. لايُعرف له أصلاً وانظر المقاصد الحسنة ١٠٣، والشذرة لابن طولون ٩٢.

[٣٦٤٣] متفق عليه مضى برقم ٣٦٣٤.

الصالحة» وهذا الحديث بظاهره يدلّ على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قِبل الله تعالى لا تسر رائيها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقاً به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأوّلها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حَنْبل تدلّ على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وقد تقدّم في «يونس» في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاريّ[1] مخرجه على الأغلب، والله أعلم.

الحادية عشرة: روى البخاريّ عن أبي سَلَمة قال:

[٣٦٤٤] لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قَتَادة يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدّث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدّث بها أحداً فإنها لن تضره». قال علماؤنا: فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها؛ ألا ترى قول أبي قَتَادة: إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليّ من الجبل، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئاً. وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٣٦٤٥] «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليتعوّذ بالله من الشيطان ثلاثاً وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه». وفي حديث أبي هُريرة عن النبيّ ﷺ قال:

[٣٦٤٦] «إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل». قال علماؤنا: وهذا كله ليس بمتعارض، وإنما هذا الأمر بالتحوّل، والصلاة زيادة، فعلى الرائي أن يفعل الجميع، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوّل عن جنبه، وإذا تمضمض تَفَل وبَصَق، وإذا قام إلى الصلاة

[٣٦٤٤] أخرجه البخاري ٦٩٨٦ و ٦٩٩٥ و ٧٠٠٥ و ٧٠٤٤ ومسلم ٢٢٦١ وأحمد ٥/ ٣٠٣ وابن حبان ٦٠٥٨ من حديث أبي قتادة.

[٣٦٤٥] صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٦٢ وأبو داود ٥٠٢٢ وابن ماجه ٣٩٠٨ وأحمد ٣/ ٣٥٠ وابن حبان ٦٠٦٠ من حديث جابر.

[٣٦٤٦] صحيح. هو طرف حديث أخرجه مسلم ٢٢٦٣ ح ٦ من حديث أبي هريرة.

---

(١) أي المتقدم عن أبي هريرة.

تعوّذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة، وذلك السَّحَر من الليل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ الكاف في موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف، وكذلك الكاف في قوله: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ و «ما» كافّة. وقيل: «وَكَذَٰلِكَ» أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا. قال مقاتل: بالسجود لك. الحسن: بالنبوّة. والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجْتَبَى، وأصله من جَبَيْتُ الشيء أي حصّلته، ومنه جبيت الماء في الحوض؛ قاله النحاس. وهذا ثناءٌ من الله تعالىٰ على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي آتاه[1] الله تعالىٰ؛ من التمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث؛ وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا. قال عبد الله بن شدّاد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسف ﷺ بعد أربعين سنة؛ وذلك منتهى الرؤيا. وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزةٌ له؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ. وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وكان نبينا ﷺ نحو ذلك، وكان الصدّيق رضي الله عنه من أعبر الناس لها، وحَصَل لابن سيرين فيها التقدُّم العظيم، والطبع والإحسان، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيّب فيما ذكروا. وقد قيل في تأويل قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد، فهو إشارة إلى النبوّة، وهو المقصود بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي بالنبوّة. وقيل: بإخراج إخوتك إليك؛ وقيل: بإنجائك من كل مكروه. ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بالخلة، وإنجائه من النار. ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ بالنبوّة. وقيل: من الذبح[2]؛ قاله عِكرمة. وأعلمه الله تعالى بقوله: ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أنه سيعطي بني يعقوب كلهم النبوّة؛ قاله جماعة من المفسرين. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بما يعطيك. ﴿حَكِيمٌ ⑥﴾ في فعله بك.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ⑦ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ⑨﴾.

(١) وقع في الأصل «أتاه».
(٢) تقدم أن الجمهور على أن الذبيح هو إسماعيل، ويأتي في سورة الصافات إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿ ۞لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ يعني من سأل عن حديثهم. وقرأ أهل مكة «آيةٌ» على التوحيد؛ وٱختار أبو عبيد «آياتٌ» على الجمع؛ قال: لأنها خير كثير. قال النحاس: و«آية» هنا قراءة حسنة، أي لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خبّروا به، لأنهم سألوا النبيّ ﷺ وهو بمكة فقالوا[1]: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج ٱبنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي[2]؟ ـ ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء؛ وإنما وجّهَ اليهودُ إليهم من المدينة يسألونه عن هذا ـ فأنزل الله عز وجل سورة «يوسف» جملة واحدة؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة؛ فكان ذلك آية للنبيّ ﷺ، بمنزلة إحياء عيسى ابن مريم عليه السلام الميت. «آيَاتٌ» موعظة؛ وقيل: عبرة. وروي أنها في بعض المصاحف «عبرة». وقيل: بصيرة. وقيل: عجب؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أي عجب. قال الثعلبيّ في تفسيره: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه؛ وقال ٱبن زيد: كانوا أنبياء، وقالوا: ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فبغوه بالعداوة، وقد تقدّم ردّ هذا القول. قال الله تعالى: ﴿ ۞لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ﴾ وأسماؤهم: روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوي ويهوذا وزيالون ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر؛ دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب ٱثني عشر رجلاً. قال السّهيلي: وأمّ يعقوب ٱسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب. وقيل: في ٱسم الأَمَتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحلّ لأحد بعده؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. [النساء: ٢٣] وقد تقدّم الردّ على ما قاله ٱبن زيد، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ ﴾ «يوسف» رفع بالابتداء؛ واللام للتأكيد، وهي التي يتلقى بها القسم؛ أي والله ليوسف. ﴿وَأَخُوهُ﴾ عطف عليه. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ خبره، ولا يثنى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل؛ وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا في كيده. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة، وكانوا عشرة. والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر. وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة؛ ولا واحد لها

---

(١) هو عند الطبري برقم ١٨٧٨٦ عن ابن عباس مختصر.

(٢) لا يصح مثل هذا فإن الأنبياء لا يمرضون مرضاً يحدُّ من نشاطهم وذلك كالخرس والصمم والعمىٰ ونحو ذلك، كما هو مقرر في كتب التوحيد.

من لفظها كالنفر والرهط. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ لم يريدوا ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً؛ بل أرادوا لفي ذهاب عن وجه التدبير، في إيثار ٱثنين على عشرة مع ٱستوائهم في الانتساب إليه. وقيل: لفي خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ في الكلام حذف؛ أي قال قائل منهم: «ٱقْتُلُوا يُوسُفَ» ليكون أحسم لمادة الأمر. ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي في أرض، فأسقط الخافض وٱنتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه فيما حذف منه «في»:

لَـدْنٌ بهَـزِّ الْكَـفِّ يَعْسِـلُ مَتْنُـهُ فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ[1]

قال النحاس: إلا أنه في الآية حسَن كثير؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين، أحدهما بحرف، فإذا حذفت الحرف تعدّى الفعل إليه. والقائل قيل: هو شمعون، قاله وهب بن منبّه. وقال كعب الأحبار: دان. وقال مقاتل: روبيل؛ والله أعلم. والمعنى أرضا تبعد عن أبيه؛ فلا بدّ من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيه في أرض. ﴿يَخْلُ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ معناه: يخلص ويصفو. ﴿لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيقبل عليكم بكليته. ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد الذنب، وقيل: من بعد يوسف. ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ أي تائبين؛ أي تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم؛ وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم. وقيل: «صَالِحِينَ» أي يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾.

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛ قاله ابن عباس. وقيل: روبيل، وهو ٱبن خالته، وهو الذي قال: «فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ» الآيــة. وقيل: شمعون. ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة «في غيابةِ ٱلجبّ». وقرأ أهل المدينة «فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ» وٱختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيه، وأنكر الجمع لهذا. قال النحاس: وهذا تضييق في اللغة؛ «وغيابات» على الجمع يجوز من وجهين: حكى سيبويه سِيرَ عليه عشيّاناتٍ وأصيلاناتٍ، يريد عشِية وأصيلا، فجعل كل وقت منها عشية وأصيلا؛ فكذا جعل كل موضع مما يُغيّب غَيابة. والآخر ـ أن يكون في الجبّ غيابات (جماعة). ويقال: غاب يَغيبُ غَيْباً وغَيابة وغِيَابا؛ كما قال الشاعر:

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية.

أَلاَ فالبَثَا شهرين أو نصفَ ثالثٍ أَنَـا ذَا كُمَـا قـد غَيَّبتْنـي غِيَـابِيَـا

قال الهرويّ: والغَيابة شبه لَجَفٍ[1] أو طاق في البئر فويق الماء، يغيب الشيء عن العين. وقال ابن عُزَيْز: كل شيء غيّب عنك شيئاً فهو غَيابة. قلت: ومنه قيل للقبر غَيابة؛ قال الشاعر:

فـإن أنـا يـومـاً غَيَّبتني غَيَـابَتـي فَسِيروا بسَيْرِي في العَشِيرةِ والأَهلِ

والجبّ الرَّكِيَّة التي لم تُطْوَ، فإذا طُويت فهي بئر؛ قال الأعشى:

لئن كنتَ في جبٍّ ثمانين قامةً ورُقِّيـتَ أسبـابَ السَّمــاءِ بُسلَّـمِ

وسميت جُبًّا لأنها قُطِعت في الأرض قَطْعاً؛ وجمع الجبّ جِببة وجِباب وأجباب؛ وجمع بين الغَيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه في موضع مظلم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر ببيت المقدس، وقيل: هو بالأُرْدُن؛ قاله وهب بن منبّه. مقاتل: وهو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ جزم على جواب الأمر. وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة: «تَلْتَقِطْهُ» بالتاء، وهذا محمول على المعنى؛ لأن بعض السيّارة سيّارة؛ وقال سيبويه: سقطت بعض أصابعه، وأنشد[2]:

وتَشْـرَقَ بـالقـولِ الّـذي قـد أَذعتَـه كما شَرِقتْ[3] صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ

وقال آخر:

أَرَى مَـرَّ السِّنيـنَ أَخَـذْنَ منـيّ كَمَـا أَخَـذَ السَّـرَارُ[4] مـن الهِـلالِ

ولم يقل شَرِق ولا أخذت. والسيّارة الجمع الذي يسيرون في الطريق للسفر؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود؛ فإن من التقطه من السيّارة يحمله إلى موضع بعيد؛ وكان هذا وجهاً في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم.

الثالثة: وفي هذا ما يدلّ على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أوّلاً ولا آخراً؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا. وقيل:

---

(١) طرف الحوض أو البئر يأكله الماء فيصير كالكهف.

(٢) البيت للأعشى.

(٣) الشرق بالماء: كالغص بالطعام.

(٤) سرار الشهر: آخر ليلة منه.

كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زِلّة نبيّ، فكانت هذه زلّة منهم؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدّمناه. وقيل: ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبّأهم الله؛ وهذا أشبه، والله أعلم.

الرابعة: قال ابن وهب قال مالك: طُرح يوسف في الجبّ وهو غلام، وكذلك روى ابن القاسم عنه، يعني أنه كان صغيراً؛ والدليل على قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ قال: ولا يُلتقط إلا الصغير؛ وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أمر يختص بالصغار؛ وقولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

الخامسة: الالتقاط تناول الشيء من الطريق؛ ومنه اللّقِيط واللُّقْطَة، ونحن نذكر من أحكامها ما دلّت عليه الآية والسُّنة، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة؛ قال ابن عرفة: الالتقاط وجود الشيء على غير طلب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي يجده من غير أن يحتسبه. وقد اختلف العلماء في اللّقيط؛ فقيل: أصله الحريّة لغلبة الأحرار على العبيد؛ وروي عن الحسن بن عليّ أنه قضى بأن اللّقِيط حُرّ، وتلا ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك؛ وهو قول عمر بن الخطاب، وكذلك روي عن عليّ وجماعة. وقال إبراهيم النّخَعي: إن نوى رِقه فهو مملوك، وإن نوى الحِسبة فهو حرّ. وقال مالك في موطّئه: الأمر عندنا في المنبوذ أنه حرّ، وأن ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه، وبه قال الشافعي؛ واحتج بقوله عليه السلام:

[٣٦٤٧] «وإنما الوَلاَء لمن أعتق» قال: فنفى الوَلاَء عن غير المعتِق. واتفق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللّقيط لا يُوالي أحداً، ولا يرثه أحد بالوَلاَء. وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللّقيط يوالي من شاء، فمن ولاه فهو يرثه ويعقِل عنه؛ وعند أبي حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء، ما لم يعقِل عنه الذي والاه، فإن عقلَ عنه جنايةً لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبداً. وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن عليّ رضي الله عنه: المنبوذ حرّ، فإن أحبّ أن يوالي الذي التقطه والاه، وإن أحبّ أن يوالي غيره والاه؛ ونحوه عن عطاء، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة، وهو حرّ. قال ابن العربيّ: إنما كان أصل اللّقيط الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد، فقضى بالغالب،

[٣٦٤٧] مضى تخريجه.

كما حكم أنه مسلم أخذاً بالغالب؛ فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون قال ابن القاسم: يُحكم بالأغلب؛ فإن وجد عليه زِيّ اليهود فهو يهوديّ، وإن وجد عليه زِيّ النصارى فهو نصرانيّ، وإلا فهو مسلم، إلا أن يكون أكثر أهل القرية على غير الإسلام. وقال غيره: لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضي للقيط بالإسلام تغليباً لحكم الإسلام الذي يعلو ولا يُعلَى عليه، وهو مقتضى قول أشهب؛ قال أشهب: هو مسلم أبداً، لأني أجعله مسلماً على كل حال، كما أجعله حراً على كل حال. واختلف الفقهاء في المنبوذ تدلّ البيّنة على أنه عبد؛ فقالت طائفة من أهل المدينة: لا يقبل قولها في ذلك، وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر: هو حرّ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيّنة في أنه عبد. وقال ابن القاسم: تقبل البيّنة في ذلك؛ وهو قول الشافعي والكوفي.

السادسة: قال مالك في اللقيط: إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البيّنة أنه ابنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمّداً، وإن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شيء على الأب، والملتقِط متطوّع بالنفقة. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللّقيط فهو متطوّع، إلا أن يأمره الحاكم. وقال الأوزاعي: كلُّ من أنفق على من لا تجب عليه نفقة رجع بما أنفق. وقال الشافعي: إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال، فإن لم يكن ففيه قولان: أحدهما ـ يستقرض له في ذمته. والثاني ـ يقسَّط على المسلمين من غير عوض.

السابعة: وأما اللّقطة والضَّوَالّ فقد اختلف العلماء في حكمهما؛ فقالت طائفة من أهل العلم: اللقطة والضوالّ سواء في المعنى، والحكم فيهما سواء؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي، وأنكر قول أبي عُبيد القاسم بن سلاّم ـ أن الضالّة لا تكون إلا في الحيوان واللّقطة في غير الحيوان ـ وقال هذا غلط؛ واحتج بقوله ﷺ في حديث الإفك للمسلمين:

[٣٦٤٨] «إن أمّكم ضلّت قِلادتها» فأطلق ذلك على القِلادة.

الثامنة: أجمع العلماء على أن اللّقطة ما لم تكن تافهاً يسيراً أو شيئاً لا بقاء لها فإنها تُعرَّف حولاً كاملاً، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له، وإن تصدّق بها فصاحبها مخيّر بين التضمين وبين أن ينزل على أجرها، فأي ذلك تخيّر كان ذلك له بإجماع؛ ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول.

[٣٦٤٨] حديث الإفك متفق عليه يأتي في سورة النور.

وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها له أكلها.

التاسعة: واختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلاً على إباحة التقاط اللّقطة وأخذ الضالّة ما لم تكن إبلاً. وقال في الشاة: «لكَ أو لأخيكَ أو للذئب»[1] يحضّه على أخذها، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه. ولو كان ترك اللّقطة أفضل لأمر به رسول الله ﷺ كما قال في ضالّة الإبل، والله أعلم. وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة، إن شاء أخذها وإن شاء تركها؛ هذا قول إسماعيل بن إسحاق رحمه الله. وقال المُزَنيّ عن الشافعي: لا أحب لأحد ترك اللّقطة إن وجدها إذا كان أميناً عليها؛ قال: وسواء قليل اللّقطة وكثيرها.

العاشرة: روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهَنيّ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن اللّقطة فقال:

[٣٦٤٩] «اْعْرِف عِفَاصَها ووِكَاءَها ثم عَرِّفها سنةً فإن جاء صاحبُها وإلا فشأنُك بها» قال: فضالَّة الغنم يا رسول الله؟ قال: «لكَ أو لأخيكَ أو للذئب» قال: فضالة الإبل؟ قال: «ما لَكَ ولها معها سِقاؤُها وحِذاؤها تَرِدُ الماءَ وتأكل الشجر حتى يلقاها ربُّها».

وفي حديث أُبيّ قال:

[٣٦٥٠] «اْحفظ عَدَدها ووِعاءَها ووِكاءَها فإن جاء صاحبُها وإلاّ فاستمتِع بها» ففي هذا الحديث زيادة العدد؛ خرجه مسلم وغيره. وأجمع العلماء أن عِفاص اللّقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلّها عليها؛ فإذا أتى صاحب اللّقطة بجميع أوصافها دُفعت له؛ قال ابن القاسم: يُجبَر على دفعها؛ فإن جاء مستحقٌّ يستحقها ببيّنة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئاً، وهل يُحَلَّف مع الأوصاف أو لا؟ قولان: الأوّل لأشهب، والثاني لابن القاسم، ولا تلزمه بيّنة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حَنْبل وغيرهم. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له؛ وهو بخلاف نَصّ الحديث؛ ولو كانت البيّنة شرطاً في الدفع لما كان لذكر العِفاصِ والوِكاء والعَدَد معنى؛ فإنه يستحقها بالبينة على كل حال؛ ولَمَا جاز سكوت النبي ﷺ عن ذلك، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة. والله أعلم.

[٣٦٤٩] صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٧٢ و ٢٤٢٩ ومسلم ١٧٢٢ وأبو داود ١٧٠٥ والترمذي ١٣٧٢ ومالك ٧٥٧/٢ وأحمد ١١٧/٤ وابن حبان ٤٨٨٩ من حديث زيد بن خالد.

[٣٦٥٠] صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٣٧ وأبو داود ١٧٠١ و ١٧٠٢ و ١٧٠٣ من حديث أُبي بن كعب.

---

(١) هو بعض الآتي.

الحادية عشرة: نَصّ الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما، وسكت عما عداهما من الحيوان. وقد اختلف علماؤنا في البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم؟ قولان؛ وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير، وظاهر قول ابن القاسم أنها تلتقط، وقال أشهب وابن كنانة: لا تلتقط؛ وقول ابن القاسم أصح؛ لقوله عليه السلام: «احفظ على أخيك المؤمن ضالّته».

الثانية عشرة: واختلف العلماء في النفقة على الضَّوالّ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم: إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره؛ قال: وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحقّ به كالرهن. وقال الشافعي: إذا أنفق على الضوالّ مَن أَخَذها فهو متطوع؛ حكاه عنه الرّبيع. وقال المُزني عنه: إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دَيْنا، وما ادّعى قُبِل منه إذا كان مثله قَصْداً. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوّع، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها، والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضي بالنفقة.

الثالثة عشرة: ليس في قوله ﷺ في اللّقطة بعد التعريف: «فاستمتع بها» أو «فشأنك بها» أو «فهي لك» أو «فاستنفقها» أو «ثم كُلْها» أو «فهو مال الله يؤتيه من يشاء»[1] على ما في صحيح مسلم وغيره، ما يدلّ على التمليك، وسقوط الضّمان عن الملتقط إذا جاء ربها؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهَنيّ عن النبي ﷺ: «فإن لم تعرِف فاستنفِقْها ولتكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوماً من الدهر فأدها إليه» في رواية «ثم كُلْها فإن جاء صاحبها فأدّها إليه»[2] خرجه البخاريّ ومسلم. وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتَقِط يملك اللّقطة بعد التعريف؛ لتلك الظواهر، ولا التفات لقوله؛ لمخالفة الناس، ولقوله عليه السلام: «فأدّها إليه».

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ قيل للحسن: أيحسِد المؤمن؟

---

(١) انظر هذه الألفاظ في صحيح مسلم ١٧٢٢.

(٢) مضى برقم ٣٦٤٩.

قال: ما أنساك ببني يعقوب! ولهذا قيل: الأب جلّاب والأخ سلّاب؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال. وقالوا ليعقوب: «يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ» وقيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول. وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي. قرأ يزيد بن القَعْقَاع وعمرو بن عُبيد والزّهْريّ «لاَ تَأَمَنَّا» بالإدغام، وبغير إشمام وهو القياس؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ساكناً. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «لاَ تَأْمَنُنَا» بنونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثّاب وأبو رَزِين -وروي عن الأعمش- «لا تِيْمَنَّا» بكسر التاء، وهي لغة تميم؛ يقولون: أنت تِضرب؛ وقد تقدّم. وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدلّ على حال الحرف قبل إدغامه. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ أي في حفظه وحيطته حتى نردّه إليك. قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم: «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً» الآية؛ فحينئذ قال أبوهم: «إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» فقالوا حينئذ جواباً لقوله: «مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ» الآية. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء. ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ «غداً» ظرف، والأصل عند سيبويه غَدْوٌ، وقد نطق به على الأصل؛ قال النّضر بن شميل: ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غُدوة، وكذا بُكرة. «نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ» بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة. والمعروف من قراءة أهل مكة. «نَرْتَعِ» بالنون وكسر العين. وقراءة أهل الكوفة. «يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ» بالياء وإسكان العين. وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَع الإنسان والبعير إذا أكلا كيف شاءا؛ والمعنى: نتسع في الخِصب؛ وكل مخصِب راتع؛ قال:

فارعَيْ فزارةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعْ

وقال آخر[1]:

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتى إذا ٱدّكرتْ ... فإنمَّا هي إقبالٌ وإدبارُ

وقال آخر[2]:

أكفراً بعد رَدِّ الموتِ عنِّي ... وبعد عَطائِكَ المائةَ الرِّتاعَا

أي الراتعة لكثرة المرعى. وروى مَعْمر عن قَتَادة «ترتع» تسعى؛ قال النحاس:

---

(١) البيت للخنساء.

(٢) هو القطامي.

أخذه من قوله: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» لأن المعنى: نستبق في العَدْو إلى غاية بعينها؛ وكذا «يرتع» بإسكان العين، إلا أنه ليوسف وحده ﷺ. و «يرتع» بكسر العين من رعي الغنم، أي ليتدرب بذلك ويترجّل؛ فمرّة يرتع، ومرة يلعب لصغره. وقال القُتَبيّ «نرتع» نَتَحارس ونَتَحافظ، ويرعى بعضنا بعضاً؛ من قولك: رعاك الله؛ أي حفظك. «ونلعب» من اللعب وقيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا «ونلعب» وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء. وقيل: المراد باللعب المباح من الانبساط، لا اللعب المحظور الذي هو ضدّ الحق؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم «ونلعب». ومنه قوله عليه السلام:

[٣٦٥١] «فهَلاَّ بِكْراً تُلاعبها وتُلاعبكَ». وقرأ مجاهد وقَتَادة: «يُرتِع» على معنى يُرتِع مطيته، فحذف المفعول؛ «ويَلْعَبُ» بالرفع على الاستئناف؛ والمعنى: هو ممن يلعب. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ من كل ما تخاف عليه. ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركباناً، ويحتمل أنهم كانوا رجّالة. وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضراراً به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ في موضع رفع؛ أي ذهابكم به. أخبر عن حزنه لغيبته. ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شدّ على يوسف، فلذلك خافه عليه؛ قاله الكلبيّ. وقيل: إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل، وكأن يوسف في بطن الوادي، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله، فدرأ عنه واحد، ثم انشقّت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام؛ فكانت العشرة إخوته، لما تمالؤوا على قتله، والذي دافع عنه أخوه الأكبرَ يهوذا، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجب ثلاثة أيام. وقيل: إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنه أرادهم بالذئب؛ فخوفه إنما كان من قتلهم له، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم؛ قال ابن عباس: فسماهم ذئاباً. وقيل: ما خافهم عليه، ولو خافهم لما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحارى. والذئب مأخوذ من تَذَاءبت الريح إذا جاءت من كل وجه؛ كذا قال أحمد بن يحيى؛ قال: والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه. وروى ورش عن نافع

[٣٦٥١] صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٩٧ ومسلم ١٣٤٠ وابن حبان ٢٧١٧ و ٧١٤٣ من حديث جابر بأتم منه، وتقدم.

«الذِّيبُ» بغير همز، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة فخففها صارت ياء. ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴿١٣﴾﴾ أي مشتغلون بالرعي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴿١٤﴾﴾ أي في حفظنا أغنامنا؛ أي إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا. وقيل: «لَخَاسِرُونَ» لجاهلون بحقه. وقيل: لعاجزون.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ﴾ «أَنْ» في موضع نصب؛ أي على أن يجعلوه في غيابة الجبّ قيل في القصة[1]: إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنّه، وسلّمه إلى روبيل وقال: يا روبيل! إنه صغير، وتعلم يا بنيّ شفقتي عليه؛ فإن جاع فأطعمه، وإن عطش فأسقه، وإن أَعْيا فأحمله ثم عَجِّل بردّه إليّ. قال: فأخذوا يحملونه على أكتافهم، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر، ويعقوب يُشيِّعهم ميلا ثم رجع؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذي كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشدّ مما عند الآخر من الغيظ والعسف؛ فاستغاث بروبيل وقال: «أنت أكبر إخوتي، والخليفة من بعد والدي عليّ، وأقرب الإخوة إليّ، فارحمني وارحم ضعفي» فلطمه لطمة شديدة وقال: لا قرابة بيني وبينك، فادع الأحد عشر كوكباً فلتنجك منا؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه، فتعلق بأخيه يهوذا وقال: يا أخي! ارحم ضعفي وعجزي وحداثة سني، وارحم قلب أبيك يعقوب؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده؛ فرقّ قلب يهوذا فقال: والله لا يصلون إليك أبداً ما دمتُ حيّاً، ثم قال: يا إخوتاه! إن قتل النفس التي حرم الله من أعظم الخطايا، فردوا هذا الصبيّ إلى أبيه، ونعاهده ألا يحدّث والده بشيء مما جرى أبداً؛ فقال له إخوته: والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عند يعقوب، والله لئن لم تدعه لنقتلنّك معه، قال: فإن أبيتم إلا ذلك فهاهنا هذا الجبّ الموحش القفر، الذي هو مأوى الحيات والهوام فألقُوه فيه، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد، وقد استرحتم من دمه، وإن انفلت على أيدي سيّارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد؛ فأجمع رأيهم على ذلك؛ فهو قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وجواب «لما» محذوف؛ أي فلما ذهبوا

---

(١) القصة من الإسرائيليات.

به وأجمعوا على طرحه في الجب عظمت فتنتهم. وقيل: جواب «لما» قولهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾. وقيل: التقدير فلما ذهبوا به من عند أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب جعلوه فيها، هذا على مذهب البصريين؛ وأما على قول الكوفيين فالجواب. «أوحينا» والواو مقحمة، والواو عندهم تزاد مع لما وحتى؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] أي فتحت، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] أي فار. قال امرؤ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحيِّ وانتَحى

أي انتحى؛ ومنه قوله تعالى: «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أي ناديناه». وفي قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ دليل على نبوّته في ذلك الوقت. قال الحسن ومجاهد والضّحاك وقَتادة: أعطاه الله النبوّة وهو في الجبّ على حجر مرتفع عن الماء. وقال الكَلْبيّ: ألقي في الجبّ وهو ابن ثماني عشرة سنة، فما كان صغيراً؛ ومن قال كان صغيراً فلا يبعد في العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه. وقيل: كان وحي إلهام كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. وقيل: كان مناماً، والأوّل أظهر ـ والله أعلم ـ وأن جبريل جاءه بالوحي.

قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا؛ فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجبّ تقوية لقلبه، وتبشيراً له بالسلامة. الثاني ـ أنه أوحي إليه بالذي يصنعون به؛ فعلى هذا يكون الوحيُ قبل إلقائه في الجبّ إنذاراً له. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أنك يوسف؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وإخوته بمكانه. وقيل: بوحي الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: «الهاء» ليعقوب؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف، وأنه سيعرِّفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم. ومما ذكر من قصته إذ ألقي في الجبّ ـ ما ذكره السدّيّ[1] وغيره ـ أن إخوته لما جعلوا يدلونه في البئر، تعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه؛ فقال: يا إخوتاه! ردّوا عليّ قميصي أتوارى به في هذا الجبّ، فإن متّ كان كفني، وإن عشت أواري به عورتي؛ فقالوا: أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً فلتؤنسك وتكسك؛ فقال: إني لم أر شيئاً، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صَخْرَةٍ فقام عليها. وقيل: إن شمعون هو الذي قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة، وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك

(١) القصة بطولها متلقاة عن أهل الكتاب لاحجة فيها.

عبدي؛ قال جبريل: فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمي والوقوع فأقعدته على الصخرة سالماً. وكان ذلك الجبّ مأوى الهوام؛ فقام على الصّخرة وجعل يبكي، فنادوه، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام؛ فلما وقع عرياناً نزل جبريل إليه؛ وكان إبراهيم حين ألقي في النار عرياناً أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فكان ذلك عند إبراهيم، ثم ورثه إسحق، ثم ورثه يعقوب، فلما شَبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة وجعله في عنقه، فكان لا يفارقه؛ فلما ألقي في الجبّ عرياناً أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه. قال وهب[1]: فلما قام على الصخرة قال: يا إخوتاه! إن لكل ميت وصية، فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلّكم فآنس بعضكم بعضاً فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتم فاذكروا جوعي، وإذا شربتم فاذكروا عطشي، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربتي، وإذا رأيتم شاباً فاذكروا شبابي؛ فقال له جبريل: يا يوسف! كف عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله بمكان؛ ثم علمه فقال: قل اللهم يا مؤنس كلّ غريب، ويا صاحب كلّ وحيد، ويا ملجأ كلّ خائف، ويا كاشف كل كربة، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملإ، يا حيّ يا قيوم! أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي، حتى لا يكون لي همّ ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، إنك على كل شيء قدير؛ فقالت الملائكة: إلهنا! نسمع صوتاً ودعاء، الصوت صوت صبيّ، والدعاء دعاء نبيّ. وقال الضّحاك: نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الجبّ فقال له: ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجبّ؟ فقال: نعم! فقال له: قل يا صانع كلّ مصنوع، ويا جابر كل كَسِير، ويا شاهد كل نَجْوى، ويا حاضر كل ملإ، ويا مفرّج كل كربة، ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، أيتني بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحداً سواك؛ فرددها يوسف في ليلته مراراً؛ فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الجبّ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي ليلاً، وهو ظرف يكون في موضع الحال؛ وإنما جاؤوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة؛ ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار؛ فروي أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال: ما بكم؟ أجرى في الغنم شيء؟

(١) وهب بن منبه يروي الإسرائيليات.

قالوا: لا. قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق فأكله الذئب؛ فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟ على ما يأتي بيانه إن شـاء الله. وقال السديّ وابن حبّان: إنه لما قالوا أكله الذئب خر مغشياً عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادوه فلم يجب؛ قال وهب: ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نَفس يعقوب فلم يحسّ بنَفس، ولم يتحرّك له عِرق؛ فقال لهم يهوذا: ويل لنا من ديّان يوم الدّين! ضيّعنا أخانا، وقتلنا أبانا، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السّحر، فأفاق ورأسه في حجر روبيل؛ فقال: يا روبيل! ألم آتمنك على ولدي؟ ألم أعهد إليك عهداً؟ فقال: يا أبت! كُفَّ عنّي بكاءك أخبرك؛ فكفّ يعقوب بكاءه فقال: يا أبت «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ».

الثانية: قال علماؤنا: هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدلّ على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنّعاً؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر. وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى؛ كما قال حكيم:

إذا ٱشتبكت دموعٌ في خُدودٍ ... تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿نَسۡتَبِقُ﴾ نفتعل، من المسابقة. وقيل: أي نَنْتَضِل؛ وكذا في قراءة عبد الله «إِنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِل» وهو نوع من المسابقة؛ قاله الزجاج. وقال الأزهريّ: النِّضال في السِّهام، والرِّهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما. قال القُشيريّ أبو نصر: «نَسْتَبِقُ» أي في الرّمي، أو على الفرس؛ أو على الأقدام؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو، لأنه الآلة في قتال العدوّ، ودفع الذئب عن الأغنام. وقال السدّي وٱبن حيّان[1]: «نَسْتَبِقُ» نشتد جرياً لنرىٰ أيّنا أسبق. قال ٱبن العربي: المسابقة شِرْعة في الشَّريعة، وخَصْلة بديعة، وعَون على الحرب؛ وقد فعلها ﷺ بنفسه وبخيله، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها؛ فلما كبر رسول الله ﷺ سابقها فسبقته؛ فقال لها: «هذه بتلك»[2].

---

(١) وقع في الأصول «حبان» والتصويب عن الوسيط ٢/ ٦٠٣.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٣٩ ـ ٢٦٤ من حديث عائشة وهو حديث صحيح، وصححه ابن حبان ٤٦٩١ وشعيب الأرناؤط.

قلت: وسابق سَلَمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من ذي[1] قَرَد إلى المدينة فسبقه سَلَمة؛ خرجه مسلم.

الثانية: وروى مالك عن نافع عن ابن عمر:

[٣٦٥٢] أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أُضْمِرت[2] من الْحَفْيَاء وكان أمدها ثَنِيَّة الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّة إلى مسجد بني زُرَيق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني ـ أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث ـ ألا يسابق المضمَّر مع غير المضمَّر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيل التي يجب أن تضمَّر[2] ويسابق عليها، وتقام هذه السنّة فيها هي الخيل المعدّة لجهاد العدوّ لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثة: وأما المسابقة بالنِّصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال:

[٣٦٥٣] سافرنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزِلاً فمِنَّا من يصلِح خِباءه، ومنا من يَنْتِضل، وذكر الحديث. وخرّج النسائيّ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٦٥٤] «لا سَبَق إلا في نَصْل أو خُفّ أو حافر». وثبت ذكر النّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي؛ وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاريّ عن أنس قال:

[٣٦٥٥] كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العَضْباء لا تُسبَق ـ قال حُمَيد: أو لا تكاد تُسبَق ـ

[٣٦٥٢] صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٠ و ٢٨٦٨ و ٢٨٦٩ و ٣٧٣٦ ومسلم ١٨٧٠ وأبو داود ٢٥٧٧ والترمذي ١٦٩٩ والنسائي ٦/٢٢٦ وابن ماجه ٢٨٧٧ وأحمد ٢/٥٦ وابن حبان ٤٦٨٦ من حديث ابن عمر.

[٣٦٥٣] صحيح. أخرج مسلم ١٨٤٤ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في خبر مطول، وفيه ذكر الفتن.

[٣٦٥٤] صحيح. أخرجه الشافعي ٢/١٢٨ ـ ١٢٩ وأحمد ٢/٤٧٤ وأبو داود ٢٥٧٤ والترمذي ١٧٠٠ والنسائي ٦/٢٢٦ وابن حبان ٤٦٩٠ من طريق ابن أبي ذئب عن أبي هريرة، وصححه ابن القطان، وابن دقيق العيد، وغيرهما كما في تلخيص الحبير ٤/١٦١ وله شواهد أخرى.

[٣٦٥٥] صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٠١ وأبو داود ٤٨٠٢ و ٤٨٠٣ وأحمد ٣/١٠٣ وابن حبان ٧٠٣ من حديث أنس.

---

(١) موضع قرب المدينة.

(٢) تضمير الفرس: أن تعلفه حتىٰ يسمن ثم ترده إلى القت أربعين يوماً ا هـ مختار.

فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: «حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

الرابعة: أجمع المسلمون على أن السَّبَق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخفّ والحافر والنّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قِمار. وقد زاد أبو البَخْتَرِيّ القاضي في حديث الخفّ والحافر والنّصل «أو جَناح» وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال. وقد رُوي عن مالك أنه قال: لا سَبَق إلا في الخيل والرمي، لأنه قوّة على أهل الحرب؛ قال: وسَبَق الخيل أحبّ إلينا من سَبَق الرمي. وظاهر الحديث يسوّي بين السّبق على النُّجُب والسَّبق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرّهان في كل شيء إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها. ورُوي عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تُؤُوِّل قوله؛ لأن حمله على العموم في كل شيء يؤدّي إلى إجازة القمار، وهو محرّم باتفاق.

الخامسة: لا يجوز السَّبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرمي لا يجوز السَّبَق فيه إلا بغاية معلومة ورَشْق معلوم، ونوع من الإصابة؛ مشترط خَسْقا[1] أو إصابة بغير شرط. والأسباق ثلاثة: سَبَق يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوّعاً فيجعل للسابق شيئاً معلوماً؛ فمن سبق أخذه. وسَبَق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سَبَقه صاحبه أخذه، وإن سَبَق هو صاحبه أخذه؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا مما لا خلاف فيه. والسَّبق الثالث ـ اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئاً مثل ما يخرجه صاحبه، فأيهما سَبَق أحرز سبَقه وسبَق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخِلا بينهما محلِّلاً لا يأمنا أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلِّل أحرز السَّبَقين جميعاً وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبَقه وأخذ سبَق صاحبه، ولا شيء للمحلِّل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما. وقال أبو علي بن خيران ـ من أصحاب الشافعي ـ: وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولاً جريه؛ وسمي محلِّلاً لأنه يحّلل السَّبَق للمتسابقين اوْلَهُ. واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلِّل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبَقه وسبَق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

---

(١) الخسق والخزق واحد.

[٣٦٥٦] «من أدخل فرساً بين فرسين وهو لا يأمن أن يَسبق فليس بِقِمار ومن أدخله وهو يأمن أن يَسبق فهو قِمار». وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب قال: ليس برِهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلِّل، فإن سبق أخذ السبق، وإن سُبق لم يكن عليه شيء؛ وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم. واختلف في ذلك قول مالك؛ فقال مرة لا يجب المحلِّل في الخيل، ولا نأخذ فيه بقول سعيد، ثم قال: لا يجوز إلا بالمحلل؛ وهو الأجود من قوله.

السادسة: ولا يحمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتلم، ولو ركبها أربابها كان أولى؛ وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها. وقال الشافعي: وأقل السَّبَق أن يسبق بالهادي[1] أو بعضه، أو بالكَفَل أو بعضه. والسبق من الرماة على هذا النحو عنده؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي.

السابعة: روي عن النبي ﷺ أنه سابق أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فسبق رسول الله ﷺ، وصلَّى أبو بكر وثَلَّث عمر[2]؛ ومعنى وصلّى أبو بكر: يعني أن رأس فرسه كان عند صَلاَ فرس رسول الله ﷺ، والصَّلَوَان موضع العَجُز.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي عند ثيابنا وأقمشتنا حارساً لها. ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول: «وأخاف أن يأكله الذئب» أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه. ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي بمصدق. ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ أي وإن كنا؛ قاله المبرد وابن إسحق. ﴿صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ في قولنا؛ ولم يصدقهم يعقوب لِما ظهر له منهم من قوّة التّهمة وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه على ما يأتي بيانه. وقيل: «ولو كنا صادِقين» أي ولو كنا عندك من أهل الثقة

[٣٦٥٦] ضعيف. أخرجه أبو داود ٢٥٧٩ وابن ماجه ٢٨٧٦ والدارقطني ٤/ ١١١ والحاكم ٢/ ١١٤ من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم! ووافقه الذهبي! وقال ابن حجر في تلخيص الحبير ٤/ ١٦٣: وكذا صححه ابن حزم. وسفيان بن حسين ضعيف في الزهري، ورواه جماعة عن الزهري عن بعض أهل العلم، وصوبه أبو داود، وقال أبو حاتم: أحسن أحواله أن يكون مرسلاً، وقال ابن معين: هذا حديث باطل اهـ فالحديث واهٍ، والراجح كونه عن ابن المسيب من قوله، وانظر تخريجي كتاب العدة ص ٣٥٨.

---

(١) أي العُنُقُ لتقدمه.

(٢) هو من كلام علي، أخرجه أحمد ١/ ١٢٤ ـ١٢٣ عن علي من قوله. وليس المراد سباق الخيل، وإنما المراد الخلاصة والإمارة، راجع كتب غريب الحديث.

والصدق ما صدقتنا، ولاتّهمتنا في هذه القضية، لشدة محبتك في يوسف؛ قال معناه الطبريّ والزجاج وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ قال مجاهد: كان دم سخلة أو جَدْي ذبحوه. وقال قتادة: كان دم ظبية؛ أي جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه، فوصف الدم بالمصدر، فصار تقديره: بدم ذي كذب؛ مثل: ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر؛ يقال: هذا ضَرْبُ الأمير، أي مضروبه؛ وماء سَكْب أي مسكوب، وماء غَوْر أي غائر، ورجل عَدْل أي عادل.

وقرأ الحسن وعائشة: «بِدَمٍ كدِبٍ» بالدّال غير المعجمة، أي بدم طرِيّ؛ يقال للدّم الطريّ ٱلكدِب. وحكى أنه المتغير؛ قاله الشعبي. والكدب أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث؛ فيجوز أن يكون شبه الدّم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظّفْر من جهة ٱختلاف اللونَيْن.

الثانية: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التَّنْيِيب[1]؛ إذ لا يمكن ٱفتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خَرْقاً ولا أثراً ٱستدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص! قاله ابن عباس وغيره؛ روى إسرائيل عن سِماك بن حرب عن عِكرمة عن ابن عباس قال: كان الدم دم سَخْلة. وروى سفيان عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس قال: لما نظر إليه قال كذبتم؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص. وحكى الماورديّ أن في القميص ثلاث آيات: حين جاءوا عليه بدم كذب، وحين قُدّ قميصه من دبر، وحين ألْقِي على وجه أبيه فٱرتدّ بصيراً.

قلت: وهذا مردود؛ فإن القميص الذي جاءوا عليه بالدم غير القميص الذي قدّ، وغير القميص الذي أتاه البشير به. وقد قيل: إن القميص الذي قدّ هو الذي أتى به فارتدّ بصيراً، على ما يأتي بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى. وروي أنهم قالوا له: بل

(١) أي سلامة القميص من أنياب الذئب، ويجوز: التخريق ـ بدل «التنييب» والله أعلم.

اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم، فاتهمهم، فقال لهم يعقوب: تزعمون أن الذئب أكله، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضي إلى جلده، وما أرى بالقميص من شق؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه؛ هل يريدون إلا ثيابه؟! فقالوا عند ذلك: «وما أنت بِمؤمِنٍ لنا ولو كنا صادِقِين» عن الحسن وغيره؛ أي لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا.

الثالثة: ٱستدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأَمَارات في مسائل من الفقه كالقَسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام ٱستدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها، قاله ٱبن العربي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: روي أن يعقوب لما قالوا له: «فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ» قال لهم: ألم يترك الذئب له عضواً فتأتوني به أستأنس به؟! ألم يترك لي ثوباً أشم فيه رائحته؟ قالوا: بلى! هذا قميصه ملطوخ بدمه؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه: أروني قميصه، فأروه فشمه وقبّله، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقاً ولا تمزيقاً، فقال: والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئباً أحكم منه؛ أكل ٱبني واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكياً حزيناً وقال: يا معشر ولدي! دلوني على ولدي؛ فإن كان حياً رددته إليّ، وإن كان ميتاً كفنته ودفنته، فقيل قالوا حينئذ: ألم تروا إلى أبينا كيف يكذبنا في مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضواً عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا في مقالتنا ويقطع يأسه؛ فقال يهوذا: والله لئن فعلتم لأكونَنّ لكم عدواً ما بقيت، ولأخبرنّ أباكم بسوء صنيعكم؛ قالوا: فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئباً، قال: فاصطادوا ذئباً ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا: يا أبانا! إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها، ولعله الذي أفجعنا بأخينا لا نشك فيه، وهذا دمه عليه؛ فقال يعقوب: أطلقوه؛ فأطلقوه، وتَبَصْبَصَ له الذئب، فأقبل يدنو منه ويعقوب يقول له: ٱدن ٱدن؛ حتى ألصق خدّه بخدّه فقال له يعقوب: أيها الذئب! لم فجعتني بولدي وأورثتني حزناً طويلاً؟! ثم قال اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال: والذي ٱصطفاك نبياً ما أكلت لحمه، ولا مزقت جلده، ولا نتفت شعرة من شعراته، ووالله! ما لي بولدك عهد، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي

فقِد، فلا أدري أحي هو أم ميت، فاصطادني أولادك وأوثقوني، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله! لا أقمت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش؛ فأطلقه يعقوب[1] وقال: والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذِمَام أخيه، وأنتم ضيعتم أخاكم، وقد علمت أن الذئب بريء مما جئتم به. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي زينت. ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ غير ما تصفون وتذكرون. ثم قال توطئة لنفسه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهي:

الثانية: قال الزجاج: أي فشأني والذي أعتقده صبر جميل. وقال قُطْرُب: أي فصبري صبر جميل. وقيل: أي فصبر جميل أولى بي؛ فهو مبتدأ وخبره محذوف. ويروى أن النبي ﷺ سئل عن الصبر الجميل فقال:

[٣٦٥٧] «هو الذي لا شكوى معه». وسيأتي له مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله. قال أبو حاتم: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف «فصبراً جميلاً» قال: وكذا قرأ الأشهب العُقَيْلي؛ قال وكذا في مصحف أنس وأبي صالح. قال المبرّد: «فصبر جميل» بالرفع أولى من النصب؛ لأن المعنى: قال رب عندي صبر جميل؛ قال: وإنما النصب على المصدر، أي فلأصبرنّ صبراً جميلاً؛ قال:

شكـا إلـيّ جَمَلـي طُـولَ السُّـرَى   صَبْـراً جميـلاً فكِـلاَنَـا مُبْتَلَـى

والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى. وقيل: المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم؛ وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم. وعن حبيب بن أبي ثابت[2] أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بخرقة؛ فقيل له: ما هذا؟ قال: طول الزمان وكثرة الأحزان؛ فأوحى الله إليه أتشكوني يا يعقوب؟! قال: يا رب! خطيئة أخطأتها فاغفر لي. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ ابتداء وخبر. ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ⑱﴾ أي على احتمال ما تصفون من الكذب.

الثالثة: قال ابن أبي رفاعة: ينبغي لأهل الرأي أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب ﷺ وهو نبيّ؛ حين قال له بنوه: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأصاب هنا؛

[٣٦٥٧] ضعيف. أخرجه الطبري ١٨٨٨٣ و ١٨٨٨٤ عن حبان بن أبي جبلة مرفوعاً، وهذا مرسل: حبان هذا تابعي.

---

(١) الخبر بطوله من الإسرائيليات، لاحجة فيه.

(٢) هذا متلقى عن أهل الكتاب لاحجة فيه البتة.

ثم قالوا له: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يوسف: ٨١] قال: «بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً» فلم يصب.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي رفقة مارّة يسيرون من الشام إلى مصر فأخطؤوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجب، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران، إنما هو للرّعاة والمجتاز، وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقى فيه يوسف. ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ فذكر على المعنى؛ ولو قال: فأرسلت واردها لكان على اللفظ، مثل «وجاءت». والوارد الذي يرد الماء يستقي للقوم؛ وكان اسمه ـ فيما ذكر المفسرون ـ مالك بن دعر، من العرب العاربة. ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي أرسله؛ يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها، ودَلاَها أي أخرجها: عن الأصمعي وغيره. ودلا ـ من ذات الواو ـ يدلو دلواً، أي جذب وأخرج، وكذلك أدلى إذا أرسل، فلما ثقل ردوه إلى الياء، لأنها أخف من الواو؛ قاله الكوفيون. وقال الخليل وسيبويه: لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء، اتباعاً للمستقبل. وجمع دَلْو في أقل العدد أَدْلٍ فإذا كثرت قلت: دُلِيّ ودِلِيّ؛ فقلبت الواو ياء، إلا أن الجمع بابه التغيير، وليفرق بين الواحد والجمع؛ ودِلاء أيضاً. فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر، أحسن ما يكون من الغلمان. قال ﷺ في حديث الإسراء من صحيح مسلم:

[٣٦٥٨] «فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن». وقال كعب[1] الأحبار: كان يوسف حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثناياه، لا يستطيع أحد وصفه؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية. وقيل: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن؛ فلما رآه مالك بن دعر قال: «يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلاَمٌ» هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة؛ إلا ابن أبي إسحق فإنه قرأ «يَا بُشْرَيَّ هَذَا غُلاَمٌ» فقلب الألف ياء، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضاً. وقرأ أهل الكوفة «يَا بُشْرَى» غير مضاف؛ وفي معناه قولان: أحدهما ـ اسم الغلام، والثاني ـ معناه

[٣٦٥٨] يأتي في سورة الإسراء إن شاء الله. رواه مسلم وغيره.

يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك. قال قتادة والسديّ: لما أدلى المدلي دلوه تعلق بها يوسف فقال: يا بشرى هذا غلام؛ قال قتادة: بشر أصحابه بأنه وجد عبداً. وقال السدي: نادى رجلاً اسمه بشرى. قال النحاس: قول قتادة أولى؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيراً؛ وإنما يأتي بالكناية كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧] وهو عقبة بن أبي معيط، وبعده ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾[1] [الفرقان: ٢٨] وهو أمية بن خلف؛ قاله النحاس. والمعنى في نداء البشرى: التبشير لمن حضر؛ وهو أوكد من قولك تبشرت، كما تقول: يا عجباه! أي يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك، فاحضر؛ وهذا مذهب سيبويه، وكذا قال السُّهيلي. وقيل: هو كما تقول: واسروراه! وأن البشرى مصدر من الاستبشار، وهذا أصحّ؛ لأنه لو كان اسماً علماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم؛ وعلى هذا يكون «بُشْرَايَ» في موضع نصب، لأنه نداء مضاف؛ ومعنى النداء هاهنا التنبيه، أي انتبهوا لفرحتي وسروري؛ وعلى قول السُّدّي يكون في موضع رفع كما تقول: يا زيد هذا غلام. ويجوز أن يكون محله نصباً كقولك: يا رجلاً، وقوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠] ولكنه لم ينون «بُشْرَى» لأنه لا ينصرف. ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكناية عن إخوته. وقيل: عن التجار الذين ٱشتروه، وقيل: عن الوارد وأصحابه. «بِضَاعَةً» نصب على الحال. قال مجاهد: أسرّه مالك بن دُعْر وأصحابه من التجار الذين معهم في الرفقة، وقالوا لهم: هو بضاعة ٱستبضعناها بعضُ أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة. وقال ٱبن عباس[2]: أسرّه إخوة يوسف بضاعة لما ٱستخرج من الجبّ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا: بئس ما صنعتم! هذا عبد لنا أَبِق، وقالوا ليوسف بالعبرانية: إما أن تُقرّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء، وإما أن نأخذك فنقتلك؛ فقال: أنا أقرّ لكم بالعبودية، فأقرّ لهم فباعوه منهم. وقيل: إن يهوذا وصىّ أخاه يوسف بلسانهم أن ٱعترِف لإخوتك بالعبودية فإني أخشى إن لم تفعل قتلوك؛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجاً، وتنجو من القتل، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته؛ فقال مالك: والله ما هذه سمة العبيد!، قالوا: هو تَربَّى في حجورنا، وتخلق بأخلاقنا، وتأدّب بآدابنا؛ فقال: ما تقول يا غلام؟ قال: صدقوا! تربيت في حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم؛ فقال مالك: إن بعتموه مني ٱشتريته منكم؛ فباعوه منه؛ فذلك:

---

(١) لفظ «يا ويلتي» ليس في نسخ الأصل.

(٢) موقوف باطل. أخرجه الطبري ١٨٩٠٨ بسند فيه ثلاثة مجاهيل عن ابن عباس. وهو منكر لايصح عن ابن عباس.

قــولــه تعــالـــى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يقال: شريت بمعنى ٱشتريت، وشريت بمعنى بعت لغة؛ قال الشاعر[١]:

وشَــــريْــــتُ بُــــرْداً لَيْتَنِــــي مِــن بَعْــدِ بُــرْدٍ[٢] كنــتُ هَــامَــهُ

أي بعت. وقال آخر[٣]:

فلما شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً وفي الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ

﴿ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ ﴾ أي نقص؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم؛ أي باعوه بثمن مبخوس، أي منقوص. ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلوّ وجه أبيهم عنه. وقيل: إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجبّ فأخبر إخوته فجاؤوا وباعوه من الواردة. وقيل: لا! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرّفون الخبر، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا: هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم. وقال قتادة: «بَخْسٍ» ظلم. وقال الضّحاك ومقاتل والسُّدي وابن عطاء: «بَخْسٍ» حرام. وقال ابن العربي: ولا وجه له، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلوّ وجه أبيهم عنه؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطَعاً؛ أو قالوا لأصحابهم: أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يُعطُوا عنه ثمناً وأنّ ما أخذوا فيه ربح كلّه.

قلت: قوله «وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة» يدلّ على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزاً وليس كذلك؛ فدلّ على صحة ما قاله السُّديّ وغيره؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها، فلذلك كان لا يحلّ لهم ثمنه. وقال عِكرمة والشّعبي: قليلٍ. وقال ابن حيان: زَيْف. وعن ٱبن عباس وٱبن مسعود باعوه بعشرين درهماً أخذ كل واحد من إخوته درهمين، وكانوا عشرة؛ وقاله قتادة والسّديّ. وقال أبو العالية ومقاتل: اثنين وعشرين درهماً، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين؛ وقاله مجاهد. وقال عِكرمة: أربعين درهماً؛ وما روي عن الصحابة أولى. و «بخسٍ» من نعت «ثمنٍ». ﴿ دَرَٰهِمَ ﴾ على البدل والتفسير له. ويقال: دراهيم على أنه جمع دِرهام،

---

(١) هو يزيد بن مفرغ الحميري.

(٢) برد: اسم عبد كان له ندم على بيعه.

(٣) البيت للشماخ.

وقد يكون اسماً للجمع عند سيبويه، ويكون أيضاً عنده على أنه مدّ الكسرة فصارت ياء، وليس هذا مثل مدّ المقصور؛ لأن مدّ المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره. وأنشد النحويون[1]:

تَنْفِي يداها الحَصَى في كلِّ هاجِرةٍ نَفْيَ الدّراهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ

﴿مَعْدُودَةٍ﴾ نعت؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجري عندهم عدّاً لا وزناً بوزن. وقيل: هو عبارة عن قلة الثمن؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما كان دون الأوقِية، وهي أربعون درهماً.

الثانية: قال القاضي ابن العربي: وأصل النقدين الوزن؛ قال ﷺ:

[٣٦٥٩] «لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزناً بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى». والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار؛ فأما عينها فلا منفعة فيه، ولكن جرى فيها العدّ تخفيفاً عن الخلق لكثرة المعاملة، فيشق الوزن؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض عدّاً إذا لم يكن بها نقصان ولا رجحان؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن؛ ولأجل ذلك كان كسرها أو قرضها من الفساد في الأرض حسب ما تقدّم.

الثالثة: وٱختلف العلماء في الدراهم والدنانير هل تتعين أم لا؟ وقد ٱختلفت الرواية في ذلك عن مالك: فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين، وهو الظاهر من قول مالك؛ وبه قال أبو حنيفة. وذهب ٱبن القاسم إلى أنها تتعين، وحكي عن عن الكَرْخيّ؛ وبه قال الشافعي. وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا لا تتعيّن فإذا قال: بعتك هذه الدنانير بهذه الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدراهم بذمة صاحبها؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها.

الرابعة: رُوي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قضى في اللّقيط أنه حر، وقرأ: «وَشَرَوْهُ بِثَمنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ» وقد مضى القول فيه.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ قيل: المراد إخوته. وقيل: السيارة. وقيل: الواردة؛ وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غبيطاً، لا عند الإخوة؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أَبِق منا ـ والزهد قلة الرغبة ـ ولا عند الواردة لأنهم خافوا ٱشتراك أصحابهم معهم، ورأوا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى.

[٣٦٥٩] مضى تخريجه.

(١) البيت للفرزدَق.

السادسة: في هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير، ويكون البيع لازماً؛ ولهذا قال مالك: لو باع درّة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها درّة وحسبتها مَخْشَلَبَة[1] لزمه البيع ولم يلتفت إلى قوله. وقيل: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠﴾ أي في حسنه؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شَطْر الحسن صرف عنه دواعي نفوس القوم إليه إكراماً له. وقيل: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ لم يعلموا منزلته عند الله تعالى. وحكى سيبويه والكسائي: زَهِدت وزَهَدت بكسر الهاء وفتحها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ قيل: الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال؛ إذ لم يكن ذلك عقداً، مثل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]. وقيل: إنهم ظنوه في ظاهر الحال آشتراء، فجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن. قال الضّحاك: هذا الذي آشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز. السُّهيلي: وآسمه قطفير. وقال آبن إسحق: إطفير بن رويحب آشتراه لامرأته راعيل؛ ذكره الماورديّ. وقيل: كان اسمها زَلِيخَاء. وكان الله ألقى محبة يوسف على قلب العزيز، فأوصى به أهله؛ ذكره القُشيري. وقد ذكر القولين في آسمها الثّعلبيّ وغيره. وقال ابن عباس: إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر، وهو الريان بن الوليد. وقيل: الوليد بن الريان، وهو رجل من العمالقة. وقيل: هو فرعون موسى؛ لقول موسى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٣٤] وأنه عاش أربعمائة سنة. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتي في «غافر» بيانه. وكان هذا العزيز الذي آشترى يوسف على خزائن الملك؛ واشترى يوسف من مالك بن دُعْر بعشرين ديناراً، وزاده حلة ونعلين. وقيل: اشتراه من أهل الرّفقة. وقيل: تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مِسْكاً وعنبراً وحريراً وورِقاً وذهباً ولآلىء وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله؛ فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن؛ قاله وهب بن منبّه. وقال وهب أيضاً وغيره[2]: ولما آشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً: هذا ما آشترى مالك بن دعر من بني يعقوب، وهم فلان

---

(١) حرز أبيض يشاكل اللؤلؤ.

(٢) وهب بن منبه يروي الإسرائيليات، وهذا الخبر منها لاحجة فيه.

وفلان مملوكاً لهم بعشرين درهماً، وقد شرطوا له أنه آبق، وأنه لا ينقلب به إلا مقيداً مسلسلاً، وأعطاهم على ذلك عهد الله. قال: فودّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حفظكم الله وإن ضيعتموني، نصركم الله وإن خذلتموني، رحِمكم الله وإن لم ترحموني؛ قالوا: فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عَبِيطاً[1] لشدّة هذا التوديع، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيداً مكبّلاً مسلسلاً، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه ـ وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود ـ فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه فجعل يتمرّغ ويعتنق القبر ويضطرب ويقول: يا أماه! ٱرفعي رأسك تري ولدك مكبلاً مقيداً مسلسلاً مغلولاً؛ فرّقوا بيني وبين والدي، فاسألي الله أن يجمع بيننا في مستقرّ رحمته إنه أرحم الراحمين، فتفقده الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضرباً وجيعاً؛ فقال له: لا تفعل! والله ما هربت ولا أبِقت وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودّعها، ولن أرجع إلى ما تكرهون؛ فقال الأسود: والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى! فهلا كان هذا عند مواليك؛ فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني؛ فضجّت الملائكة في السماء، ونزل جبريل فقال له: يا يوسف! غُضّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال: تثبت يا جبريل، فإن الله حليم لا يعجل؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت، وٱرتفع الغبار، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضاً؛ فقال رئيس القافلة: من أحدث منكم حدثاً؟ ـ فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثل هذا ـ فقال الأسود: أنا لطمت ذلك الغلام العبرانيّ فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه، ولا أشك أنه دعا علينا؛ فقال له: ما أردت إلا هلاكنا! ٱيتِنا به، فأتاه به، فقال له: يا غلام! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت؛ فإن كنت تقتص فاقتص ممن شئت، وإن كنت تعفو فهو الظنّ بك؛ قال: قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني؛ فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر، وردّ عليه جماله، ودخل به البلد نهاراً فسطع نوره على الجدران، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك؛ قاله ٱبن عباس على ما تقدّم. وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وٱتبع يوسف على دينه، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض؛ فملك بعده قابوس وكان كافراً، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى.

---

(١) الدم العبيط: الطري والخبز بطوله من الإسرائيليات.

﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ أي منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن؛ وهو مأخوذ من ثوى بالمكان أي أقام به؛ وقد تقدّم في «آل عمران» وغيره. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي يكفينا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ قال ٱبن عباس: كان حَصُوراً لا يولد له، وكذا قال ابن إسحق: كان قطفير لا يأتي النساء ولا يولد له. فإن قيل: كيف قال «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» وهو ملكه، والوَلَدَية مع العبدية تتناقض؟ قيل له: يعتقه ثم يتخذه ولداً بالتّبنّي؛ وكان التّبني في الأمم معلوماً عندهم، وكذلك كان في أوّل الإسلام، على ما يأتي بيانه في «الأحزاب» إن شاء الله تعالى. وقال عبد الله بن مسعود: أحسن الناس فراسة ثلاثة؛ العزيز حين تفرّس في يوسف فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾، وبنت شعيب حين قالت لأبيها في موسى ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين ٱستخلف عمر. قال ٱبن العربي: عجباً للمفسرين في اتفاقهم على جلب هذا الخبر! والفراسة هي علم غريب على ما يأتي بيانه في سورة «الحجر» وليس كذلك فيما نقلوه؛ لأن الصدّيق إنما ولّى عمر بالتجربة في الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنّة، وليس ذلك من طريق الفراسة؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتي بيانه في «القَصَص»، وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الكاف في موضع نصب؛ أي وكما أنقذناه من إخوته ومن الجبّ فكذلك مكنا له؛ أي عطفنا عليه قلب الملك الذي ٱشتراه حتى تمكن من الأمر والنهي في البلد الذي الملِك مستول عليه. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أي فعلنا ذلك تصديقاً لقول يعقوب: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]. وقيل: المعنى مكناه لنوحي إليه بكلام منا، ونعلمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتم الكلام. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى؛ أي لا يغلب الله شيء، بل هو الغالب على أمر نفسه فيما يريده أن يقول له: كُنْ فَيَكُونُ. وقيل: ترجع إلى يوسف؛ أي الله غالب على أمر يوسف يدبّره ويحوطه ولا يكِله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيْدُ كائد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي لا يطلعون على غيبه. وقيل: المراد بالأكثر الجميع؛ لأن أحداً لا يعلم الغيب. وقيل: هو مجرى على ظاهره؛ إذ قد يُطلِع من يريد على بعض غيبه. وقيل: المعنى «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» أن الله غالب على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقَدَر. وقالت الحكماء في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ حيث أمره يعقوب ألاّ يقصّ رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى

قَصّ، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار مِلكاً وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، وٱفتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤] ثم تدبّروا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصرّوا عليه حتى أقرّوا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: «إِنَّا كُنَّا خَاطِئِين» ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فغلب أمر الله فلم ينخدع، وقال: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» ثم ٱحتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دَبَّرت ٱمرأة العزيز أنها إن ٱبتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتى قال العزيز: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف: ٢٩]، ثم دَبَّر يوسف أن يتخلّص من السجن بذكر الساقي فغلب أمر الله فنسي الساقي، ولبِث يوسف في السجن بِضع سنين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ «أَشُدَّهُ» عند سيبويه جمع، واحده شِدّة. وقال الكسائي: واحده شَدٌّ؛ كما قال الشاعر[1]:

عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهارِ كأنَّمَا ... خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه ٱستكمال القوّة ثم يكون النقصان بعد. وقال مجاهد وقَتادة: الأَشُدّ ثلاث وثلاثون سنة. وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس: الأَشُدّ بلوغ الحُلُم؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء» و «الأنعام» مستوفى. ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قيل: جعلناه المستولي على الحُكْم، فكان يحكم في سلطان الملك؛ أي وآتيناه عِلماً بالحُكْم. وقال مجاهد: العقل والفهم والنبوة. وقيل: الحُكْم النبوّة، والعِلم عِلم الدين؛ وقيل: علم الرؤيا؛ ومن قال: أوتي النبوّة صبِياً قال: لما بلغ أشدّه زدناه فهماً وعلماً. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يعني المؤمنين. وقيل: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف؛ قاله الضحاك. وقال الطبريّ: هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسِن فالمراد به محمد ﷺ؛ يقول الله تعالى: كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته، كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكّن لك في الأرض.

---

(١) هو عنترة العبسي. والعظلم: عصارة شجر أو نبت يصبغ به.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ وهي آمرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها. وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين. والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ؛ وقيل: هي من رويد؛ يقال: فلان يمشي رُوَيْداً، أي برفق؛ فالمراودة الرفق في الطلب؛ يقال في الرجل: راودها عن نفسها، وفي المرأة راودته عن نفسه. والرّود التأنّي؛ يقال: أرْوَدَني أمهلني. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ غلّق للكثير، ولا يقال: غَلَق البابَ؛ وأَغلَقَ يقع للكثير والقليل؛ كما قال الفَرَزْدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلتُ أُغلق أبواباً وأفتحُهَا ... حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّارِ

يقال: إنها كانت سبعة أبواب غلّقتها ثم دعته إلى نفسها. ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي هَلُمَّ وأَقْبِلْ وتَعالَ؛ ولا مصدر له ولا تصريف. قال النحاس: فيها سبع قراءات؛ فمن أجلّ ما فيها وأصحّه إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ «هَيْتَ لَكَ» قال فقلت: إن قوماً يقرؤونها «هِيتَ لك» فقال: إنما أقرأ كما عُلّمت. قال أبو جعفر: وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ[1]، ولا يبعد ذلك؛ لأن قوله: إنما أقرأ كما علّمت يدلّ على أنه مرفوع، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هي الصحيحة من قراءة آبن عباس وسعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائيّ. قال عبد الله بن مسعود: لا تقطعوا في القرآن؛ فإنما هو مثل قول أحدكم: هَلمّ وتَعالَ. وقرأ آبن أبي إسحق النحوي «قَالَتْ هَيْتِ لَكَ» بفتح الهاء وكسر التاء. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميّ وآبن كثير «هَيْتُ لَكَ» بفتح الهاء وضم التاء؛ قال طَرَفة:

ليس قومي بالأبعَدِين إذا ما ... قال داعٍ من العَشيرة هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهاء فيهنّ مفتوحة. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع «وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ» بكسر الهاء وفتح التاء. وقرأ يحيى بن وثّاب «وَقَالَت هِيتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة. ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس ومجاهد وعكرمة: «وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة. وعن ابن عامر وأهل الشام: «وَقَالَتْ هِئْتَ» بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء؛ قال أبو

(١) انظر الطبري ١٩٠٠٨ و١٩٠٠٩ و١٩٠١٠، ويلاحظ أن المصنف ذكر معنىٰ كلام الطبري لا لفظه.

جعفر: «هئْتَ لَكَ» بفتح التاء لالتقاء الساكنين، لأنه صوت نحو مَهْ وصَهْ يجب ألاّ يعرب، والفتح خفيف؛ لأن قبل التاء ياء مثل أيْنَ وكيفَ؛ ومَن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر؛ لأن الساكن إذا حرّك حرّك إلى الكسر، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية؛ أي قالت: دعائي لك، فلما حذفت الإضافة بني على الضم؛ مثل حيثُ وبعدُ. وقراءة أهل المدينة فيها قولان: أحدهما ـ أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مرّ. والآخر ـ أن يكون فعلاً من هَاءَ يَهِيء مثل جاء يجيء؛ فيكون المعنى في «هِئْتَ» أي حسنت هيئتك، ويكون «لَكَ» من كلام آخر، كما تقول: لكَ أعني. ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك؛ وكذلك من قرأ «هِيتُ لَكَ». وأنكر أبو عمرو هذه القراءة؛ قال أبو عبيدة ـ مَعْمَر بن المُثَنَّى: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزاً فقال أبو عمرو: باطل؛ جعلها من تهيأت! اْذهب فاستعرِضِ العربَ حتى تنتهي إلى اليمن هل تعرف أحداً يقول هذا؟! وقال الكسائي أيضاً: لم تُحكَ «هِئتُ» عن العرب. قال عِكرمة: «هِئتُ لَكَ» أي تهيأت لك وتزينت وتحسنت، وهي قراءة غير مرضية، لأنها لم تسمع في العربية. قال النحاس: وهي جيِّدة عند البصريين؛ لأنه يقال: هَاءَ الرجلُ يَهاء ويَهِيء هيأةً فهاء يَهيء مثل جاء يجيء وهِئتُ مثل جئت. وكسر الهاء في «هيت» لغة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها. قال الزجاج: أجود القراءات «هَيْتَ» بفتح الهاء والتاء؛ قال طَرَفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ

بفتح الهاء والتاء.

وقال الشاعر في علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أَبلغْ أميرَ المؤمنـ ـينَ أخا العراقِ إذا أَتيتَا

إنّ العراقَ وأهلَهُ سِلْمٌ إليك فَهَيْتَ هَيْتَا

قال ابن عباس والحسن: «هيت» كلمة بالسريانية تدعوه إلى نفسها. وقال السُّديّ: معناها بالقبطية هلمّ لك. قال أبو عبيد: كان الكسائيّ يقول: هي لغة لأهل حَوْران وقعت إلى أهل الحجاز معناه تعالَ؛ قال أبو عبيد: فسألت شيخاً عالماً من حَوْرَان فذكر أنها لغتهم؛ وبه قال عِكْرمة. وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمة حثّ وإقبال على الأشياء؛ قال الجوهريّ: يقال هَوَّتَ به وهَيَّتَ به إذا صاح به ودعاه؛ قال:

قد رَابَنِي أَنَّ الْكَرِيَّ أَسْكَتَا لو كان مَعْنِيًّا بها لَهَيَّتَا

أي صاح؛ وقال آخر:

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه؛ وهو مصدر، أي أعوذ بالله مَعاذا؛ فيحذف المفعول وينتصب المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى أسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول، كما تقول: مررت بزيد مرورَ عمرو أي كمروري بعمرو. ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ يعني زوجها، أي هو سيّدي أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحق والسدّي. وقال الزجاج: أي إن الله ربي تولاني بلطفه، فلا أركب ما حرّمه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وفي الخبر[1] أنها قالت له: يا يوسف! ما أحسن صورة وجهك! قال: في الرَّحِم صوّرني رَبِّي؛ قالت: يا يوسف ما أحسن شَعْرك! قال: هو أول شيء يَبْلَى منّي في قبري؛ قالت: يا يوسف! ما أحسن عينيك؟ قال: بهما أنظر إلى ربيّ. قالت: يا يوسف! أرفع بصرك فأنظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي. قالت يا يوسف! أدنو منك وتتباعد مني؟! قال: أريد بذلك القرب من ربيّ. قالت: يا يوسف! القَيْطون[2] فرشته لك فأدخل معي، قال: القَيْطُون لا يسترني من ربيّ. قالت: يا يوسف! فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتي، قال: إذًا يذهب من الجنة نصيبي؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها. وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمِلْن إلى يوسف مَيْل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبة النبوّة؛ فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه. وأختلف العلماء في همّه؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية، وأما يوسف فهمّ بها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فإذًا في الكلام تقديم وتأخير؛ أي لولا أن رأى برهان ربه همّ بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها. وقال أحمد بن يحيى: أي همت زليخاء بالمعصية وكانت مصِرّة، وهمّ يوسف ولم يواقع ما همّ به؛ فبين الهمتين فرق، ذكر هذين القولين الهرويّ في كتابه. قال جميل:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثَينةَ لو بَدَا شَفيتُ غَليلاتِ الهوَى من فُؤاديَا

---

(١) هو من الإسرائيليات. ولا يصح من قبل يوسف البتة.

(٢) القيطون: المخْدَعُ. أعجمي. وقيل: بلغة مصر والبربر.

آخر:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني تَركتُ على عثمان تبكي حلائلهُ

فهذا كله حديث نفس من غير عزم. وقيل: همّ بها تمنى زوجيتها. وقيل: همّ بها أي بضربها ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها. وقيل: إن همّ يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكر القُشيريّ أبو نصر، وٱبن الأنباريّ والنحاس والماورديّ وغيرهم. قال ٱبن عباس[1]: حلّ الهِمْيان وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: ٱستلقت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد بن جُبير: أطلق تِكّة سراويله. وقال مجاهد: حلّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من ٱمرأته. قال ٱبن عباس: ولما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]. قالوا: والانكفاف في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص، وأعظم للثواب.

قلت: وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذي الكِفل حسب ما يأتي بيانه في «صۤ» إن شاء الله تعالى. وجواب «لولا» على هذا محذوف؛ أي لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به؛ ومثله ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝﴾ [التكاثر: ٥] وجوابه لم تتنافسوا؛ قال ٱبن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: الحكمة في ذلك أن يكون مثلاً للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن همّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخاء وأخذ في حلّ ثيابه وتِكّته ونحو ذلك، وهي قد ٱستلقت له؛ حكاه الطبريّ. وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم: وٱبن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه همّ بها، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشدّ تعظيماً للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم[2]. وقال الحسن: إن الله عز وجل لم يذكر معاصي الأنبياء

---

(١) هذا لايصح عن ابن عباس ولا عن سعيد بن جبير ومجاهد ولو ثبت عنهم فإنه لا حجة فيه، لأنه من الإسرائيليات ولم يثبت عن النبي ﷺ في هذا شيء البتة.

(٢) لكن ينبغي أن يُعلم أن ابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، وبعض صغار الصحابة، قد أخذوا عن كعب الأحبار وغيره، ورووا الإسرائيليات، وهذا وأمثاله من مراسيل بني إسرائيل، والمعروف أن أهل الحديث قد حكموا بضعف مراسيل الزهري وغيره، فكيف بمراسيل بني إسرائيل لاسيما وفيها قدح بعصمة الأنبياء؟! فالصواب أن هذا وأمثاله باطل مفترىً واجب رده، ولا حجة فيه.

ليعيرهم بها؛ ولكنه ذكرها لكيلا تيأسوا من التوبة. قال الغزنويّ: مع أن لزلة الأنبياء حِكَماً: زيادة الوجل، وشدّة الحياء بالخجل، والتخلّي عن عجب العمل، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل. قال القُشيريّ أبو نصر: وقال قوم جرى من يوسف همّ، وكان ذلك الهم حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس في النفس؛ والبرهان صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزماً مصمماً.

قلت: هذا قول حسن؛ وممن قال به الحسن. قال ٱبن عطية: الذي أقول به في هذه الآية إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حُكماً وعلماً، ويجوز عليه الهمّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة؛ وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهمّ الذي هو خاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حلّ تِكّته ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوّة. وما روي من أنه قيل له: «تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء» فإنما معناه العِدَة بالنبوّة فيما بعد.

قلت: ما ذكره من هذا التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ يدلّ على أنه كان نبيًا على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ وإذا كان نبيّا فلم يبق إلاّ أن يكون الهمّ الذي همّ به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلَّف على دفعه؛ ويكون قوله: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ ـ إن كان من قول يوسف ـ أي من هذا الهمّ، أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف، لمخالفة النفس لما زكّي به قبل وبريء؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً» على ما تقدّم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزّنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله؛ فما تعرّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفرّ منها؛ حكمة خص بها، وعملاً بمقتضى ما علّمه الله. وفي صحيح مسلم عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٦٦٠] «قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال:

[٣٦٦٠] صحيح. أخرجه مسلم ١٢٩ من حديث أبي هريرة، وهو طرف حديث، وقوله: «من جرائي» أي من أجلي.

أرقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرَّاي»[1]. وقال عليه السلام مخبراً عن ربه:

[٣٦٦١] «إذا همّ عبدي بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة» فإن كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفي الصحيح:

[٣٦٦٢] «إن الله تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلّم به» وقد تقدّم. قال ابن العربي: كان بمدينة السلام[1] إمام من أئمة الصوفية، ـ وأيّ إمام ـ يعرف بابن[2] عطاء! تكلمّ يوماً على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال: يا شيخ! يا سيدنا! فإذًا يوسف همّ وما تَمَّ؟ قال: نعم! لأن العناية من ثَمَّ. فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العامي في سؤاله، وجواب العالم في اختصاره واستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلماً» إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة.

قلت: وإذا تقررت عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَب بن عثمان: إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فاشتاقته امرأة فسامته نفسها فامتنع عليها وذكّرها، فقالت: إن لم تفعل لأشهرنك؛ فخرج وتركها، فرأى في منامه يوسف الصديق عليه السلام جالساً فقال: أنت يوسف؟ فقال: أنا يوسف الذي هممتُ، وأنت سليمان الذي لم تهمّ؟! فإن هذا يقتضي أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوّة وهو محال؛ ولو قدّرنا يوسف غير نبي فدرجته الولاية، فيكون محفوظاً كهو؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب، وروجع في المقال والخطاب، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة، وعظيم المحنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ «أن» في موضع رفع أي لولا رؤية برهان ربه والجواب محذوف لعلم السامع؛ أي لكان ما كان. وهذا البرهان غير مذكور في

[٣٦٦١] صحيح. أخرجه البخاري ٧٥٠١ ومسلم ١٢٩ و ١٣٠ وأحمد ٢/ ٢٣٤ وابن حبان ٣٨٠ و ٣٨١ و ٣٨٢ بأتم منه من حديث أبي هريرة، وله شواهد.

[٣٦٦٢] صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٢٨ و ٥٢٦٩ و ٦٦٦٤ ومسلم ١٢٧ وأبو داود ٢٢٠٩ والترمذي ١١٨٣ والنسائي ٦/ ١٥٦ وابن ماجه ٢٠٤٤ وأحمد ٢/ ٤٩١ وابن حبان ٤٣٣٤ من حديث أبي هريرة.

---

(١) أي بغداد.

(٢) هو غير ابن عطاء الله السكندري، فإن السكندري مصري وهو متأخر عن القرطبي.

القرآن؛ فرُوي[1] عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن زليخاء قامت إلى صنم مكلّل بالدرّ والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة؛ فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله؛ وهذا أحسن ما قيل فيه، لأن فيه إقامة الدليل. وقيل: رأى مكتوباً في سقف البيت ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقال ابن عباس: بدت كفّ مكتوب عليها ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الانفطار: ١٠] وقال قوم: تذكر عهد الله وميثاقه. وقيل: نودي يا يوسف! أنت مكتوب في [ديوان] الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله؛ قاله قَتادة ومجاهد والحسن والضّحاك وأبو صالح وسعيد بن جُبير. وروى الأعمش عن مجاهد قال: حلّ سراويله فتمثل له يعقوب، وقال له: يا يوسف! فولّى هارباً. وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جُبير قال: مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله؛ قال مجاهد: فولد لكل واحد من أولاد يعقوب ٱثنا عشر ذكراً إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان، ونقص بتلك الشهوة ولده؛ وقيل غير هذا. وبالجملة: فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوي إيمانه، وٱمتنع عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ الكاف من «كَذَٰلِكَ» يجوز أن تكون رفعاً، بأن يكون خبر ٱبتداء محذوف، التقدير: البراهين كذلك، ويكون نعتاً لمصدر محذوف؛ أي أريناه البراهين رؤية كذلك. والسوء الشهوة، والفحشاء المباشرة. وقيل: السوء الثناء القبيح، والفحشاء الزنى. وقيل: السوء خيانة صاحبه، والفحشاء ركوب الفاحشة. وقيل: السوء عقوبة الملك العزيز. وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو وٱبن عامر «المخلِصين» بكسر اللام؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله. وقرأ الباقون بفتح اللام، وتأويلها: الذين أخلصهم الله لرسالته؛ وقد كان يوسف ﷺ بهاتين الصفتين؛ لأنه كان مخلِصاً في طاعة الله تعالى، مستخلَصاً لرسالة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ قالت العلماء: وهذا من ٱختصار القرآن

---

(١) كل ما روي في البرهان إنما هو من الإسرائيليات ولا يصح عن علي.

المعجز الذي يجتمع فيه المعاني؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا، هي لتردّه إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فأدركته قبل أن يخرج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أي من خَلْفه؛ قبضت في أعلى قميصه فتخرّق القميص عند طوقه، ونزل التخريق إلى أسفل القميص. والاستباق طلب السّبق إلى الشيء؛ ومنه السّباق. والقدّ القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً؛ قال النابغة:

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

والقَطُّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضاً. وقال المفضّل بن حرب: قرأت في مصحف «فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عُطَّ مِنْ دُبُرٍ» أي شُقّ. قال يعقوب: العَطّ الشّق في الجلد الصحيح والثوب الصحيح. وحذفت الألف من «ٱسْتَبَقَا» في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها؛ كما يقال: جاءني عَبْدَا[1] الله في التثنية؛ ومن العرب من يقول: جائني عبدا الله بإثبات الألف بغير همز، يجمع بين ساكنين؛ لأن الثاني مدغم، والأوّل حرف مدّ ولين. ومنهم من يقول: عبدا الله بإثبات الألف والهمز، كما تقول في الوقف.

الثانية: في الآية دليل على القياس والاعتبار، والعمل بالعرف والعادة؛ لما ذكر من قدّ القميص مقبلاً ومدبراً، وهذا أمر انفرد به المالكية في كتبهم؛ وذلك أن القميص إذا جُبِذ من خلف تمزّق من تلك الجهة، وإذا جُبِذ من قدّام تمزق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي وجدا العزيز عند الباب، وعُنِيَ بالسيّد الزوج؛ والقبط يسَمُّون الزوج سيّداً. يقال: ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد؛ فلما رأت زوجها طلبت وجهاً للحيلة وكادت[2] فـ ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي زنًى. ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ تقول: يُضرب ضرباً وجيعاً. و «مَا جَزَاءُ» ابتداء، وخبره «أَنْ يُسْجَنَ». «أَوْ عَذَابٌ» عطف على موضع «أَنْ يُسْجَنَ» لأن المعنى: إلا السّجن. ويجوز أو عذاباً أليماً بمعنى: أو يعذّب عذاباً أليماً؛ قاله الكسائي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) في الأصل «عبدَ».

(٢) من الكيد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال العلماء: لما برّأت نفسها؛ ولم تكن صادقة في حبه ـ لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب ـ قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه. قال نُوفٌ الشاميّ وغيره: كأنّ يوسف عليه السلام لم يَبِن عن كشف القضية، فلما بَغَت به غضب فقال الحق.

الثانية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ لأنهما لما تعارضا في القول ٱحتاج الملك إلى شاهد ليعلم الصادق من الكاذب، فشهد شاهد من أهلها، أي حكم حاكم من أهلها؛ لأنه حكم منه وليس بشهادة. وقد ٱختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة: الأوّل ـ أنه طفل في المهد تكلم؛ قال السّهيلي: وهو الصحيح(1)، للحديث الوارد فيه عن النبي ﷺ، وهو قوله:

[٣٦٦٣] «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» وذكر فيهم شاهد يوسف. وقال القُشيريّ أبو نصر: قيل فيه: كان صبياً في المهد في الدار وهو ٱبن خالتها؛ وروى سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس عن النبي ﷺ أنه قال:

[٣٦٦٤] «تكلم أربعة وهم صغار» فذكر منهم شاهد يوسف؛ فهذا قول. الثاني ـ أن الشاهد قَدُّ القميص؛ رواه ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال؛ وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كثير في أشعارها وكلامها؛ ومن أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوتد لِمَ تَشقُّني؟ قال له: سَلْ من يَدقُّني. إلا أن قول الله تعالى بعد

[٣٦٦٣] أخرجه الحاكم ٢/ ٥٩٥ من حديث أبي هريرة. بلفظ «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، عيسى ابن مريم، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة بنت فرعون» وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، والصواب أنه غير صحيح وله علتان الأولى أنه ذكر أنه لم يتكلم إلا ثلاثة، ثم ذكر أربعة كما ترى. والعلة الثانية هي أن البخاري قد أخرجه برقم ٣٤٣٦ وكذا مسلم ٢٥٥٠ وأحمد ٢/ ٣٠٧ من حديث أبي هريرة فذكر فيه عيسى ابن مريم وصاحب جريج والطفل الرضيع، وهو حديث مطول، وإسناده نفس إسناد الحاكم فالوهم من شيخ الحاكم أو من فوقه، والله أعلم وانظر فتح الباري ٦/ ٤٨٠ ويأتي أيضاً في سورة البروج.

[٣٦٦٤] أخرجه الطبري ١٩١١٨ عن ابن عباس مرفوعاً و١٩١٠٩ عن ابن عباس موقوفاً، ومداره في الطريقين على عطاء بن السائب، وهو صدوق، لكن اختلط بأَخَرَة ولذا اضطرب فيه، والراجح في ذلك القول الرابع الذي سيأتي، وهو الذي اختاره القرطبي، وعليه جمهور المفسرين.

---

(١) لا يصح لأن الحديث ضعيف، والصواب أنه كان مستشاراً للعزيز.

«مِنْ أَهْلِهَا» يبطل أن يكون القميص. الثالث ـ أنه خَلْق من خلق الله تعالى ليس بإنسي ولا بجنّيّ؛ قاله مجاهد أيضاً، وهذا يرده قوله تعالى: «مِنْ أَهْلِهَا». الرابع ـ أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعت الاستدبار والجَلَبة من وراء الباب، وشق القميص، فلا يدرى أيكما كان قدّام صاحبه؛ فإن كان شقّ القميص من قدّامه فأنتِ صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ هذا قول الحسن وعِكرمة وقتادة والضّحاك ومجاهد أيضاً والسدّي. قال السدّي: كان ابن عمها؛ وروي عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب، والله أعلم. وروي عن ابن عباس ـ رواه عنه إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة ـ قال: كان رجلاً ذا لحية. وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبيّ، ولكن كان رجلاً حكيماً. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كان رجلاً. قال أبو جعفر النحاس: والأشبه بالمعنى ـ والله أعلم ـ أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة؛ ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف ﷺ تغني عن أن يأتي بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة؛ وليس هذا بمخالف للحديث «تكلم أربعة وهم صغار»[1] منهم صاحب يوسف؛ يكون المعنى: صغيراً ليس بشيخ؛ وفي هذا دليل آخر وهو: أن ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبي ﷺ، وقد تواترت الرواية عنه[2] أن صاحب يوسف ليس بصبيّ.

قلت: قد رُوي عن ابن عباس وأبي هريرة وابن جُبير وهلال بن يِسَاف والضّحاك أنه كان صبياً في المهد؛ إلا أنه لو كان صبياً تكلم لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة؛ والله أعلم. وسيأتي من تكلم في المهد من الصبيان في سورة «البروج» إن شاء الله.

الثالثة: إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلاً صغيراً فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا؛ وإذا كان رجلاً فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة في اللقطة وكثير من المواضع؛ حتى قال مالك في اللصوص: إذا وجدت معهم أمتِعة فجاء قوم فادعوها، وليست لهم بيّنة فإن السلطان يَتَلَوّم[3] لهم في ذلك؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها

---

(١) هو المتقدم.

(٢) يعود الضمير في «عنه» إلى ابن عباس كما في الطبري ١٩١٢١ و ١٩١٢٢ و ١٩١٢٩ و ١٩١٣١.

(٣) التلوم: التنظر في الأمر تريده.

إليهم. وقال محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إن ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل. وكان شُرَيح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومات؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ كان في موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل، لأن حروف الشرط تردّ الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في كان؛ فقال المبرد محمد بن يزيد: هذا لقوّة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجاج: المعنى إن يكن؛ أي إن يُعلَم، والعلم لم يقع، وكذا الكون لأنه يؤدي عن العلم. «قُدَّ مِنْ قُبُلٍ» فخبّر عن «كان» بالفعل الماضي؛ كما قال زهير:

وكان طَوَى كَشْحاً[1] على مُسْتَكِنَّةٍ فــلا هــو أبـداهَــا ولــم يَتقــدَّمِ

وقرأ يحيى بن يعمر وٱبن أبي إسحق «مِن قُبُلُ» بضم القاف والباء واللام، وكذا «دُبُرُ» قال الزجاج: يجعلهما غايتين كقبلُ وبعدُ؛ كأنه قال: من قُبُلِه ومن دُبُرِه، فلما حذف المضاف إليه ـ وهو مراد ـ صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له. ويجوز «من قُبُلَ» «ومن دُبُرَ» بفتح الراء واللام تشبيهاً بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه. وروى محبوب عن أبي عمرو «من قُبْلٍ» «ومن دُبْرٍ» مخفّفان مجروران.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ قيل: قال لها ذلك العزيز عند قولها: «مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً». وقيل: قاله لها الشاهد. والكيد: المكر والحيلة، وقد تقدّم في «الأنفال». ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ وإنما قال «عَظِيمٌ» لعظم فتنتهنّ وٱحتيالهنّ في التخلّص من ورطتهنّ. وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ[2]: «إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦] وقال: «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ»».

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ القائل هذا هو الشاهد. و«يوسف» نداء مفرد، أي يا يوسف، فحذف. «أَعْرِضْ عَنْ هَذَا» أي لا تذكره لأحد وٱكتمه. ثم أقبل

---

(١) الكشح: الجنب. والمستكنّة: الحقد.

(٢) هذا حديث غير صحيح. له علتان أما الأولى، فهو مقاتل إن كان ابن سليمان فهو كذاب، وإن كان ابن حيان فقد ضعفه غير واحد، والعلة الثانية الانقطاع، فإن ابن أبي كثير لم يسمع بل ولم يدرك أبا هريرة، انظر مراسيل ابن أبي حاتم ٤٢٩ والظاهر أنه حديث موضوع.

عليها فقال: وأنتِ ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ﴾ يقول: استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك. ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلّب المذكر؛ والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين؛ مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٣] ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]. وقيل: إن القائل ليوسف أعرض ولها ٱستغفري زوجُها الملك؛ وفيه قولان: أحدهما: أنه لم يكن غيوراً؛ فلذلك كان ساكناً. وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود. الثاني: أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفي بادرته وعفا عنها.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ويقال: «نُسوة» بضم النون، وهي قراءة الأعمش والمفضّل والسُّلَميّ، والجمع الكثير نساء. ويجوز: وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب؛ وذلك أن القصة ٱنتشرت في أهل مصر فتحدّث النساء. قيل: ٱمرأة ساقي العزيز، وٱمرأة خبازه، وٱمرأة صاحب دوابه، وٱمرأة صاحب سجنه. وقيل: ٱمرأة الحاجب؛ عن ٱبن عباس وغيره. ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ﴾ الفتى في كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ قيل: شغفها غلبها. وقيل: دخل حبه في شَغافها؛ عن مجاهد وغيره. وروى عمرو بن دينار عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال: دخل تحت شَغافها. وقال الحسن: الشّغف باطن القلب. السديّ وأبو عبيد: شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه. وقيل: هو وسط القلب؛ والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى: وصل حبه إلى شَغافها فغلب عليه؛ قال النابغة:

وقد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ دخولَ الشّغافِ تبتغيه الأصابعُ

وقد قيل: إن الشّغاف داء؛ وأنشد الأصمعي للراجز:

يتبعها وهي له شَغافُ

وقرأ أبو جعفر بن محمد وٱبن محيصن والحسن «شَعَفَها» بالعين غير معجمة؛ قال ٱبن الأعرابي: معناه أحرق حبه قلبها؛ قال: وعلى الأوّل العمل. قال الجوهريّ: وشَعفه الحب أحرق قلبه. وقال أبو زيد: أمرضه. وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف. وقرأ الحسن

«قَدْ شَعَفَهَا» قال: بَطَنها حبًا. قال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب؛ لأن شِعَاف الجبال: أعاليها؛ وقد شُغِف بذلك شُغْفاً بإسكان الغين إذا أُولِع به؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت ٱمرىء القيس:

لتقتلنــي وقــد شَعَفْــتُ فــؤادَهــا كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ[1] الرَّجُل الطَّالِي

قال: فشبهت لوعةُ الحبّ وجَوَاه بذلك. ورُوي عن الشَّعْبي أنه قال: الشّغف بالغين المعجمة حُبّ، والشّعف بالعين غير المعجمة جنونٌ. قال النحاس: وحكي «قد شَغِفَها» بكسر الغين، ولا يعرف في كلام العرب إلا «شَغَفها» بفتح الغين، وكذا «شَعَفها» أي تركها مشعوفة. وقال سعيد بن أبي عَرُوبة عن الحسن: الشَّغاف حجاب القلب، والشّعاف سويداء القلب، فلو وصل الحبّ إلى الشّعاف لماتت؛ وقال الحسن: ويقال إن الشَّغاف الجلدة اللاصقة بالقلب التي لا ترى، وهي الجلدة البيضاء، فلصق حبُّه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي في هذا الفعل. وقال قَتَادَة: «فَتَاهَا» وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم في حكم المماليك، وكان ينفذ أمرُها فيه. وقال مقاتل عن أبي عثمان النَّهْديّ عن سلمان الفارسيّ قال: إن ٱمرأة العزيز ٱستوهبت زوجها يوسف فوهبه لها، وقال: ما تصنعين به؟ قالت: أتخذه ولداً؛ قال: هو لك؛ فربته حتى أَيْفع وفي نفسها منه ما في نفسها، فكانت تنكشف له وتتزيّن وتدعوه من وجه اللّطف فعصمه الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي بغيبتهنّ إياها، وٱحتيالهنّ في ذمها. وقيل: إنها أطلعتهنّ وٱستأمنتهنّ فأفشين سرها، فسمى ذلك مكراً. وقوله: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ في الكلام حذف؛ أي أرسلت إليهن تدعوهنّ إلى وَليمة لتُوقِعهنّ فيما وقعت فيه؛ فقال مجاهد عن ٱبن عباس: إن ٱمرأة العزيز قالت لزوجها إني أريد أن أتخذ طعاماً فأدعو هؤلاء النّسوة؛ فقال لها: افعلي؛ فاتخذت طعاماً، ثم نَجَّدت لهن البيوت؛؛ نَجَّدت أي زيّنت؛ والنَّجْد ما يُنَجَد به البيت من المتاع أي يُزيَّن، والجمع نُجُود عن أبي عُبيد؛ والتَّنجيد التزيين؛ وأرسلت إليهنّ أن يحضُرن طعامها، ولا تتخلف منكنّ ٱمرأة ممن سميتُ. قال وهب بن مُنَبِّه: إنهنّ كنّ أربعين ٱمرأة فجئن على كَرْه منهنّ، وقد قال فيهنّ أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

حتــــى إذا جئنهــــا قســــراً ومهــدت لهــن أنضــاداً وكبــابــا

---

(١) أي المطلية بالقطران.

ويُروى: أنماطاً. قال وهب بن مُنَبِّه: فجئن وأخذن مجالسهنّ. ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ أي هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليها. قال ٱبن جُبير: في كل مجلس جَامٌ فيه عسل وأُتْرُجّ وسكِّين حاد. وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير: «مُتْكاً» مخففاً غير مهموز، والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد. روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: المُتَّكأ مثقّلاً [هو] الطعام، والمُتْك مخفّفاً هــو الأُتْرُجّ؛ وقال الشاعر:

نَشْـربُ الإثْـمَ بـالصُّـواعِ جِهَـاراً   وتَـرَى المُتْـكَ بَيْنَنَـا مُسْتَعَـارَا

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءَة: الأُترجّة المُتْكَة؛ قال الجوهريّ: المُتْك ما تُبقيه الخاتنة. وأصل المُتْك الزُّماوَرْد[1]. والمَتْكَاء من النّساء التي لم تُخْفَض. قال الفرّاء: حدثني شيخ من ثقات أهل البصرة أن المُتْك مخففاً الزُّماوَرْد. وقال بعضهم: إنه الأترجّ؛ حكاه الأخفش. ٱبن زيد: أترجًا وعسلاً يؤكل به؛ قال الشاعر[2]:

فَظِلْنَـــا بنعمـــة وٱتَّكَــأْنَـــا   وشَــرِبْنَــا الحــلالَ مــن قُلَلِــه

أي أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: «وَأَعْتَدَتْ» من العَتَاد؛ وهو كل ما جعلته عُدّة لشيء. «مُتَّكَأً» أصح ما قيل فيه ما رواه عليّ بن أبي طلحة عن ٱبن عباس قال: مجلساً، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام متكأ، مثل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ ودلّ على هذا الحذف «وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً» لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين؛ كذا قال في كتاب «إعراب القرآن» له. وقال في كتاب «معاني القرآن» لــه: وروى مَعْمَر عن قَتَادة قال: «المتكأ» الطعام. وقيل: «المتكأ» كل ما ٱتكىء عليه عند طعام أو شراب أو حديث؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة، إلا أن الروايات قد صحت بذلك. وحكى القُتبيّ أنه يقال: ٱتكأنا عند فلان أي أكلنا، والأصل في «متكأ» موتكأ، ومثله مُتَّزن ومُتَّعد؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكأت، ويقال: ٱتَّكأ يَتَّكِىء ٱتّكاء. ﴿كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ مفعولان؛ وحكى الكسائي والفراء أن السِّكين يذكر ويؤنث، وأنشد الفراء:

فَعَيّـثَ فِـي السَّنَـامِ غَـدَاةَ قُـرٍّ   بسكِّيــنٍ مُــوثَّقَــةَ النِّصَــاب

الجوهريّ: والغالب عليه التذكير، وقال:

---

(١) شيء يشبه الأترج. وخفضُ الجارية: خَتْنها.

(٢) هو جميل بن معمر.

يُـرى نـاصحـاً فيمـا بَـدَا فـإذا خَـلاَ   فذلك سكِّينٌ على الحَلْقِ حَاذِقُ

الأصمعي: لا يعرف في السكين إلا التذكير.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتُ ٱخْرُج عَلَيْهِنَّ﴾ بضم التاء لالتقاء الساكنين؛ لأن الكسرة تَثْقل إذا كان بعدها ضمة، وكسرت التاء على الأصل. قيل: إنها قالت لهن: لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن، ثم قالت لخادمها: إذا قلت لك ٱدع لي إيلا فٱدع يوسف؛ وإيل: صنم كانوا يعبدونه، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين، وقد شدّ مِئزره، وحسَرَ عن ذراعيه؛ فقالت للخادم: ٱدع لي إيلاً؛ أي ٱدع لي الربّ؛ وإيل بالعبرانية الربّ؛ قال: فتعجب النسوة وقلن: كيف يجيء! فصعدت الخادم فدعت يوسف، فلما ٱنحدر قالت لهن: ٱقطعن ما معكن. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ قاله وهب بن مُنَبِّه. سعيد بن جُبير: لم يخرج عليهن حتى زينته، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه، وتحيّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه، فجعلن يقطعن أيديهن، ويحسبن أنهن يقطعن الأترجّ؛ وٱختلف في معنى «أَكْبَرْنَهُ» فروى جُوَيبر عن الضّحاك عن ٱبن عباس: أعظمنه وهِبْنه؛ وعنه أيضاً أَمْنَين وَأَمْذَين من الدَّهش[1]؛ وقال الشاعر:

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قَارةٍ[2]   صَهَلْـنَ وأكْبَـرْنَ المنـيَّ المـدفقَـا

وقال ٱبن سمعان عن عدة من أصحابه: إنهم قالوا أمذين عشقاً؛ وهب بن مُنَبّه: عشقنه حتى مات منهن عشرة في ذلك المجلس دَهَشا وحيرة ووَجْداً بيوسف. وقيل: معناه حِضْن من الدَّهش؛ قاله قتادة ومقاتل والسُّديّ؛ قال الشاعر[3]:

نـأتـي النسـاءَ علـى أطهـارهـنّ ولا   نـأتــي النّسـاءَ إذا أَكْبَـرْنَ إِكْبَـارَا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا: ليس ذلك في كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكنّ حضن من شدّة إعظامهن له، وقد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض. قال الزجاج: يقال أكبرنه، ولا يقال حِضْنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض؛ وأجاب الأزهري فقال: يجوز أَكْبرت بمعنى حاضت؛ لأن المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حَيِّز الصغر إلى الكبر؛ قال: والهاء في «أَكْبَرْنَهُ» يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية؛ وهذا مزيّف، لأن هاء الوقف تسقط في الوصل، وأمثل منه قول ٱبن الأنباري: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل، أي أكبرن إكباراً، بمعنى حِضْن حَيْضاً. وعلى قول ٱبن عباس

---

(١) هذه الروايات مصدرها كتب الأقدمين، والصواب قول ابن عباس الأول، والله أعلم.

(٢) الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال.

(٣) قال الطبري رحمه الله: لا أحسب أن لهذا البيت أصلاً اهـ راجع تفسيره ١٩٢١٩.

الأول تعود الهاء إلى يوسف؛ أي أعظمن يوسف وأجْلَلْنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ قال مجاهد: قطّعنها حتى ألقينها. وقيل: خَدشْنها. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: حَزًّا بالسكّين، قال النحاس: يريد مجاهد أنه ليس قطعاً تَبِينِ منه اليد، إنما هو خَدْش وحزّ، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده. وقال عِكرمة: «أَيْدِيَهُنّ» أكمامهنّ، وفيه بُعْد. وقيل: أناملهنّ؛ أي ما وجدن ألَماً في القطع والجرح، أي لشغل قلوبهن بيوسف، والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها في مواضع، ويمكن أن يرجع إلى عددهنّ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله. وروى الأصمعيّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء. «وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ» بإثبات الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام في «لله» عوضاً منها. وفيها أربع لغات؛ يقال: حَاشَاكَ وحَاشَا لَكَ وحاشَ لَكَ وحَشَا لَكَ. ويقال: حَاشَا زيدٍ وحاشا زيداً؛ قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: النصب أولى؛ لأنه قد صحّ أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه؛ وقد قال النابغة:

* وَلاَ أحاشِي مِن الأقوام مِن أَحَدِ *

وقال بعضهم: حاشَ حرف، وأُحاشي فعل. ويدلّ على كون حاشا فعلاً وقوع حرف الجر بعدها. وحكى أبو زيد عن أعرابيّ: اللهم اغفر لي ولمن يَسمع، حاشَا الشيطانَ وأبا الأصبغ؛ فنصب بها. وقرأ الحسن «وَقُلْنَ حَاشْ لِلَّهِ» بإسكان الشين، وعنه أيضاً «حاش الإله». ابن مسعود وأُبيّ: «حَاشَ اللَّهِ» بغير لام، ومنه قول الشاعر[1]:

حاشا أبي ثَوْبَانَ إنّ بِهِ ... ضَنًّا عنِ الْمَلْحَاةِ والشَّتْمِ

قال الزجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحَشَا بمعنى الناحية، تقول: كنت في حَشَا فلانٍ أي في ناحيته؛ فقولك: حاشا لزيدٍ أي تَنحّى زيدٌ من هذا وتباعد عنه، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين. وقال أبو علي: هو فاعل من المحاشاة؛ أي حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية مما قُرِف به، أو من أن يكون بشراً؛ فحاشا وحاش في الاستثناء حرف جرّ عند سيبويه، وعلى ما قال المبرّد وأبو عليّ فعل.

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه: «ما» بمنزلة ليس؛ تقول: ليس

(١) هو سبرة بن عمرو الأسدي.

زيد قائماً، و «ما هذا بشراً» و ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢]. وقال الكوفيون: لما حذفت الباء نصبت؛ وشرح هذا ـ فيما قاله أحمد بن يحيى ـ أنك إذا قلت: ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذفت الباء نصبت لتدلّ على محلها، قال: وهذا قول الفرّاء، قال: ولم تعمل «ما» شيئاً؛ فألزمهم البصريون أن يقولوا: زيد القمرَ؛ لأن المعنى كالقمر! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال: الباء أدخل في حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون اسماً. قال النحاس: لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يتناقض؛ لأن الفرّاء أجاز نصًّا[1] ما بمنطلق زيدٌ، وأنشد:

أَمَا واللَّهِ أَنْ لو كنتَ حُرًّا ... وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتِيق

ومنع نصًّا[1] النصب؛ ولا نعلم بين النحويين اختلافاً أنه جائز: ما فيك براغب زيدٌ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو، ثم يحذفون الباء ويرفعون. وحكى البصريون والكوفيون ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع، وحكى البصريون أنها لغةُ تميم، وأنشدوا:

أَتيماً تَجعلون إليّ نِدًّا ... وما تَيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيدٌ

النّد والنَّديد والنَّدِيدةُ المِثْل والنَّظير. وحكى الكسائي أنها لغة تِهامة ونَجْد. وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين. قال أبو إسحاق: وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجلّ ولغة رسول الله ﷺ أقوى وأولى.

قلت: وفي مصحف حَفْصة رضي الله عنها «مَا هَذَا بِبَشَرٍ» ذكره الغَزْنويّ. قال القُشَيْريّ أبو نصر: وذكرت النّسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر، بل هو في صورة مَلَك؛ وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] والجمع بين الآيتين أن قولهن: «حَاشَ لِلَّهِ» تبرئة ليوسف عمَّا رمته به امرأة العزيز من المراودة، أي بعد يوسف عن هذا؛ وقولهنّ: «لله» أي لخوفه، أي براءة لله من هذا؛ أي قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء؛ والمعنى: أنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقض. وقيل: المراد تنزيهه عن مشابهة البشر في الصورة، لفرط جماله. وقوله: «لله» تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هذا المعنى قالت النسوة ذلك ظناً منهن أن صورة المَلَك أحسن، وما بلغهنّ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] فإنه من كتابنا. وقد ظنّ بعض الضَّعفة أن هذا القول لو كان ظناً باطلاً منهنّ لوجب على الله أن يردّ عليهنّ، ويبيّن كذبهنّ، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على

(١) وفي نسخة: أيضاً.

الله تعالى، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكَذّب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الردّ عليه؛ وأيضاً أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسَن كأنه مَلَك؛ أي لم ير مثله، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظنّ في أن صورة الملَك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التّهَم. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي ما هذا إلا مَلَك؛ وقال الشاعر[1]:

فلستَ لإنْسِيٍّ ولكن لِمَلأكٍ تَنزَّلَ من جَوِّ السماءِ يَصُوبُ

وروي عن الحسن: «مَا هَذَا بِشِرًى» بكسر الباء والشين، أي ما هذا عبداً مُشترًى، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع، فوضع المصدر موضع اسم المفعول، كما قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾[المائدة: ٩٦] أي مصيده، وشبهه كثير. ويجوز أن يكون المعنى: ما هذا بثمن، أي مثله لا يثمن ولا يقوّم؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشترى به. كقولك: ما هذا بألفٍ إذا نفيت قول القائل: هذا بألف. فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر، كأنه قال: ما هذا مقدراً بشراء. وقراءة العامة أشبه؛ لأن بعده «إنْ هَذَا إلاَّ مَلَك كَرِيمٌ» مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه، ولأن مثل «بِشرًى» يكتب في المصحف بالياء.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ لما رأت ٱفتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها: «لُمْتُنَّنِي فِيهِ» أي بحبه، و«ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطَّبريّ. وقيل: الهاء للحب، و «ذلك» على[2] بابه، والمعنى: ذلكن الحُب الذي لمتنني فيه، أي حبّ هذا هو ذلك الحب. واللوم الوصف بالقبيح. ثم أقرّت وقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي ٱمتنع؛ وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل: «ٱستعصم» أي ٱستعصى، والمعنى واحد. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهن، وهتكت جِلباب الحياء، ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لَوْماً ولا مقالاً خلافَ أوّل أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها. ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي الأذلاء. وخط المصحف «وليكوناً» بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد؛ ونون التأكيد تثقّل وتخفّف والوقف على قوله: «لَيُسْجَنَنَّ» بالنون لأنها مثقلة، وعلى «ليكوناً» بالألف لأنها مخففة، وهي تشبه نون الإعراب في قولك: رأيت رجلاً وزيداً وعمراً، ومثله قوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ [العلق: ١٥]ونحوهاالوقف عليها بالألف، كقول الأعشىٰ:

---

(١) هو رجل من عبد القيس جاهلي.

(٢) في الأصل «عل» والمثبت هو الصواب.

* وَلاَ تَعبدِ الشيطان واللّهَ فاعبدا *

أي أراد فاعبداً، فلما وقف عليه كان الوَقف بالألف.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ أي دخول السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزّجاج والنّحاس. «أَحَبُّ إِلَيَّ» أي أسهل عليّ وأهون من الوقوع في المعصية؛ لا أنّ دخول السجن مما يُحَبّ على التحقيق. وحُكي أن يوسف عليه السلام لما قال: «السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ» أوحى الله إليه «يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبّ إليّ، ولو قلت العافية أحبّ إليّ لعوفيت». وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ: «السَّجْن» بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة ٱبن أبي إسحق وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب؛ وهو مصدر سَجَنه سَجْناً. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي كيد النّسوان. وقيل: كيد النّسوة اللاتي رأينه؟ فإنهنّ أمرنه بمطاوعة ٱمرأة العزيز، وقلن له: هي مظلومة وقد ظلمتها. وقيل: طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة في ٱمرأة العزيز؛ والقصد بذلك أن تَعذِله في حقها، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له: يا يوسف! ٱقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال: يا رب كانت واحدة فصرن جماعة. وقيل: كيد ٱمرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والكيد الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيداً لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لَجَأ:

تَـراءتْ كَـيْ تكيـدَكَ أمُّ بِشْـرٍ   وكيـدٌ بـالتَّبَـرُّجِ مَـا تَكِيـدُ

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ جواب الشرط، أي أَمِلْ إليهن؛ من صبا يصبو ـ إذا مال وٱشتاق ـ صُبُوًّا وصَبْوة؛ قال[1]:

إِلَـى هِنْـدٍ صَبَـا قَلْبِـي   وهِنْـدٌ مِثْلُهـا يُصْبِـي

أي إن لم تَلطُف بي في ٱجتناب المعصية وقعت فيها. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال؛ ودلّ هذا على أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودلّ أيضاً على قبح الجهل والذم لصاحبه.

---

(١) هو زيد بن ضبة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لِمَا قال. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ تعرّض للدعاء، وكأنه قال: اللهم أصرف عني كيدهنّ؛ فاستجاب له دعاءه، ولطف به وعصمه عن الوقوع في الزنى. «كَيْدَهُنَّ» قيل: لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه. وقيل: يعني كيد النساء. وقيل: يعني كيد ٱمرأة العزيز، على ما ذكر في الآية قبل؛ والعموم أولى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي ظهر للعزيز وأهل مشورته مِن بَعْدِ أن رأوا الآيات أي علامات براءة يوسف ـ من قدّ القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحَزّ الأيدي، وقلة صبرهنّ عن لقاء يوسف ـ أن يسجنوه كتماناً للقصة ألاّ تشيع في العامة، وللحيلولة بينه وبينها. وقيل: هي البركات التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم؛ والأول أصح. قال مقاتل عن مجاهد عن ٱبن عباس في قوله: «ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ» قال: القميص من الآيات، وشهادة الشاهد من الآيات، وقطع الأيدي من الآيات، وإعظام النساء إياه من الآيات. وقيل: ألجأها الخجل من الناس، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب، لتشتفي إذا مُنعت من نظره؛ قال:

وما صَبابةُ مشتاقٍ على أملٍ　　مِن اللِّقاء كمشتاقٍ بلا أَمَلِ

أو كادته رجاء أن يَمَل حبسه فيبذل نفسه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ «يَسْجُنُنَّهُ» في موضع الفاعل؛ أي ظهر لهم أن يسجنوه؛ هذا قول سيبويه. قال المبرّد: وهذا غلط؛ لا يكون الفاعل جملة، ولكن الفاعل ما دلّ عليه «بَدَا» وهو مصدر؛ أي بدا لهم بَدَاءٌ؛ فحذف لأن الفعل يدلّ عليه؛ كما قال الشاعر:

وحقّ لمن أبو موسى أبوهُ　　يُوفِّقه الذي نَصَب الجبالاَ

أي وحقّ الحقُّ، فحذف. وقيل: المعنى ثم بدا لهم رأيٌ لم يكونوا يعرفونه؛ وحذف هذا لأن في الكلام دليلاً عليه، وحذف أيضاً القول؛ أي قالوا: ليسجننه، واللام جواب ليمين مضمر؛ قاله الفرّاء، وهو فعل مذكّر لا فعل مؤنث؛ ولو كان فعلاً مؤنثاً لكان يَسْجُنّانِّه؛ ويدلّ على هذا قوله «لَهُمْ» ولم يقل لهنّ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهنّ فغلب المذكر؛ قاله أبو عليّ. وقال السّديّ: كان سبب حبس يوسف أن ٱمرأة العزيز شكت إليه أنه شَهّرها ونشر خبرها؛ فالضمير على هذا في «لَهُمْ» للملك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي إلى مدّة غير معلومة؛ قاله كثير من المفسّرين. وقال ابن عباس: إلى انقطاع ما شاع في المدينة. وقال سعيد بن جُبَيْر: إلى ستة أشهر. وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثة عشر شهراً. عِكْرِمة: تسع سنين. الكَلْبيّ: خمس سنين. مقاتل: سبع. وقد مضى في «البقرة» القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام. وقال وهب: أقام في السجن اثنتي عشرة سنة. و«حتى» بمعنى إلى؛ كقوله ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[القدر: ٥] وجعل الله الحبس تطهيراً ليوسف ﷺ من هَمِّه بالمرأة. وكأن العزيز وإن عرف براءة يوسف ـ أطاع المرأة في سجن يوسف. قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات: حين هَمّ بها فسجن، وحين قال للفتى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال لإخوته: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فقالوا: «إن يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ».

الرابعة: أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام خمسة أعوام، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعاً. فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحاً فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدّه. وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحدّ، وهو ضعيف؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين بلاءين؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وسيأتي بيان هذا في «النحل» إن شاء الله. وصبر يوسف، واستعاذ به من الكيد، فاستجاب له على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ «فتيان» تثنية فتى؛ وهو من ذوات الياء، وقولهم: الفُتُوّ شاذ. قال وهب[1] وغيره: حمل يوسف إلى السجن مقيّداً على حمار،

(١) الخبر بطوله من الإسرائيليات فإن وهب بن منبه يروي عن كتب الأقدمين.

وطِيف به «هذا جزاء من يعصي سيدته» وهو يقول: هذا أيسر من مُقَطَّعات النِّيران، وسرابيل القَطِران، وشراب الحميم، وأكل الزّقوم. فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد ٱنقطع رجاؤهم، واشتد بلاؤهم؛ فجعل يقول لهم: ٱصبروا وأبشروا تؤجروا؛ فقالوا له: يا فتى! ما أحسن حديثك! لقد بورك لنا في جوارك، من أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفيّ الله يعقوب، ابن ذبيح الله إسحق، ابن خليل الله إبراهيم. وقال ٱبن عباس: لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه في السجن؛ فكان يُعزّي فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجريح، ويصلي الليل كله، ويبكي حتى تبكي معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب، وطهر به السجن، واستأنس به أهل السجن؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال له: يا يوسف! لقد أحببتك حبًا لم أحبّ شيئاً حبك؛ فقال: أعوذ بالله من حبك، قال: ولِمَ ذلك؟ فقال: أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبتني سيدتي فنزل بي ما ترى، فكان في حبسه حتى غضب الملك على خَبَّازه وصاحب شرابه، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه، فدسّوا إلى خَبّازه وصاحب شرابه أن يَسُمّاه جميعاً، فأجاب الخبّاز وأبى صاحب الشَّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ» وقد قيل: إن الخبّاز وضع السم في الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقي: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخبّاز: أيها الملك لا تشرب! فإن الشراب مسموم؛ فقال الملك للساقي: ٱشرب! فشرب فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ؛ فأبى، فجرّب الطعام على حيوانٍ فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف. وٱسم الساقي منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبيّ عن كعب. وقال النقاش: اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطّبريّ: الذي رأى أنه يعصر خمراً هو نبو، قال السّهيليّ: وذكر ٱسم الآخر ولم أقيده. وقال «فتيان» لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمّى فتى، صغيراً كان أو كبيراً؛ ذكره الماورديّ. وقال القُشَيريّ: ولعلّ الفتى كان اسماً للعبد في عرفهم؛ ولهذا قال: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ». ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه. «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً» أي عنباً؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبّر الأحلام؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه: تعال حتى نجرّب هذا العبد العبراني؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً؛ قاله ٱبن مسعود. وحكى الطّبريّ أنهما سألاه

عن علمه فقال: إني أعبّر الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال ٱبن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفي الصحيح عن أبي هُريرة عن النبي ﷺ:

[٣٦٦٥] «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً». وقيل: إنها كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريباً؛ وهذا قول ٱبن مسعود والسّديّ. وقيل: إن المصلوب منهما كان كاذباً، والآخر صادقاً؛ قاله أبو مِجْلَز. وروى الترمذيّ عن ٱبن عباس عن النبي ﷺ قال:

[٣٦٦٦] «من تَحَلَّم كاذباً كُلِّف يوم القيامة أن يَعقِد بين شَعِيرتين ولن يَعقِد بينهما». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وعن عليّ عن النبي ﷺ قال:

[٣٦٦٧] «من كذب في حُلُمه كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعِيرة». قال: حديث حسن. قال ٱبن عباس: لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين؛ فقال لهما يوسف: مالي أراكما مكروبين؟ قالا: يا سيدنا! إنا رأينا ما كرهنا؛ قال: فقصّا عليّ، فقصّا عليه؛ قالا: نبئنا بتأويل ما رأينا؛ وهذا يدلّ على أنها كانت رؤيا منام. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ فإحسانه، أنه كان يعود المرضى ويداويهم، ويُعزِّي الحزانى؛ قال الضّحاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسّع له، وإذا احتاج جمع له، وسأل له. وقيل: «مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أي العالمين الذين أحسنوا العلم، قاله الفراء. وقال ٱبن إسحق: «مِن الْمُحْسِنِينَ» لنا إن فَسَّرته، كما يقول: افعل كذا وأنت محسن. قال: فما رأيتما؟ قال الخبّاز: رأيت كأني اختبزت في ثلاثة تنانير، وجعلته في ثلاث سلال، فوضعته على رأسي فجاء الطير فأكل منه. وقال الآخر: رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض، فعصرتهن في ثلاث أوان، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى، فذلك قوله: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً» أي عنباً، بلغة عُمان، قاله الضّحاك. وقرأ ٱبن مسعود: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنَباً». وقال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب فقال له: ما معك؟ قال: خمر. وقيل: معنى. «أَعْصِرُ خَمْراً» أي عنب خمر، فحذف

[٣٦٦٥] مضى برقم ٣٦٣٢.

[٣٦٦٦] صحيح. أخرجه أبو داود ٥٠٢٤ والترمذي ٢٢٨٣ والنسائي ٨/ ٢١٥ وصححه ابن حبان ٥٦٨٦ كلهم من حديث ابن عباس بأتم منه، وإسناده على شرط البخاري ومسلم، وقال الترمذي: حسن صحيح، وهو عند البخاري ٧٠٤٢ في أثناء حديث.

[٣٦٦٧] جيد. أخرجه الترمذي ٢٢٨١ و ٢٢٨٢ من حديث علي، وحسنه، وفيه عبد الأعلى الثعلبي صدوق يهم لكن يقويه الحديث المتقدم.

المضاف. ويقال: خَمْرة وخَمْر وخُمُور، مثل تمرة وتمر وتُمور. «قال» لهما يوسف: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ يعني لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ لتعلما أني أعلم تأويل رؤياكما، فقالا: أفعل! فقال لهما: يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال؛ وكان هذا من علم الغيب خُصّ به يوسف. وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملّة قوم لا يؤمنون بالله، يعني دين الملك. ومعنى الكلام عندي: العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله، فاسمعوا أوّلاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا، ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الآية كلها، على ما يأتي. وقيل: علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليَسْعَدا به. وقيل: إن يوسف كره أن يعبر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما، وأخذ في غيره فقال: «لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ» في النوم «إلاَّ نَبَّأْتُكُمَا» بتفسيره في اليقظة، قاله السُّديّ، فقالا له: هذا من فعل العَرّافين والكَهَنة، فقال لهما يوسف عليه السلام: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك مما علّمنيهِ ربّي، إني لا أخبركما به تكهُّناً وتنجيماً، بل هو بوحي من الله عزّ وجلّ. وقال ابن جُرَيج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معروفاً فأرسل به إليه، فالمعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة، فعلى هذا «تُرْزَقَانِه» أي يجري عليكما من جهة الملك أو غيره. ويحتمل يزرقكما الله. قال الحسن: كان يخبرهما بما غاب، كعيسى عليه السلام. وقيل: إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام، وجعل المعجزة التي يستدلان بها إخبارهما بالغيوب.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ لأنهم أنبياء على الحق. ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما ينبغي. ﴿لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ «مِنْ» للتأكيد، كقولك: ما جاءني من أحد. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى. ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك. وقيل: «ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا» إذ جَعَلنا أنبياء، «وَعَلَى النَّاسِ» إذا جَعَلَنا الرسلَ إليهم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ على نعمة التوحيد والإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي يا ساكني السجن؛ وذكر الصحبة لطول

مقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار. ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أي في الصغر والكبر والتوسط، أو متفرقون في العدد. ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ وقيل: الخطاب لهما ولأهل السّجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاماً للحجة؛ أي آلهة شَتَّى لا تضر ولا تنفع. «خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» الذي قهر كل شيء. نظيره: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾[النمل:٥٩] وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدّد الإله لتفرقوا في الإرادة ولعلا بعضهم على بعض، وبيّن أنها إذا تفرّقت لم تكن آلهة.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ بيّن عجز الأصنام وضعفها فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله إلا ذوات أسماء لا معاني لها. ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ من تلقاء أنفسكم. وقيل: عنى بالأسماء المسميات؛ أي ما تعبدون إلا أصناماً ليس لها من الإلٰهية شيء إلا الاسم؛ لأنها جمادات. وقال: «مَا تَعْبُدونَ» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشّرك. ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ فحذف المفعول الثاني للدلالة؛ والمعنى: سميتموها آلهةً من عند أنفسكم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ذلك في كتاب. قال سعيد بن جُبير: ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي من حجة. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذي هو خالق الكل. ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾. أي القويم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أي قال للساقي: إنك تُردّ على عملك الذي كنت عليه من سقي الملك بعد ثلاثة أيام، وقال للآخر: وأمّا أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك، قال: والله ما رأيتُ شيئاً؛ قال: رأيت أوَ لم تَرَ ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾. وحكى أهل اللغة أن سقى وأسقى لغتان بمعنًى واحد، كما قال الشاعر:

سَقَى قومي بَني مَجْدٍ وأَسْقَى نُمَيْراً والقبائلَ من هِلال

قال النحاس: الذي عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناوله فشرب، أو صبّ الماء في حلقه ومعنى أَسْقاه جعل له سُقْيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: ٢٧].

الثانية: قال علماؤنا: إن قيل من كذب في رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا: لا يلزمه؛ وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبيّ، وتعبير النبيّ حكم، وقد قال: إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقاً لنبوّته؛ فإن قيل: فقد رَوى عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قَتَادة قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني رأيتُ كأني أعْشَبْتُ ثم أجْدبتُ ثم أعْشبتُ ثم أجْدبتُ، فقال له عمر: أنت رجل تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافراً؛ فقال الرجل: ما رأيت شيئاً؛ فقال له عمر: قد قضي لك ما قضي لصاحب يوسف؛ قلنا: ليست لأحد بعد عمر؛ لأن عمر كان مُحَدَّثاً، وكان إذا ظن ظناً كان وإذا تكلم به وقع، على ما ورد في أخباره؛ وهي كثيرة؛ منها ـ أنه دخل عليه رجل فقال له: أظنك كاهناً فكان كما ظن؛ خرجه البخاريّ. ومنها ـ أنه سأل رجلاً عن ٱسمه فقال له فيه أسماء النار كلها، فقال له: أدرك أهلك فقد ٱحترقوا، فكان كما قال، خرجه الموطأ. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الحجر» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيقن، في قول أكثر المفسرين وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين؛ قال: إنما ظنّ يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنًّا وربك يخلق ما يشاء؛ والأوّل أصح وأشبه بحال الأنبياء وأن ما قاله للفتيين في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظنا في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء، فإن حكمهم حق كيفما وقع.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي سيّدك، وذلك معروف في اللغة أن يقال للسّيد ربّ؛ قال الأعشى:

رَبِّـي كـريـمٌ لا يُكَـدِّرُ نِعْمـةً ... وإذا تُنُوشِـدَ فـي المَهَـارِقِ أَنْشَـدَا

أي ٱذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنِّي مظلوم محبوسٌ بلا ذنب. وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

[٣٦٦٨] «لا يَقُلْ أحدُكم ٱسقِ ربَّك أطعمْ ربك وضِّئ ربَّك ولا يَقل أحدُكم ربِّي

[٣٦٦٨] صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٥٢ ومسلم ٢٢٤٩ وأحمد ٢/٤٤٤ وأبو يعلى ٦٥٠٦ من حديث أبي هريرة.

ولْيقل سيّدي مولاي ولا يقلْ أحدُكم عبدي أمَتي ولْيقلْ فَتايَ فَتَاتِي غلامي». وفي القرآن: «**اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ**». إلَى رَبِّكَ «إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» أي صاحبي؛ يعني العزيز. ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فهو رَبٌّ له. قال العلماء قوله عليه السلام: «لا يَقُلْ أحدُكم» «ولْيقلْ» من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرّم؛ ولأنه قد جاء عنه عليه السلام:

[٣٦٦٩] «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا» أي مالكها وسيّدها؛ وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ؛ فكان محل النهي في هذا الباب ألاّ نتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن. وقد قيل: إن قول الرجل عبدي وأمتي يجمع معنيين: أحدهما: أن العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى؛ ففي قول الواحد من الناس لمملوكه عبدي وأمتي تعظيم عليه، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه؛ وذلك غير جائز. والثاني: أن المملوك يدخله من ذلك شيء في ٱستصغاره بتلك التسمية، فيحمله ذلك على سوء الطاعة. وقال ابن شعبان في «الزاهي»: «لا يقل السّيد عبدي وأمتي ولا يقل المملوك ربّي ولا ربّتي» وهذا محمول على ما ذكرناه. وقيل: إنما قال ﷺ: «لا يقل العبد ربّي وليقل سيّدي» لأن الرب من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق؛ وٱختلف في السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح؛ إذ لا التباس ولا إشكال، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس في الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الرّب، فيحصل الفرق. وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون ذلك جائزاً في شرع يوسف عليه السلام.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ الضمير في «فَأَنْسَاهُ» فيه قولان: أحدهما: أنه عائد إلى يوسف عليه السلام، أي أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقي الملك ـ حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك ـ ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق؛ فعوقب باللّبث، قال عبد العزيز بن عُمير الكِنْديّ[1]: دخل جبريل على يوسف النبي عليه السلام في السجن فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذرين! مالي أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهر ابـن الطاهرين! يقرئك السلام رب العالمين ويقول: أما استحيت إذ ٱستغثت بالآدميين؟! وعزّتي! لألبثنّك في السجن بضع سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو عنّي راضٍ؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة.

[٣٦٦٩] هو بعض حديث سؤالات جبريل، وقد تقدم.

---

(١) هذا الأثر من الإسرائيليات.

ورُوي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطوّل سجنه، وقال له: يا يوسف! من خلّصك من القتل من أيدي إخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجبّ؟ قال: الله تعالى قال: فمن عَصَمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله؟ قال: يا رب كلمة زلّت مني! أسألك يا إله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني؛ فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين(١). ورَوى أبو سلَمة عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

[٣٦٧٠] «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن بضع سنين». وقال ابن عباس: عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لمّا قال للذي نجا منهما ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه. وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ:

[٣٦٧١] «لولا كلمة يوسف ـ يعني قوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ـ ما لبث في السجن ما لبث» قال: ثم يبكي الحسن ويقول: نحن ينزل بنا الأمر فنشكو(١) إلى الناس. وقيل: إن الهاء تعود على الناجي، فهو الناسي؛ أي أنسى الشيطانُ الساقي أن يذكر يوسف لربه، أي لسيده؛ وفيه حذف، أي أنساه الشيطانُ ذكره لربه؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال: لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن؛ إذ الناسي غير مؤاخذ. وأجاب أهل القول الأوّل بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب؛ ردّ عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ فدلّ على أن الناسي هو الساقي لا يوسف؛ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنة؟! قيل: أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلّغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً،

[٣٦٧٠] أخرجه ابن حبان ٦٢٠٦ من حديث أبي هريرة قال الحافظ ابن كثير في البداية ١/ ١٩٤: هو حديث منكر، ومحمد بن عمرو ينفرد بأشياء فيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها، والذي في الصحيحين يشهد بغلطها اهـ والذي في الصحيحين سيأتي قريباً.

[٣٦٧١] ضعيف. أخرجه الطبري ١٩٣٢١ عن الحسن مرسلاً. قال ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤٩٧: روي عن الحسن وقتادة مرسلاً، والمرسلات لا تقبل ههنا ولو قُبل المرسل في غير هذه المواطن، والله أعلم.

---

(١) هذا الأثر من الإسرائيليات.

وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال ﷺ:

[٣٦٧٢] «نسي آدم فنسيت ذريته». وقال:

[٣٦٧٣] «إنما أنا بشر أنسى كما تَنسون». وقد تقدم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝﴾ البِضع قطعة من الدّهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي زيد: يقال بَضْع وبِضْع بفتح الباء وكسرها، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهَرَوِيّ: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناهما القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العِقْد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه:

[٣٦٧٤] «وكم البضع» فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: «اذهب فزائدْ في الخَطَر». وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبيّ. قال الماورديّ: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقُطْرُب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعيّ. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزّجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفرّاء: والبضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاويل: أحدها: سبع سنين، قاله ابن جُرَيج وقتادة ووهب بن مُنَبِّه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني: اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث: أربع عشرة سنة، قاله الضحاك. وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال: مكث يوسف في السجن خمساً وبضعاً. واشتقاقه من بضعت الشيء أي قطعته، فهو القطعة من العدد، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله. قال وهب بن مُنَبِّه: حبس يوسف في السجن سبع سنين، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين، وعذّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبع سنين. وقال عبد الله بن راشد البصريّ عن سعيد بن أبي عَرُوبة: إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرة سنة.

الخامسة: في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلاً فإن الأمور بيد مُسبِّبها، ولكنه جعلها سلسلة، وركَّبَ بعضها على بعض، فتحريكها سنّة، والتعويل على المنتهى يقين. والذي يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى

[٣٦٧٢] تقدم تخريجه.

[٣٦٧٣] أخرجه البخاري ٤٠١ وغيره، وتقدم تخريجه.

[٣٦٧٤] يأتي في سورة الروم. وسببه مخاطرة أبي بكر للمشركين من سينتصر فارس أم الروم؟.

الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر؛ وهذا بيّن فتأمّلوه.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأس الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال: إن الله مخرجك من سجنك، ومُمكِّن لك في الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدّة، وجعلها آخراً بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الريّان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقراتٍ سِمان، في أثرهنّ سبع عِجاف ـ أي مهازيل ـ وقد أقبلت العِجَاف على السِّمان فأخذن بآذانهنّ فأكلنهنّ، إلا القرنين، ورأس سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهنّ حتى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات، وكذلك البقر كنّ عِجافاً فلم يزد فيهنّ شيء من أكلهنّ السِّمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكَهَانة والنِّجامة والعَرَافة والسِّحر، وأشراف قومه، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ ﴾ فقصّ عليهم، فقال القوم: ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ قال ابن جريج قال لي عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جُوَيبر عن الضّحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها الكاذبة. وقال الهَرَويّ: قوله تعالى: ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي أخلاط أحلام. والضِّغث في اللغة الحُزْمة من الشيء كالبقل والكلإ وما أشبههما، أي قالوا: ليست رؤياك ببيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث ما لا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: ﴿ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ حذفت الهاء من «سبع» فرقاً بين المذكر والمؤنث «سِمَانٍ» من نعت البقرات، ويجوز في غير القرآن سبعَ بقراتٍ سِماناً، نعت للسبع، وكذا خُضراً، قال الفراء: ومثله. ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [الملك: ٣]. وقد مضى في سورة «البقرة» اشتقاقها ومعناها. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: المَعِز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سماناً فهي سِنيّ رخاء، وإن كانت عجافاً كانت شداداً، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبّان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فِتَناً

مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما في الخبر «يشبه بعضها بعضاً»[1]. وفي خبر آخر في الفتن:

[٣٦٧٥] «كأنها صياصي[2] البقر» يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفْراً كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدوّ يضرب عليهم، وينزل بساحتهم. وقد تدلّ البقرة على الزوجة والخادم والغلّة والسَّنَة؛ لما يكون فيها من الولد والغلّة والنبات. ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ من عَجُف يَعجُف، على وزن عَظُم يَعظُم، وروي عَجِف يَعجَف على وزن حَمِد يَحمَد.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى: أي أخبروني بحكم هذه الرؤيا. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عَبَرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر، الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها. واللام في «للرؤيا» للتَّبيين، أي إن كنتم تَعبُرون، ثم بيّن فقال: للرؤيا، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ﴾ قال الفراء: ويجوز «أضغاثَ أحلام» قال النحاس: النصب بعيد، لأن المعنى: لم تر شيئاً له تأويل، إنما هي أضغاث أحلام، أي أخلاط. وواحد الأضغاث ضِغث، يقال لكل مختلط من بقل أوحشيش أو غيرهما ضِغث؛ قال الشاعر:

* كضِغث حُلْم غُرَّ منه حالِمُه *

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ قال الزجاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نَفَوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل. وقيل: نفوا عن أنفسهم علم التعبير. والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التي منها

[٣٦٧٥] أخرجه أحمد ١٩٨٣٩ و ١٩٨٤٠ و ١٩٨٤١ و ١٩٨٥٩ من طرق عدة عن مرة البهزي في حديث الفتن ومطلعه «ستكون فتن كصياصي البقر..» انظر الإصابة ٣/ ٤٠٢ برقم٧٩٠٧. ورجاله ثقات.

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢٨١١ من حديث حذيفة وفيه السفر بن نسير، وهو ضعيف لكن يشهد له ما بعده.

(٢) أي قرونها.

صحيحة ومنها باطلة، ولهذا قال الساقي: «أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بتَأْويلِهِ» فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل، لا أنهم آدّعوا ألاّ تأويل لها. وقيل: إنهم لم يقصدوا تفسيراً، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله، وعلى هذا أيضاً فعندهم علم. و«الأَحْلاَمِ» جمع حُلْم، والحُلْم بالضم مايراه النائم، تقول منه: حَلَم بالفتح وآحتلم، وتقول: حَلَمتُ بكذا وحَلَمته، قال:

فَحَلَمتُها وبَنُو رُفَيْدَةَ دُونَها لا يَبْعَدَنَّ خَيَالُها المَحْلُومُ

أصله الأناة، ومنه الحِلْم ضد الطَّيش؛ فقيل لما يُرى في النوم حُلْم لأن النوم حالة أناة وسكون وَدَعة.

الثانية: في الآية دليل على بطلان قول من يقول: إن الرؤيا على أوّل ما تعبّر، لأن القوم قالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ ولم تقع كذلك؛ فإن يوسف فسّرها على سِنِيّ الجدب والخِصب، فكان كما عبّر؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر، فإذا عبّرت وقعت.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ يعني ساقي الملك. ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾أي بعد حين، عن آبن عباس وغيره؛ ومنه ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] وأصله الجملة من الحين. وقال آبن دُرُسْتَويه[1]: والأُمّة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال ـ والله أعلم ـ: وادّكر بعد حين أمّةٍ، أو بعد زمن أمّة، وما أشبه ذلك؛ والأمّة الجماعة الكثيرة من الناس. قال الأخفش: هو في اللفظ واحد، وفي المعنى جمع؛ وكل جنس من الحيوان أمّة؛ وفي الحديث:

[٣٦٧٦] «لولا أن الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها».

[٣٦٧٦] صحيح. أخرجه أبو داود ٢٨٤٥ والترمذي ١٤٨٦ و ١٤٨٩ والنسائي ٧/ ١٨٥ وأحمد ٤/ ٨٥ وصححه ابن حبان ٥٦٥٦ و ٥٦٥٧ كلهم من حديث عبد الله بن المغفَّل وإسناده على شرط البخاري.

وأخرجه ابن حبان ٥٦٥٨ من حديث جابر وإسناده حسن.

---

(١) هو عبد الله بن جعفر بن دُرُسْتويه.

قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أي تذكر حاجة يوسف، وهي قوله: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» وقرأ ٱبن عباس ـ فيما روى عفّان عن همّام عن قَتادة عن عِكرمة عنه ـ «وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ». النحاس: والمعروف من قراءة ٱبن عباس وعِكرمة والضّحاك ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ﴾ ،بفتح الهمزة وتخفيف الميم؛ أي بعد نسيان؛ قال الشاعر:

أَمِهْتُ وكنتُ لاَ أَنْسَى حديثاً كذاكَ الدهرُ يُودِي بالعقولِ

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعي: «بعد أَمْهٍ» بفتح الألف وإسكان الميم وهاء خالصة؛ وهو مثل الأَمَه، وهما لغتان، ومعناهما النّسيان؛ ويقال: أَمِهَ يأمَهُ أَمَهاً إذا نَسيَ، فعلى هذا «وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أَمَه»؛ ذكره النحاس؛ ورجل أَمِهٌ ذاهب العقل. قال الجوهريّ: وأما ما في حديث الزهريّ «أَمِه» بمعنى أقرّ وٱعترف فهي لغة غير مشهورة. وقرأ الأشهب العُقَيْلي ـ «بَعْدَ إِمَّةٍ» أي بعد نعمة؛ أي بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة. ثم قيل: نسي الفتى يوسف لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مدة. وقيل: ما نسي، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذي بسببه حبس هو والخبّاز؛ فقوله: «وَٱدَّكَرَ» أي ذكر وأخبر. قال النحاس: أصل ٱدَّكَرَ ٱذْتَكَر؛ والذال قريبة المخرج من التاء؛ ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة، والتاء مهموسة، فلو أدغموا ذهب الجهر، فأبدلوا من موضع التاء حرفاً مجهوراً وهو الدال وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة؛ فصار ٱذْدَكَر، فأدغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها؛ ثم قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي أنا أخبركم. وقرأ الحسن «أَنَا آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» وقال: كيف ينبئهم العِلج[1]؟! قال النحاس: ومعنى: «أُنَبِّئُكُمْ» صحيح حسن؛ أي أنا أخبركم إذا سَألتُ. ﴿فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم، أو خاطب الملك وأهل مجلسه. ﴿يُوسُفُ﴾ نداء مفرد، وكذا ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي الكثير الصدق. ﴿أَفْتِنَا﴾ أي فأرسلوه، فجاء إلى يوسف فقال: أيها الصديق! وسأله عن رؤيا الملك. ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إلى الملك وأصحابه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ التعبير، أو لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» مكانك من الفضل والعلم فتخرج. ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيماً له.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسّرها له، فقال:

(١) العلج: الكافر من العجم.

السبع من البقرات السّمان والسّنبلات الخضر سبع سنين مخصِبات؛ وأما البقرات العِجاف والسّنبلات اليابسات فسبع سنين مجدِبات؛ فذلك قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي متوالية متتابعة؛ وهو مصدر على غير المصدر، لأن معنى «تَزْرَعُونَ» تدأبون كعادتكم في الزراعة سبع سنين. وقيل: هو حال؛ أي دائبين. وقيل: صفة لسبع سنين، أي دائبة. وحكى أبو حاتم عن يعقوب «دَأَباً» بتحريك الهمزة، وكذا روى حفص عن عاصم، وهما لغتان[1]، وفيه قولان، قول أبي حاتم: إنه من دَئِب. قال النحاس: ولا يعرف أهل اللغة إلا دَأَب. والقول الآخر: إنه حُرِّكَ لأن فيه حرفاً من حروف الحلق؛ قاله الفراء، قال: وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة، أو هاء، أو عيناً، أو غيناً، أو حاء، أو خاء؛ وأصله العادة؛ قال[2]:

* كدَأْبِكَ مِنْ أمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا *

وقد مضى في «آل عمران» القول فيه. ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ قيل: لئلا يتسوّس، وليكون أبقى؛ وهكذا الأمر في ديار مصر. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي ٱستخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة؛ وهذا القول منه أمر، والأول خبر. ويحتمل أن يكون الأول أيضاً أمراً، وإن كان الأظهر منه الخبر؛ فيكون معنى «تَزْرَعُونَ» أي ٱزرعوا.

الثانية: هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يُفوّت شيئاً منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه، ولا ٱستحقاق؛ هذا مذهب كافة المحقّقين من أهل السنّة أجمعين؛ وبسطه في أصول الفقه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني السّنين المجدِبات. ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مجاز،

---

(١) اللغتان: دأباً. بفتح الهمزة أو سكونها.

(٢) هو امرؤ القيس.

والمعنى يأكل أهلهنّ. ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي ما ادّخرتم لأجلهن؛ ونحوه قول القائل:

نهارُكَ يا مغرورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ   ولَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازمُ

والنهار لا يَسهو، والليل لا ينام؛ وإنما يُسهى في النهار، ويُنام في الليل. وحكى زيد بن أسلم عن أبيه: أن يوسف كان يضع طعام الاثنين فيقرِّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضه، حتى إذا كان يومٌ قَرَّبه له فأكله كلَّه؛ فقال يوسف: هذا أوّل يوم من السّبع الشداد. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء. ﴿مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي مما تحبسون لتزرعوا؛ لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات. وقال أبو عبيدة: تحرزون. وقال قتادة: «تُحْصِنُونَ» تدّخرون، والمعنى واحد؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة.

الثانية: هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تُخرّج على حسب ما رأى، لاسيما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آية لنبيّ، ومعجزة لرسول، وتصديقاً لمصطفى للتبليغ، وحجة للواسطة بين الله ـ جل جلاله ـ وبين عبادِه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن في رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله. قال قَتَادة: زاده الله عِلم سَنَة لم يسألوه عنها إظهاراً لفضله، وإعلاماً لمكانه من العلم وبمعرفته. ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الغوث؛ غَوَّثَ الرجل قال واغوثاه، والاسم الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث، واستغاثني فلان فأغثته، والاسم الغِياث؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها. والغيث المطر؛ وقد غاث الغيث الأرضَ أي أصابها؛ وغاث الله البلاَد يَغِيثها غَيْثاً، وغِيثَت الأرضُ تُغاث غَيْثاً، فهي أرض مَغِيثَة ومَغْيوثة؛ فمعنى «يُغَاث النَّاسُ» يُمطَرون. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ قال ابن عباس: يعصرون الأعناب والدُّهن؛ ذكره البخاريّ. وروى حجّاج عن ابن جُرَيج قال: يعصرون العنب خمراً والسّمسم دُهناً، والزيتون زيتاً. وقيل: أراد حلب الألبان لكثرتها؛ ويدلّ ذلك على كثرة النبات. وقيل: «يَعْصِرُونَ» أي يَنجُون؛ وهو من العُصْرة، وهي المَنْجَاة. قال أبو عبيدة: والعَصَر بالتحريك المَلْجأ والمَنْجاة، وكذلك العُصْرة؛ قال أبو زُبَيد:

صادِياً يَستغِيثُ غَيرَ مُغَاثٍ   ولقد كَانَ عُصْرَةَ المَنْجُودِ

والمَنجُودِ الفَزِع. واعتصرتُ بفلان وتَعصرتُ أي التجأت إليه. قال أبو الغوث: «يَعْصِرُونَ» يَسْتَغِلُّون؛ وهو من عصر العنب. واعتصرت ماله أي استخرجته من يده. وقرأ عيسى «تُعْصَرُونَ» بضم التاء وفتح الصاد، ومعناه تُمطَرون؛ من قول الله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ

﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ [النبأ: ١٤] وكذلك معنى «تُعصِرون» بضم التاء وكسر الصاد، فيمن قرأه كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾ أي فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: ائتوني به ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي يأمره بالخروج قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ أي حال النسوة. ﴿ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصحّ براءته عند الملك مما قُذِف به، وأنه حبس بلا جرم. وروى الترمذيّ عن أبي هُريرة قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٦٧٧] «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابـن الكريـم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ـ قال ـ ولو لبثتُ في السجن ما لَبِث ثم جاءني الرسول أجبتٍ ـ ثم قرأ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ـ قال ـ ورحمةُ الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد إذ قال ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠] فما بعث الله من بعده نبياً إلا في ذروة من قومه». وروى البخاريّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

[٣٦٧٨] «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وروي عن النبي ﷺ أنه قال:

[٣٦٧٩] «يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعيَ ولم ألتمس العُذْر». وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن

[٣٦٧٧] حسن. أخرجه الترمذي ٣١١٦ والطحاوي في المشكل (٣٣٠) والطبري ١٩٤٠٤ و ١٩٤٠٥ من حديث أبي هريرة، وحسنه الترمذي، وهو كما قال لأجل محمد بن عمرو، ويقويه مابعده.

[٣٦٧٨] صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٧٥ و ٣٣٨٧ و ٦٩٩٢ ومسلم ١٥١ ح ٢٣٨ وأحمد ٢/٣٢٢ وابن حبان ٦٢٠٧ و ٦٢٠٨ والطبري ١٩٤٠٦ من حديث أبي هريرة.

[٣٦٧٩] بهذا السياق. أخرجه الطبري ١٩٤٠٨ من حديث أبي هريرة، وفيه محمد بن عمرو.

القاسم صاحب مالك، في كتاب التفسير من صحيح البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان[1] غيره. وفي رواية الطّبريّ:

[٣٦٨٠] «يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إليّ لخرجت سريعاً أَنْ كان لحليماً ذا أناة». وقال ﷺ:

[٣٦٨١] «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب». قال ٱبن عطية: كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً، وطلباً لبراءة الساحة؛ وذلك أنه ـ فيما روي ـ خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون: هذا الذي راود ٱمرأة مولاه؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبيّن براءته، ويحقّق منزلته من العفّة والخير؛ وحينئذ يخرج للإِحْظَاءِ والمنزلة؛ فلهذا قال للرسول: ٱرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري هل سجنت بحق أو بظلم؛ ونكَب عن ٱمرأة العزيز حُسن عشرة، ورعاية لذِمام الملك العزيز له. فإن قيل: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي، له جهة أيضاً من الجودة؛ يقول: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرّضة لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة؛ فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور؛ وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة[2]، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربما نَتَجَ له البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك؛ فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلَدٌ.

قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ذكر النّساء جملة ليدخل فيهنّ امرأة العزيز

[٣٦٨٠] أخرجه الطبري ١٩٤٠٣ من حديث أبي هريرة، وفيه راوٍ لم يُسمَّ، فالخبر ضعيف بهذا السياق.
[٣٦٨١] ضعيف. أخرجه الطبري ١٩٤١٠ عن عكرمة مرسلاً. والمعتمد في هذا الباب ما رواه البخاري ومسلم وتقدم.

---

(١) مراده بالديوان: صحيح البخاري.
(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب «كالتاركِ».

مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح؛ وذلك حُسن عشرة وأدب؛ وفي الكلام محذوف، أي فاسأله أن يتعرّف ما بال النّسوة. قال آبن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز ـ وكان قد مات العزيز ـ فدعاهنّ فـ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي ما شأنكنّ. ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلمت يوسف في حق نفسها، على ما تقدّم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت آمرأة العزيز، فكان ذلك مراودة منهنّ. ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي زنًى. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ لما رأت إقرارهنّ ببراءة يوسف، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرّت هي أيضاً؛ وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف. و«حَصْحَصَ الْحَقُّ» أي تبيّن وظهر؛ وأصله حَصَصَ، فقيل: حَصْحَصَ؛ كما قال: كُبْكِبُوا في كببوا، وكفكف في كفف؛ قاله الزجاج وغيره. وأصل الحَصّ آستئصال الشيء؛ يقال: حصَّ شعره إذا آستأصله جَزًّا؛ قال أبو القيس بن الأسْلَت:

قـد حَصّـتِ البيْضَـةُ رأسِـي فَمَـا ... أطْعَـمُ نـومـاً غيـرَ تَهْجـاعِ[1]

وسَنَةٌ حصّاء أي جرداء لا خير فيها، قال جَرير:

يـأوِي إليكـم بـلاَ مَـنٍّ ولا جَحَـدٍ ... مَن ساقه السَّنةُ الحَصَّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول: والضّبع[2]، وهي السنة المجدبة؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية؛ فمعنى «حَصْحَص الْحَقُّ» أي آنقطع عن الباطل بظهوره وثباته؛ قال:

ألاَ مُبْلِـغٌ عنِّـي خِـدَاشـاً فـإنَّـهُ ... كذوبٌ إذا ما حَصْحَصَ الحقُّ ظالمُ

وقيل: هو مشتق من الحِصّة؛ فالمعنى بانت حِصّة الحق من حصّة الباطل. وقال مجاهد وقتَادة: وأصله مأخوذ من قولهم؛ حَصَّ شَعْره إذا استأصل قطعه؛ ومنه الحصَّة من الأرض إذا قطعت منها. والحِصْحِص بالكسر التراب والحجارة؛ ذكره الجوهري. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ وهذا القول منها ـ وإن لم يكن سأل عنه ـ إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفساً ظنٌّ، ولا يخالطها شك. وشدّدت النون في «خَطْبُكُنَّ» و«رَاوَدْتُنَّ» لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ

---

(١) البيضة: الخوذة. والتهجاع: النومة الخفيفة.

(٢) الضَّبُعُ: كرَجُل ـ السنة المجدبة اهـ قاموس.

نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ آختلف فيمن قاله، فقيل: هو من قول آمرأة العزيز، وهو متصل بقولها: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي أقررتُ بالصدق ليعلم أني لم أخنه بالغيب أي بالكذب عليه، ولم أذكره بسوء وهو غائب، بل صدقت وحدت عن الخيانة؛ ثم قالت: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ بل أنا راودته؛ وعلى هذا هي كانت مقرّة بالصانع، ولهذا قالت: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾. وقيل: هو من قول يوسف؛ أي قال يوسف: ذلك الأمر الذي فعلته، من رد الرسول «لِيَعْلَمَ» العزيز «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» قاله الحسن وقَتَادة وغيرهما. ومعنى «بالغيب» وهو غائب. وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك، وقال: «لِيَعْلَمَ» على الغائب توقيراً للملك. وقيل: قاله إذ عاد إليه الرسول وهو في السجن بعدُ؛ قال آبن عباس: جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه؛ فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي لم أَخُنْ سيّدي بالغيب؛ فقال له جبريل عليه السلام: يا يوسف! ولا حين حَلَلْت الإزار[1]، وجلست مجلس الرجل من المرأة؟! فقال يوسف: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ الآية. وقال السّديّ: إنما قالت له آمرأة العزيز ولا حين حَلَلْتَ سراويلك يا يوسف؟! فقال يوسف: «وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي». وقيل: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ» من قول العزيز؛ أي ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، وأني لم أغفل عن مجازاته على أمانته. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ معناه أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ قيل: هو من قول المرأة. وقال القُشَيْرِيّ: فالظاهر أن قوله: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ» وقوله: «وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي» من قول يوسف.

قلت: إذا آحتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرّىء يوسف من حَلّ الإزار والسّراويل؛ وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه، على ما قدّمناه من القول المختار في قوله: «وَهَمَّ بِهَا». قال أبو بكر الأنباريّ: من الناس من يقول: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» إلى قوله: «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» من كلام آمرأة العزيز؛ لأنه متصل بقولها: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا[2] مذهب الذين ينفون الهمّ عن يوسف عليه السلام؛ فمن بنى على قولهم قال: من قوله: «قَالَتِ آمْرَأَةُ الْعَزِيزِ»

(١) لايصح هذا الأثر عن ابن عباس، وإنما هو من الإسرائيليات، ولا يليق بنبي الله يوسف مثل هذا وانظر ابن كثير ٢/ ٤٩٩.

(٢) وهو الحق، وما سواه باطل.

إلى قوله: «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» كلام متصل بعضه ببعض، ولا يكون فيه وقف تام على حقيقة؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه. وقال الحسن: لما قال يوسف: «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» كره نبيّ الله أن يكون قد زكّى نفسه فقال: «وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي» لأنّ تزكية النفس مذمومة؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] وقد بيّناه في «النساء». وقيل: هو من قول العزيز؛ أي وما أبرىء نفسي من سوء الظن بيوسف. ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي مشتهية له. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ في موضع نصب بالاستثناء؛ و«ما» بمعنى مَنْ؛ أي إلا مَن رحم ربي فعصمه؛ و«ما» بمعنى من كثير؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] وهو ٱستثناء منقطع، لأنه ٱستثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء؛ وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال:

[٣٦٨٢] «ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية» قالوا: يا رسول الله! هذا شرّ صاحب في الأرض. قال: «فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم».

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ لما ثبت للملك براءته مما نُسب إليه؛ وتحقّق في القصة أمانته، وفهم أيضاً صبره وجَلَده عظمت منزلته عنده، وتيقّن حسن خلاله قال: «ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي» فانظر إلى قول الملك أولاً ـ حين تحقق علمه ـ «ٱئْتُونِي بِهِ» فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانياً قال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ ورُوي عن وهب بن منبّه قال: لما دُعي يوسف وقف بالباب فقال: حسبي ربّي من خلقه، عزّ جاره وجلّ ثناؤه ولا إله غيره. ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرّ له ساجداً؛ ثم أقعده الملك معه على سريره فقال: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ». «قَالَ» له يوسف: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ» للخزائن «عَلِيمٌ» بوجوه تصرفاتها. وقيل: حافظ للحساب، عليم بالألسن. وفي الخبر:

[٣٦٨٣] «يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل ٱجعلني على خزائن الأرض لاستعمله

[٣٦٨٢] لم أجده وهو غريب.

[٣٦٨٣] باطل. ذكره الزمخشري في كشافه ٢/٤٨٢ فقال ابن حجر في تخريجه: أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس وهو من رواية إسحق بن بشر عن جويبر عن الضحاك، وهذا إسناد ساقط اهـ اسحق وجويبر كلاهما متهم بالكذب.

من ساعته ولكن أخَّر ذلك سنة». وقيل: إنما تأخر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله. وقد قيل في هذه القصة: إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعربية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان عَمِّي إسمعيل، ثم دعا لـه بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما تكلـم الملـك بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك أمره، وكان يوسف إذ ذاك آبن ثلاثين سنة؛ ثم أجلسه على سريره وقال: أحب أن أسمع منك رؤياي، قال يوسف: نعم أيها الملك! رأيتَ سبع بقرات سِمانٍ شُهْباً غُرًّا حساناً، كشف لك عنهن النِّيل فطلعن عليك من شاطئه تَشخُب أخلافها لبناً؛ فبينا أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَب النِّيل فغار ماؤه، وبدا أُسُّه، فخرج من حَمَئه وَوَحَله سبع بقرات عِجاف شُعْث غُبْر مُقَلَّصات البطون، ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف، لهنّ أنياب وأضراس، وأكفّ كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع، فاختلطن بالسِّمان فافترسنهنّ آفتراس السّباع، فأكلن لحومهنّ، ومزّقن جلودهنّ، وحطّمن عظامهنّ، ومشمشن مخّهنّ؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل! ثم لم يظهر منهنّ سِمَن ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماء، وإلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد، عروقهنّ في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أي شيء هذا؟! هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهن في الماء، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النار فأحرقتهنّ؛ فصرن سوداً مغبرات؛ فانتبهتَ مذعوراً أيها الملك؛ فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجباً بأعجب مما سمعتُ منك! فما ترى في رؤياي أيها الصدّيق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مَدَر لنبت، وأظهر الله فيه النّماء والبركة، ثم ترفع الزرع في قصبه وسنبله تبني له المخازن العظام؛ فيكون القصب والسّنبل عَلَفاً للدواب، وحبه للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهْرَائك[1] الخُمْس؛ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك؛ فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعاً ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء؛ فقال يوسف عليه السلام عنـد ذلـك: «ٱجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ» أي على خزائن أرضك؛

(١) هو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان.

وهي جمع خِزانة؛ ودخلت الألف واللام عوضاً من الإضافة، كقول النابغة:

لَهُمْ شِيمَةٌ لم يُعْطِهَا الله غَيْرَهُمْ   مِنَ الجُودِ والأَحْلَامِ غَيْرُ كَوَاذِبِ

قوله تعالى: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدلّ على أن قوله: «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» جَرَى في السّجن. ويحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال في مجلس آخر: «ٱئْتُونِي بِهِ» تأكيداً «أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي» أي أجعله خالصاً لنفسي، أفوّض إليه أمر مملكتي؛ فذهبوا فجاؤوا به؛ ودلّ على هذا ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي كلّم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف؛ فـ﴿قَالَ﴾ الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي متمكن نافذ القول، «أَمِينٌ» لا تخاف غدراً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول: مصر خِزَانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله: «ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ» أي على حفظها، فحذف المضاف. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما وُلّيت ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ بأمره. وفي التفسير: إني حاسب كاتب؛ وأنه أوّل من كتب في القراطيس. وقيل: «حَفِيظٌ» لتقدير الأقوات «عَلِيمٌ» بسنيّ المجاعات. قال جُويبر عن الضّحّاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ٱجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك عنه سنة»[1]. قال ابن عباس: لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجّه وردّاه[2] بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب، مكلّلاً بالدرّ والياقوت، وضرب عليه حُلّة من إسْتَبرق؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مِرْفَقة[3]، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوّجاً، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوّض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه. قال ابن زيد[4]: كان لفرعون ملك مصر خزائن

---

(١) تقدم في الذي قبله وأنه باطل.

(٢) أي قلده به.

(٣) المِرفقة: المخدة والمكتكأ.

(٤) ابن زيد هو عبد الرحمن يروي الإسرائيليات.

كثيرة غير الطعام، فسلّم سلطانه كلّه إليه، وهلك قطفير تلك الليالي، فزوّج الملك يوسف راعيل ٱمرأة العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟! فقالت: أيها الصدّيق لا تلمني؛ فإني كنت ٱمرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتني نفسي. فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين: إفراثيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف. وقال وهب بن منبّه[1]: إنما كان تزويجه زليخاء ٱمرأة العزيز بين دخلتي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف في السجن، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف، فصارت تَتَكفّف الناس؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها، وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زُهَاء مائة ألف من عظماء قومه، فقيل لها: لو تعرّضت له لعله يسعفك بشيء؛ ثم قيل لها: لا تفعلي، فربما ذكربعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك، فقالت: أنا أعلم بخُلُق حبيبي منكم، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه، قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم، فقال يوسف: ما هذه؟ فأتوا بها؛ فقالت: أنا التي كنت أخدمك على صدور قدميّ، وأُرَجِّل جُمَّتك بيديّ، وتربيت في بيتي، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلي وعُتوّي فذقت وبال أمري، فذهب مالي، وتضعضع ركني، وطال ذلّي، وعَمِي بصري، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم، أتكفّف الناس، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين؛ فبكى يوسف بكاء شديداً، ثم قال لها: هل بقيت تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئاً؟ فقالت: والله لنظرة إلى وجهك أحب إليّ من الدنيا بحذافيرها، لكن ناولني صدر سوطك، فناولها فوضعته على صدرها، فوجد للسوط في يده ٱضطراباً وارتعاشاً من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولاً: إن كنتِ أَيِّماً تزوّجناك، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك، فقالت للرّسول: أعوذ بالله أن يستهزىء بي الملك! لم يُرِدْني أيام شبابي وغناي ومالي وعزّي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسول بمقالتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرّضت له، فقال لها: ألم يبلّغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيئت، ثم زُفّت إليه، فقام يوسف يصلّي ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكراماً ليوسف عليه السلام لمّا عَفَّ عن محارم الله، فأصابها فإذا هي عذراء، فسألها؛ فقالت: يا نبيّ الله

(١) وهب بن منبه يروي عن كتب الأقدمين، والخبر بطوله من الإسرائيليات.

إن زوجي كان عِنِّيناً لا يأتي النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف؛ قال: فعاشا في خَفْض عيش، في كل يوم يجدّد الله لهما خيراً، وولدت له ولدين، إفرائيم ومنشا. وفيما روي أن الله تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها، فقال لها: ما شأنك لا تحبينني كما كنت في أوّل مرة؟ فقالت لـه: لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء.

الثانية: قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليومَ غيرُ جائز؛ والأوّل أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم. قال الماورديّ: فإن كان المولِّي ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين: أحدهما: جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلِّي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره. الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتقلّد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين: أحدهما: أن فرعون يوسف كان صالحاً، وإنما الطاغي فرعون موسى. الثاني: أنه نظر في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه. قال الماورديّ: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام: أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرّد أربابه به قد أغنى عن التقليد. والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفرّدوا به ويلزم الاجتهاد في مَصْرِفه كأموال الفيء، فلا يجوز تولّيه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق. والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذاً للحكم بين متراضيين، وتوسطاً بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز.

الثالثة: ودلّت الآية أيضاً على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً؛ فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: قال لي رسول الله ﷺ:

[٣٦٨٤] «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلْت إليها

[٣٦٨٤] صحيح. أخرجه البخاري ٧١٤٦ و٧١٤٧ ومسلم ١٦٥٢ وأحمد ٥/ ٦٢ والدارمي ٢/ ١٨٦ وابن حبان ٤٣٤٨ من حديث عبد الرحمن بن سَمُرَة.

وإن أُعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها». وعن أبي بُرْدة قال: قال أبو موسى: أقبلت إلى النبيّ ﷺ ومعي رجلان من الأشعريّين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي ﷺ يستاك، فقال:

[٣٦٨٥] «ما تقول يا أبا موسى ـ أو يا عبد الله بن قيس ـ» قال: قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سِواكه تحتِ شفته وقد قلصت[1]، فقال: «لن ـ أو ـ لا نستعمل على عملنا من أراده» وذكر الحديث؛ خرجه مسلم أيضاً وغيره؛ فالجواب: أوّلاً: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعيّن ذلك عليه، ووجب أن يتولاّها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألاّ يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن: «لا تسأل الإمارة» وأيضاً فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليلاً [2] على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام: «وكِل إليها» ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فَرّ منها، ثم إن ابتلى بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: «أعِينَ عليها». الثاني: أنه لم يَقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم»[3] ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: «﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾» فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال. الثالث: إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنىٰ من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] الرابع: أنه رأىٰ ذلك فرضاً متعيناً عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم. الرابعة: ودلّت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل؛ قال الماورديّ: وليس هذا

[٣٦٨٥] صحيح. أخرجه البخاري ٧١٤٩ ومسلم ٣/١٤٥٦ ح ١٤ وابن حبان ٤٤٨١ من حديث أبي موسى.

---

(١) أي انقبضت وانزوت.

(٢) في الأصل «دليل» مع أنه اسم إنّ، فالمثبت هو الصواب.

(٣) تقدم برقم ٣٦٧٧ وهو صحيح.

على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظَّفر بأهله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبه إلى قلب الملك، وإنجائه من السجن مكنا له في الأرض؛ أي أقدرناه على ما يريد. وقال الكِيَا الطَّبَري قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دليل على إجازة الحيلة في التوصّل إلى المباح، وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [صَ: ٤٤] وحديث أبي سعيد الخُدْرِيّ في عامل خَيْبَر، والذي أدّاه من التَّمْر إلى رسول الله ﷺ، وما قاله[1].

قلت: وهذا مردود على ما يأتي. يقال: مَكّناه ومكّنا له، قال الله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦]. قال الطَّبريّ: استخلف الملك الأكبر الوليد بن الريّان يوسف على عمل إطفير وعَزَله؛ قال مجاهد: وأسلم على يديه. قال ابن عباس: ملّكه بعد سنة ونصف. وروى مقاتل أن النبي ﷺ قال:

[٣٦٨٦] «لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله لَمُلِّك في وقته». ثم مات إطفير فزوّجه الوليد بزوجة إطفير راعيل، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفراثيم ومنشا، ابني يوسف، ومن زعم أنها زَلِيخَاء قال: لم يتزوّجها يوسف، وأنها لما رأته في موكبه بكت، ثم قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك عبيداً بالمعصية، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكاً، فضمّها إليه، فكانت من عياله حتى ماتت

[٣٦٨٦] تقدم برقم ٣٦٨٣ وأنه باطل.

---

(١) هو عند البخاري ٤٢٤٤ و ٤٢٤٥ عن أبي سعيد وأبي هريرة «أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر فجاءه بتمر جنيب، فقال: كل تمر خيبر هكذا؟ قال: لا. إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة. قال: لاتفعل. بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيباً» الجنيب التمر الممتاز. والجمع: هو خليط غير مرغوب فيه.

عنده، ولم يتزوّجها؛ ذكره الماورديّ؛ وهو خلاف ما تقدّم عن وهب، وذكره الثعلبيّ؛ فالله أعلم. ولما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل، فأحبّه الرجال والنساء، قال وهب والسُّديّ وابن عباس وغيرهم: ثم دخلت السنون المخصبة، فأمر يوسف بإصلاح المزارع، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة، فلما أدركت الغَلّة أمر بها فجمعت، ثم بنى لها الأَهْرَاءَ، فجمعت فيها في تلك السنة غَلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثم جمع عليه غلّة كل سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة نزل جبريل وقال: يا أهل مصر جوعوا؛ فإن الله سلّط عليكم الجوع سبع سنين. وقال بعض أهل الحكمة: للجوع والقحط علامتان: إحداهما: أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية. والثانية: أن يفقد الطعام فلا يوجد رأساً ويعزّ إلى الغاية، فٱجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع!! ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك، ينادي الجوع الجوع!! قال: فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلها؛ معاشر الناس! لا يزرع أحد زرعاً فيضيع البذر ولا يطلع شيء. وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف؛ قال ٱبن عباس: لما كان ابتداء القحط بينا الملك في جوف الليل أصابه الجوع في نصف الليل، فهتف الملك يا يوسف! الجوع الجوع!! فقال يوسف: هذا أوان القحط؛ فلما دخلت أوّل سنة من سنيّ القحط هلك فيها كل شيء أعدّوه في السنين المخصِبة، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف؛ فباعهم أوّل سنة بالنقود، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه؛ وباعهم في السنة الثانية بالحليّ والجواهر، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء؛ وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب، حتى ٱحتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى ٱحتوى على الكل؛ وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضيّاع، حتى ملكها كلها؛ وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعاً وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبق في السنة السابعة بمصر حر ولا عبد إلا صار عبداً له؛ فقال الناس: والله ما رأينا ملكاً أجلّ ولا أعظم من هذا؛ فقال يوسف لملك مصر: كيف رأيت صنع ربي فيما خَوّلني! والآن كل هذا لك، فما ترى فيه؟ فقال: فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت، وإنما نحن لك تبع؛ وما أنا بالذي يستنكف عن عبادتك وطاعتك، ولا أنا إلا من بعض مماليكك، وخَوَل من خَوَلك؛ فقال يوسف عليه السلام: إني لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم، ولم أُجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء؛ وإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت

أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستنّ بسنّتي. ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع؛ وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار، حتى يذوق الملك طعم الجوع، فلا ينسى الجائعين؛ فمن ثَمَّ جعل الملوك غذاءهم نصف النهار.

قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي بإحساننا؛ والرحمة النعمة والإحسان. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ أي ثوابهم. وقال ٱبن عباس ووهب: يعني الصابرين؛ لصبره في الجبّ، وفي الرقّ، وفي السِّجن، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة. وقال الماورديّ: وٱختلف فيما أوتيه يوسف من هذه الحال على قولين: أحدهما: أنه ثواب من الله تعالى على ما ٱبتلاه. الثاني: أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلاً منه عليه، وثوابه باق على حاله في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متّق؛ وأنشدوا:

أَمَا في رسول الله يوسف أُسْوَةٌ ... لمثلك محبوساً على الظُّلَم والإِفْكِ

أقامَ جَميلَ الصّبر في الحبس بُرهة ... فآل به الصّبرُ الجميلُ إلى المُلْك

وكتب بعضهم إلى صديق له:

وراء مَضيقِ الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ ... وأوّل مفروحٍ به آخرُ الحزنِ

فلا تَيأَسَنْ فالله مَلَّكَ يوسفَا ... خزائنَه بعد الخلاصِ من السِّجنِ

وأنشد بعضهم:

إذا الحادثاتُ بَلَغْنَ النُّهَى ... وَكادت تَذُوبُ لَهُنَّ المُهَجْ

وحَلَّ البلاءُ وقَلَّ العَزَاء ... فعند التَّناهِي يكونُ الفَرَجْ

والشعر في هذا المعنى كثير.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أي جاؤوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا؛ وهذا من ٱختصار القرآن المعجز. قال ٱبن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدّة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده لِلْميرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف

عليه السلام حين نزلت الشدّة بالناس يجلس للناس عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وَسْقاً. ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ لأنهم خلّفوه صبياً، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة، مع طول المدّة؛ وهي أربعون سنة. وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر. وقيل: رأوه لابس حرير، وفي عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تزيّا بزيّ فرعون مصر؛ ويوسف رآهم على ما كان عهدهم في الملبس والحلية. ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه. وقيل: أنكروه لأمر خارق ٱمتحاناً ٱمتحن الله به يعقوب.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يقال جَهَّزتُ القوم تَجهيزاً أي تكلّفت لهم بجَهازهم للسفر؛ وجهاز العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزّوج؛ وجوّز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم؛ والجهاز في هذه الآية الطعام الذي ٱمتاروه من عنده. قال السّديّ: وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيراً، وهم عشرة، فقالوا ليوسف: إنّ لنا أخاً تخلّف عنا، وبعيره معنا؛ فسألهم لِمَ تخلف؟ فقالوا: لحبّ أبيه إياه، وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه فخرج إلى البريّة-فهلَكَ؛ فقال لهم: أردت أن أرى أخاكم هذا الذي ذكرتم، لأعلم وجه محبة أبيكم إيّاه، وأعلم صدقكم؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة، حتى يأتوا بأخيه بنيامين. وقال ابن عباس قال يوسف للترجمان قل لهم: لغتكم مخالفة للغتنا، وزيّكم مخالف لزيّنا، فلعلكم جواسيس؛ فقالوا: والله! ما نحن بجواسيس، بل نحن بَنُو أبٍ واحد، فهو شيخ صدّيق؛ قال: فكم عِدّتكم؟ قالوا: كنا ٱثني عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها؛ قال: فأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا؛ قال: فمن يعلم صدقكم؟ قالوا: لا يعرفنا هاهنا أحد، وقد عرفناك أنسابنا، فبأي شيء تسكن نفسك إلينا؟ فقال يوسف: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إن كنتم صادقين؛ فأنا أرضى بذلك ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتمّه ولا أبخسه، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ توعدهم ألاّ يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أنه رخّص لهم في السعر فصار زيادة في الكيل. والثاني: أنه كال لهم بمكيال واف. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ

﴿ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم؛ قاله مجاهد. الثاني: وهو محتمل؛ أي خير من نزلتم عليه من المأمونين؛ وهو على التأويل الأوّل مأخوذ من النُّزْل وهو الطعام، وعلى الثاني من المنزل وهو الدار.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ أي فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد، لأنه قد وفّاهم كيلهم في هذه الحال. ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾ أي لا أنزلكم عندي منزلة القريب، ولم يرد أنهم يبعدون منه ولا يعودون إليه؛ لأنه على العَود حَثّهم. قال السُّديّ: وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا؛ فارتهن شمعون عنده؛ قال الكَلْبِيّ: إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الجبّ أجملهم قولاً، وأحسنهم رأياً. و«تَقْرَبُونِ» في موضع جزم بالنهي، فلذلك حذفت منه النون وحذفت الياء؛ لأنه رأس آية؛ ولو كان خبراً لكان «تقربون» بفتح النون.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي سنطلبه منه، ونسأله أن يرسله معنا. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾ أي لضامنون المجيء به، ومحتالون في ذلك.

مسألة: إن قيل: كيف ٱستجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ قيل له: عن هذا أربعة أجوبة: أحدها: يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ٱبتلاء ليعقوب، ليعظم له الثواب؛ فاتبع أمره فيه. الثاني: يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام. الثالث: لتتضاعف المسرّة ليعقوب برجوع ولديه عليه. الرابع: ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته؛ لميل كان منه إليه؛ والأوّل أظهر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم؛ وهي ٱختيار أبي حاتم والنحاس وغيرهما. وقرأ سائر الكوفيين «لِفِتْيَانِهِ» وهو ٱختيار أبي عبيد؛ وقال: هو في مصحف عبد الله كذلك. قال الثعلبي: وهما لغتان جيدتان؛ مثل الصبيان والصبية قال النحاس: «لِفِتْيَانِهِ» مخالف للسواد الأعظم؛ لأنه في السواد لا ألف فيه ولا نون، ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع؛ وأيضاً فإن فتية أشبه من فتيان؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه. وكان هؤلاء الفتية يسوّون جهازهم، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم في رحالهم. ويجوز أن يكونوا أحراراً، وكانوا أعواناً له، وبضاعتهم أثمان ما ٱشتروه من الطعام. وقيل: كانت

دراهم ودنانير. وقال ٱبن عباس: النعال والأدم ومتاع المسافر، ويسمى رَحْلاً؛ قال ٱبن الأنباريّ: يقال للوعاء رَحْل، وللبيت رَحْل. وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لجواز ألاّ تسلم في الطريق. وقيل: إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه. قيل: ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام. وقيل: ٱستقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام. وقيل: ليروا فضله، ويرغبوا في الرجوع إليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ لأنه قال لهم: «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي» وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامه إياهم، وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي قالوا عند ذلك: «فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ» والأصل نكتال؛ فحذفت الضمة من اللام للجزم، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين. وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم «نَكْتَلْ» بالنون وقرأ سائر الكوفيين «يكتل» بالياء؛ والأوّل ٱختيار أبي عبيد، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده. قال النحاس: وهذا لا يلزم؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين؛ أن يكون المعنى: فأرسل أخانا يكتل معنا؛ فيكون للجميع، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير؛ فيكون في الكلام دليل على الجميع، لقوله: «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي». ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ من أن يناله سوء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي قد فرطتم في يوسف فكيف آمنكم على أخيه!. ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا﴾ نصب على البيان، وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم. وقرأ سائر الكوفيين «حَافِظاً» على الحال. وقال الزّجاج: على البيان؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم؛ ومعنى الآية: حفظ الله له خير من حفظكم إياه. قال كعب الأحبار: لما قال يعقوب: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً» قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأردّنّ عليك ٱبنيك كليهما بعدما توكّلت عليّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ الآية ليس فيها معنى يشكل. ﴿مَا نَبْغِى﴾ «ما» ٱستفهام في موضع نصب؛ والمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا؟! وفّى لنا الكيل، وردّ

علينا الثمن؛ أرادوا بذلك أن يُطيّبوا نفس أبيهم. وقيل: هي نافية؛ أي لا نبغي منك دراهم ولا بضاعة، بل تكفينا بضاعتنا هذه التي ردّت إلينا. ورُوي عن عَلْقَمة «رِدّتْ إِلَيْنَا» بكسر الراء؛ لأن الأصل ردِدت؛ فلما أدغم قلبت حركة الدال على الراء. وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب لهم الطعام؛ قال الشاعر:

بَعَثْتُكَ مائِراً فمكَثْتَ حَوْلاً ... مَتَى يأتِي غِيَاثُكَ مَن تُغِيثُ

وقرأ السُّلَميّ بضم النون، أي نعينهم على المِيرة. ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ أي حِمْل بعير لبنيامين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تُؤْتُونِ﴾ أي تعطوني. ﴿مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ قال السدّي: حلفوا بالله ليردّنه إليه ولا يُسلمونه؛ واللام في ﴿لَتَأْتُنَّنِي﴾ لام القسم. ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال مجاهد: إلا أن تَهْلِكوا أو تموتوا. وقال قتادة: إلا أن تُغلبوا عليه. قال الزجاج: وهو في موضع نصب. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ أي حافظ للحلف. وقيل: حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل.

الثانية: هذه الآية أصل في جواز الحَمَالة[1] بالعين والوثيقة بالنفس؛ وقد اختلف العلماء في ذلك؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء: هي جائزة إذا كان المتحمَّل به مالاً. وقد ضعّف الشافعي الحَمَالة بالوجه في المال؛ وله قول كقول مالك. وقال عثمان البَتّي: إذا تكفّل بنفس في قصاص أو جراح فإنه إن لم يجيء به لزمه الدية وأَرْش الجراح، وكانت له في مال الجاني، إذ لا قصاص على الكفيل؛ فهذه ثلاثة أقوال في الحمالة بالوجه. والصواب تفرقة مالك في ذلك، وأنها تكون في المال، ولا تكون في حدّ أو تعزير، على ما يأتي بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى: لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من

(١) الحمالة: الكفالة.

باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرَجُل واحد؛ وكانوا أهل جَمال وكمال وبَسْطة؛ قاله ابن عباس والضّحاك وقَتَادة وغيرهم.

الثانية: إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرّز من العين، والعين حق؛ وقد قال رسول الله ﷺ:

[٣٦٨٧] «إن العين لتدخِل الرجل القبر والجمل القِدر». وفي تعوّذه عليه السلام:

[٣٦٨٨] «أعوذ بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة» ما يدلّ على ذلك. وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف أنه سمع أباه يقول:

[٣٦٨٩] اغتسل أبي سهل بن حُنيف بالخرّار[١] فنزع جُبّة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد قال فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم ولا جلد عَذْراء! فوُعك سهل مكانه واشتدّ وَعْكه، فأُتي رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلاً وُعِك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله؛ فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله ﷺ:

«عَلاَمَ يقتل أحدكم أخاه أَلاَ بَرَّكْت[٢] إنَّ العين حق تَوضأْ له» فتوضأ عامر، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس؛ في رواية «اْغتسلْ» فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ثم صبّ عليه؛ فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس[٣]. وركب سعد بن أبي وَقّاص يوماً فنظرت إليه اْمرأة فقالت:

[٣٦٨٧] ضعيف بهذا اللفظ. أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٩٠ والخطيب ٩/ ٢٤٤ من حديث جابر، قال الذهبي في ترجمة شعيب بن أيوب: هذا حديث منكر اهـ وأشار السخاوي لضعفه انظر المقاصد ٧٢٦. وهو عند البخاري ٥٧٤٠ ومسلم ٢١٨٧ من حديث أبي هريرة «العين حق» ليس فيه تلك الزيادة.

[٣٦٨٨] صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٧١ والنسائي في اليوم والليلة ١٠٠٦ وابن ماجه ٣٥٢٥ من حديث ابن عباس.

[٣٦٨٩] أخرجه مالك ٢/ ٩٣٩ وعبد الرزاق ١٩٧٦٦ وابن أبي شيبة ٨/ ٥٨ وأحمد ٤/ ٣٨٦ وصححه ابن حبان ٦١٠٥ و ٦١٠٦ والحاكم ٤/ ٢١٥ ووافقه الذهبي، كلهم من حديث أبي أمامة بن سهل بن حُنيف. وقال الشيخ شعيب في «الإحسان» حديث صحيح.

---

(١) الخرّار: ماء بالمدينة.

(٢) أي: بارك الله فيه.

(٣) هذا السياق في الموطأ.

إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين؛ فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغسلت له؛ ففي هذين الحديثين أن العين حق، وأنها تقتل كما قال النبيّ ﷺ، وهذا قول علماء الأمّة، ومذهب أهل السنة؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمّة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القِدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. قال الأصمعي: رأيت رجلاً عَيُوناً سمع بقرة تحلب فأعجبه شَخْبها فقال: أيتهنّ هذه؟ فقالوا: الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها، فهلكتا جميعاً، المورَى بها والمورَىٰ عنها. قال الأصمعيّ: وسمعته يقول: إذا رأيتُ الشيء يعجبني وجدتُ حرارة تخرج من عينيّ.

الثالثة: واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبَرِّك؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر: «ألا برّكت» فدلّ على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرَّك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه.

الرابعة: العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبَرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويُجبر على ذلك إنْ أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لا سيما هذا؛ فإنه قد يخاف على ٱلمَعِين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه.

الخامسة: من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعاً لضرره؛ وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته؛ وإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، ويكفّ أذاه عن الناس. وقد قيل: إنه يُنفى؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال؛ فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي، بل قد يكون الرجل الصالح عائناً، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسّق به؛ ومن قال: يحبس ويؤمر بلزوم بيته. فذلك ٱحتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

السادسة: روى مالك عن حميد بن قيس المكّي أنه قال:

[٣٦٩٠] دُخِل على رسول الله ﷺ بابني جعفر بن أبي طالب فقال لحاضنتهما: «ما

[٣٦٩٠] أخرجه مالك ٢/٩٣٩ بهذا اللفظ عن حميد المكي مرسلاً، ووصله الترمذي ٢٠٥٩ وابن ماجه ٣٥١٠ من حديث أسماء بنت عُميس، وإسناده حسن لأجل عبيد بن رفاعة الزُّرَقي، ويعضده مرسل مالك. وانظر صحيح ابن ماجة ٢٨٢٩.

لي أراهما ضَارِعَين»[1] فقالت حاضنتهما: يا رسول الله! إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقي لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «ٱسْتَرْقُوا لهما فإنه لو سبق شيء القدَر سبقته العين». وهذا الحديث منقطع، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عُمَيس الْخَثْعمية عن النبيّ ﷺ من وجوه ثابتة متصلة صحاح؛ وفيه أن الرُّقَى مما يُستَدفع به البلاء، وأن العين تؤثر في الإنسان وتَضْرَعه، أي تضعفه وتنحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم.

السابعة: أمر ﷺ في حديث أبي أُمامة[2] العائن بالاغتسال للمَعِين، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا: إنما يسترقي من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي من شيء أحذره عليكم؛ أي لا ينفع الحذر مع القدر. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي الأمر والقضاء. ﴿إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي ٱعتمدت ووثقت. ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي من أبواب شتى. ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم. ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء ليس من الأوّل. ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي خاطر خطر بقلبه؛ وهو وصيته أن يتفرّقوا؛ قال مجاهد: خشية العين، وقد تقدّم القول فيه. وقيل: لئلا يرى الملك عددهم وقوّتهم فيبطش بهم حسداً أو حذراً؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال: ولا معنى للعين ها هنا. ودلّت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

---

(١) الضارع: النحيف الضاوي الجسم.

(٢) تقدم برقم ٣٦٨٩.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني يعقوب. ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي بأمر دينه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه. وقيل: «لَذُو عِلْمٍ» أي عمل؛ فإن العلم أوّل أسباب العمل، فسمي بما هو بسببه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قال قتادة: ضمّه إليه، وأنزله معه. وقيل: أمر أن ينزل كل آثنين في منزل، فبقي أخوه منفرداً فضمّه إليه وقال: أشفقت عليه من الوحدة، وقال له سِرًّا من إخوته: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له: لا تردّني إليهم، فقال: قد علمت اغتمام يعقوب بي فيزداد غمّه، فأبى بنيامين الخروج؛ فقال يوسف: لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك، فقال: لا أبالي! فدس الصاع في رحله؛ إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أَمَر بعض خواصّه بذلك. والتّجهيز التسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جَهّز على الجريح أي قتله، ونجّز أمره. والسقاية والصواع شيء واحد؛ إناء له رأسان في وسطه مَقْبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن ابن عباس، وكل شيء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد:

نَشـربُ الخمـرَ بالصّـواع جِهَـارًا

واختلف في جنسه؛ فروى شعبة عن أبي بِشر عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال: كان صواع الملك شيء من فضة يشبه الْمَكُّوك، من فضة مرصع بالجوهر، يجعل على الرأس؛ وكان للعباس واحد في الجاهلية، وسأله نافع[1] بن الأزرق ما الصواع؟ قال: الإناء؛ قال فيه الأعشى:

لـه دَرْمَـكٌ فـي رأسـه ومَشَـارِبٌ   وقِـدْرٌ وطَبَّـاخٌ وصـاعٌ ودَيسَـقُ[2]

وقال عِكرمة: كان من فضة. وقال عبد الرحمن بن زيد: كان من ذهب؛ وبه كال طعامهم مبالغة في إكرامهم. وقيل: إنما كان يكال به لعزّة الطعام. والصاع يذكّر ويؤنّث؛ فمن أنّثه قال: أَصْوُع؛ مثل أَدْوُر، ومن ذكّره قال أَصْوَاع؛ مثل أثواب. وقال مجاهد وأبو

---

(١) أحد قادة الخوارج له سؤالات كثيرة أجابه ابن عباس عنها.

(٢) الدّيْسق: خوان من فضة.

صالح: الصاع الطِّرْجِهَالة بلغة حِمْير. وفيه قراءات: «صُوَاع» قراءة العامة؛ و «صُوْغ» بالغين المعجمة، وهي قراءة يحيى بن يَعْمُر؛ قال: وكان إناء أصِيغ من ذهب. «وصُوع» بالعين غير المعجمة قراءة أبي رجا. «وصُوْع» بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أبيّ. «وصُيَاع» بياء بين الصاد والألف؛ قراءة سعيد بن جُبير. «وصاع» بألف بين الصاد والعين؛ وهي قراءة أبي هريرة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي نادى منادٍ وأعلم. «وَأَذَّنَ» للتكثير؛ فكأنه نادى مراراً «أَيَّتُهَا الْعِيرُ». والعير ما امتير عليه من الحمير والإبل والبغال. قال مجاهد: كان عِيرهم حميراً. قال أبو عبيدة: العِير الإبل المرحولة المركوبة؛ والمعنى: يا أصحاب العير، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] و«ياخيل الله اركبي[1]» أي يا أصحاب خيل الله، وسيأتي. وهنا اعتراضان: الأوّل ـ إن قيل: كيف رضي بنيامين بالقعود طوعاً وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم بَرَاء وهو ـ الثاني ـ فالجواب عن الأوّل: أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير، أو لا تراه لما فقده قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ولم يعرّج على بنيامين؛ ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحي؛ فلا اعتراض. وأما نسبة يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب: أن القوم كانوا قد سَرَقوه من أبيه فألقوه في الجبّ، ثم باعوه؛ فاستحقّوا هذا الاسم بذلك الفعل، فصدق إطلاق ذلك عليهم. جواب آخر ـ وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرّاق؛ والمعنى: إنّ شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه. جواب آخر ـ وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدسّ الصاع في رحله، ولا أخبره بنفسه. وقد قيل: إن معنى الكلام الاستفهام؛ أي أو إنكم لسارقون؟ كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي أوَ تلك نعمة تمنها عليّ؟ والغرض ألاّ يعزى إلى يوسف ﷺ الكذب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾. البعير هنا

(١) ورد مرفوعاً وسيأتي.

الجمل في قول أكثر المفسرين. وقيل: إنه الحمار، وهي لغة لبعض العرب؛ قاله مجاهد واختاره. وقال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذي قال: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ». والزعيم والكَفيل والحَمِيل والضّمين والقَبِيل سواء والزعيم الرئيس.

قال[1]:

وإنِّي زَعيمٌ إنْ رَجعتُ مُمَلَّكا   بِسَيْرٍ تَرَى مِنهُ الفُرَانِقَ أَزْوَرَا[2]

وقالت ليلى الأخيلية تَرثي أخاها:

ومُخَرَّقٍ عنهُ القميصُ تَخَالُهُ   يومَ اللِّقاءِ من الحياءِ سَقِيمَا
حَتَّى إذا رَفَعَ اللِّوَاءَ رأيتَهُ   تحت اللِّواءِ على الخَمِيس زَعِيَما

الثانية: إن قيل: كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح؟ قيل له: حمل البعير كان معيناً معلوماً عندهم كالوَسْق؛ فصح ضمانه، غير أنه كان بدل مالٍ للسارق، ولا يحل للسارق ذلك، فلعله كان يصحّ في شرعهم أو كان هذا جعالة، وبذل مال لمن كان يفتّش ويطلب.

الثالثة: قال بعض العلماء: في هذه الآية دليلان: أحدهما ـ جواز الجُعْل وقد أجيز للضرورة؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره؛ فإذا قال الرجل: من فعل كذا فله كذا صح. وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوماً والآخر مجهولاً للضرورة إليه؛ بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدّر فيها العوض والمعوض من الجهتين؛ وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده، إذا رضِي بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجُعْل حضور المتعاقدين، كسائر العقود؛ لقوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ وبهذا كله قال الشافعي.

الرابعة: متى قال الإنسان، من جاء بعبدي الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة؛ وذلك أن النبي ﷺ قال:

[٣٦٩١] «من جاء بآبق فله أربعون درهماً» ولم يفصل بين من جاء به من عقد

[٣٦٩١] لا أصل له في المرفوع، وإنما ورد من كلام ابن مسعود، انظر مصنف عبد الرزاق ١٤٩١١.

---

(١) هو امرؤ القيس.
(٢) الفرانق: سبع يصيح بين يدي الأسد. والأزور: المائل في الشق.

ضمان أو غير عقد. قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد ولهذا قال أصحابنا: إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر.

قلت: وخالفنا في هذا كله الشافعي.

الخامسة: ـ الدليل الثاني ـ جواز الكفالة على الرجل؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام، قال علماؤنا: إذا قال الرجل تحمّلت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا حَميل لك أو زعيم أو كَفيل أو ضامن أو قَبيل، أو هو لك عندي أو عليّ أو إليّ أو قِبَلي فذلك كله حَمَالة لازمة، وقد ٱختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه، هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: من تكفّل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب إن مات؛ وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه. وقال مالك والليث والأوزاعي: إذا تكفّل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال، ويرجع به على المطلوب؛ فإن ٱشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال: لا أضمن المال فلا شيء عليه من المال؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم، وإنما يطلب بمال؛ فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوّته عليه، وعزه منه؛ فلذلك لزمه المال. وٱحتج الطحاوي للكوفيين فقال: أما ضمان المال بموت المكفول بـه فلا معنى له؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به.

السادسة: وٱختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق: يأخذ من شاء حتى يستوفي حقه؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال: لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب؛ لأن التبدية بالذي عليه الحق أولى، إلا أن يكون معدماً فإنه يؤخذ من الحميل، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة؛ وهذا قول حسن. والقياس أن للرجل مطالبة أي الرجلين شاء. وقال ٱبن أبي ليلى: إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالاً تحول على الكفيل وبرىء صاحب الأصل، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء؛ وٱحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبي قتادة، وبنحوه قال أبو ثور.

السابعة: الزعامة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها، مما يتعلق بالذمة من الأموال، وكان ثابتاً مستقراً؛ فلا تصح الحمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر؛ لأن العبد إن عجز رَقَّ وٱنفسخت الكتابة؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه، ويسجن المدعى عليه الحد، حتى ينظر في أمره.

وشذّ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة في الحدود والقصاص، وقالا: إذا قال المقذوف أو المدعي القصاص بينتي حاضرة كفله ثلاثة أيام؛ وٱحتجّ [1]لهم الطحاويّ بما رواه حمزة بن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلماً، ولا يرعون زرع أحد، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأكِمَّة لئلا تعيث في زروع الناس. ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ يروى أنهم ردّوا البضاعة التي كانت في رِحالهم؛ أي فمن ردّ ما وجد فكيف يكون سارقاً؟!

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ المعنى: فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم؟ فأجاب إخوة يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي يُسْتعبَد ويُسْتَرقّ. «فَجَزَاؤُهُ» مبتدأ، و «مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ» خبره؛ والتقدير: جزاؤه ٱستعباد من وُجِد في رحله؛ فهو كناية عن الاستعباد؛ وفي الجملة معنى التوكيد، كما تقول: جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يُسترقُّوا، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه. وقولهم هذا قول من لم يَسْتَرِب نفسه؛ لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ؛ قاله الحسن والسدّي وغيرهما.

مسألة: قد تقدّم في سورة «المائدة» أن القطع في السرقة ناسخ لما تقدّم من الشرائع، أو لما كان في شرع يعقوب من ٱسترقاق السارق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ إنما بدأ يوسف برحالهم لنفي

(١) لعل الصواب «لهما».

التهمة والرّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه. والوِعاء يقال بضم الواو وكسرها، لغتان؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه. ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ يعني بنيامين؛ أي آستخرج السِّقاية أو الصّواع عند من يؤنث، وقال: «وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ» فذكّر؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رؤوسهم، وظنّوا الظنون كلها، وأقبلوا عليه وقالوا ويلك يا بنيامين! ما رأينا كاليوم قطُّ، ولدت أمك «راحيل» أخوين لِصّين! قال لهم أخوهم: والله ما سرقته، ولا علم لي بمن وضعه في متاعي. ويروى أنهم قالوا له: يا بنيامين! أسرقت؟ قال: لا والله؛ قالوا: فمن جعل الصُّواع في رحلك؟ قال: الذي جعل البضاعة في رحالكم. ويقال: إن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل آستغفر الله عزّ وجلّ تائباً من فعله ذلك؛ وظاهر كلام قَتَادة وغيره أن المستغفر كان يوسف؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصّواع حتى فرغ منهم، وآنتهى إلى رحل بنيامين فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا ولا أخذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا نبرح حتى تفتشه؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا؛ ففتش فأخرج السّقاية؛ وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤذّن سَرّقهم برأيه؛ فيقال: إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى؛ ويقوّي ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كِدْنَا﴾ معناه صنعنا؛ عن ابن عباس. القُتَبِيّ: دبّرنا. ابن الأنباري: أردنا؛ قال الشاعر:

كـادتْ وكِـدتُّ وتِلـك خيـرُ إرادةٍ ... لو عاد مِن عهد الصِّبَا ما قد مَضَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحِيل إذا لم تخالف شريعةً، ولا هدمت أصلاً، خلافاً لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول، وخرَمت التحليل.

الثانية: أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعي أنه لا يحل له التحيل ولا النقصان، ولا أن يفرّق بين مجتمع، ولا أن يجمع بين متفرّق. وقال مالك: إذا فوّت من ماله شيئاً ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند الحول، أخذاً منه بقوله عليه السلام:

«خشية الصدقة»[1]. وقال أبو حنيفة: إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٥٠ عن أنس عن أبي بكر في كتاب رسول الله ﷺ في الصدقات، وفيه «ولا يُجمع بين متفرق، ولا يُفرق بين مجتمع خشية الصدقة» وتقدم تخريجه مستوفياً.

الحول بيوم لا يضرّه؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول، ولا يتوجه إليه معنى قوله: «خَشْيَةَ الصَّدَقة» إلا حينئذ. قال ابن العربي: سمعت أبا بكر محمد بن الوليد الفِهْري وغيره يقول: كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدّامَغَانيِ صاحب عشرات آلاف دينـار من المال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم: كبِرَت سِنّي، وضعفت قوّتي، وهذا مال لا أحتاجه فهو لكم، ثم يخرجه فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دورِ بنيه؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا: يا أبانا! إنما أملنا حياتك، وأما المال فأيّ رغبة لنا فيه ما دمت حيا؛ أنت ومالك لنا، فخذه إليك، ويسير الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيرده إلى موضعه؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأي أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرّق؛ وهذا خطب عظيم وقد صنف البخاريّ رضي الله عنه في جامعه كتاباً مقصوداً فقال: «كتاب الحِيل».

قلت: وترجم فيه أبواباً منها: «باب الزكاة وألاّ يفرّق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرّق خشية الصدقة». وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة[1]؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس. الحديث؛ وفي آخره:

[٣٦٩٢] «أفلح إن صدق» أو «دخل الجنة إن صَدَقَ». وقال بعض الناس: في عشرين ومائة بعير حِقّتان؛ فإن أهلكها متعمداً أو وهبها أو احتال فيها فِراراً من الزكاة فلا شيء عليه؛ ثم أردف بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٦٩٣] «يكون كنز أحدِكم يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان ويقول أنا كنزك» الحديث، قال المهلب: إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه؛ لأن النبي ﷺ لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى، وفهم من قوله: «أفلح إن صدق» أن من رام أن ينقص شيئاً من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عذرُه عند الله؛

[٣٦٩٢] صحيح. أخرجه البخاري ٤٦ و ٢٦٧٨ ومسلم (١١) وأبو داود ٣٩١ و ٣٩٢ والنسائي ١/ ٢٢٦ وابن الجارود ١٤٤ ومالك ١/ ١٧٥ وابن حبان ١٧٢٥ من حديث طلحة بن عبيد الله في خبر مطول، وهذا طرفه.

[٣٦٩٣] صحيح. أخرجه ١٤٠٣ من حديث أبي هريرة، وصدره «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ...» الحديث. وقد تقدم.

---

(١) تقدم فيما قبله.

وما أجازه الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط، والله حسيبه؛ وهو كمن فرّ من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم، واستعمل سفراً لا يحتاج إليه، رغبةً عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين؛ فالوعيد متوجّه عليه؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأيّ وجه متعمداً كيف تطؤه الإبل، ويمثل له ماله شجاعاً أقرع!؟ وهذا يدلّ على أن الفرار من الزكاة لا يحلّ، وهو مطالب بذلك في الآخرة.

الثالثة: قال ابن العربي: قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾. دليل على وجه الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق؛ وهذا وَهَم عظيم؛ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قيل فيه: كما مكّنا ليوسف مِلك نفسه عن امرأة العزيز مكّنّا له مِلْك الأرض عن العزيز، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره. قال الشفعوي: ومثله قوله عز وجل: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [صَ: ٤٤] وهذا ليس حيلة، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد. قال الشفعويّ: ومثله حديث أبي سعيد الخدريّ في عامل خيبر أنه أتى النبي ﷺ بتمرٍ جَنِيب[1]، الحديثَ؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعاً[2] ويبتاع جَنِيباً من الذي باع منه الجمع أو من غيره. وقالت المالكية: معناه من غيره؛ لئلا يكون جَنِيبا بجمع، والدراهم ربا؛ كما قال ابن عباس: جريرة بجريرة والدراهم ربا.

قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي سلطانه، عن ابن عباس. ابن عيسى: عاداته، أي يظلم بلا حجة. مجاهد: في حكمه؛ وهو استرقاق السراق. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي إلا بأن يشاء الله أن يجعل السّقاية في رحله تَعِلّة وعذرا له. وقال قتادة: بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين، ولكن شاء الله أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل، على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي بالعلم والإيمان. وقرىء «نرفع درجاتِ من نشاء» بمعنى: نرفع من نشاء درجات؛ وقد مضى في «الأنعام» وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ روى إسرائيل عن سِمَاك عن عِكْرمة عن ابن عباس قال: يكون ذا أعلم من ذا وذا أعلم من ذا، والله فوق كل عالم. وروى سفيان عن عبد الأعلى عن

(١) أخرجه البخاري وغيره، وقد مضى في سورة البقرة عند آية الربا.

(٢) الجميع: تمر مختلط من عدة أنواع، وهو غير مرغوب فيه.

سعيد بن جُبير قال: كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدّث بحديث فتعجب منه رجل فقال: سبحان الله! وفوق كل ذي علم عليم؛ فقال ابن عباس: بئس ما قلت؛ الله العليم وهو فوق كل عالم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ المعنى: أي اقتدى بأخيه، ولو اقتدى بنا ما سرق؛ وإنما قالوا ذلك ليبرؤوا من فعله، لأنه ليس من أمهم؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عِرْق أخيه السّارق؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق. وقد اختلفوا في السرقة التي نسبوا إلى يوسف[1]؛ فروي عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب، وكانت صارت إليها مِنْطقة إسحق لسنِّها؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسنّ، وهذا مما نسِخ حكمه بشرعنا، وكان من سَرَق استُعبِد. وكانت عمة يوسف حَضَنَتْه وأحبّته حبًّا شديداً؛ فلما ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب: سلّمي يوسف إليّ، فلست أقدر أن يغيب عني ساعة؛ فولعتْ به، وأشفقت من فراقه؛ فقالت له: دعه عندي أياماً أنظر إليه فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى مِنطَقة إسحق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدتُ مِنْطقة إسحق، فانظروا مَن أخذها ومَن أصابها؛ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوا؛ فوجدت مع يوسف. فقالت: إنه والله لي سلم أصنع فيه ما شئت؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك؛ فأمسكته حتى ماتت؛ فبذلك عيّره إخوته في قولهم: «إنْ يَسْرِقْ فقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ». ومن هاهنا تعلّم يوسف وضع السقاية في رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته. وقال سعيد بن جُبير: إنما أمرته أن يسرِق صنماً كان لجدّه أبي أمه، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييراً للمنكر؛ فرموه بالسرقة وعيّروه بها؛ وقاله قتادة. وفي كتاب الزجّاج: أنه كان صنم ذهب. وقال عطية العَوْفي: إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق[2] فخبأه فعيّروه بذلك. وقيل: إنه كان يسرِق من طعام المائدة للمساكين؛ حكاه ابن عيسى. وقيل: إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه؛ قاله الحسن.

---

(١) الآثار الواردة في تعيين المسروق يستأنس بها ولا حجة فيها، لأن مصدرها كتب الأقدمين.

(٢) العرق هنا: قطعة من اللحم المطبوخ.

قوله تعالى: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أي أسرّ في نفسه قولهم: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ» قاله ابن شجرة وابن عيسى. وقيل: إنه أسرّ في نفسه قوله: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ثم جهر فقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

قاله ابن عباس، أي أنتم شر مكاناً ممن نسبتموه إلى هذه السرقة. ومعنى قوله «والله أعلم بما تصفون» أي الله أعلم أنّ ما قلتم كذب، وإن كانت لله رضا. وقد قيل: إن إخوة يوسف في ذلك الوقت ما كانوا أنبياء.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان في تلك اللحظة بعزل الأول أو موته. وقولهم: «إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً» أي كبير القدر، ولم يريدوا كبر السنّ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ. «فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ» أي عبداً بَدَلَه؛ وقد قيل: إن هذا مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقّه؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: ٱقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك مبالغ في ٱستنزاله. ويحتمل أن يكون قولهم: «فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ» حقيقة؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء[1] أن يروا استرقاق حر، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة؛ أي خذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه؛ ويعرف يعقوب جليّة الأمر؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إذِ الحمالة في الحدود ونحوها ـ بمعنى إحضار المضمون فقط ـ جائزة مع التراضي، غير لازمة إذا أَبَى الطالب؛ وأما الحمالة في مثل هذا على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة، فلا يجوز إجماعاً. وفي «الواضحة»: إن الحمالة في الوجه فقط في جميع الحدود جائزة، إلا في النفس. وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة في النفس. وٱختلف فيها عن الشافعي؛ فمرّة ضعّفها، ومرّة أجازها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم، ويحتمل أن يريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا؛ وهذا تأويل ابن إسحق.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ مصدر. ﴿ أَن نَّأْخُذَ ﴾ في موضع نصب؛ أي من أن نأخذ. ﴿ إِلَّا مَن وَجَدْنَا ﴾ في موضع نصب بـ «نأخذ». ﴿ مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ أي معاذ الله أن

---

(١) تقدم أن الصحيح ليسوا بأنبياء.

نأخذ البريء بالمجرم، ونخالف ما تعاقدنا عليه. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾ أي أن نأخذ غيره.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي يَئِسوا؛ مثل عَجِب وٱستعجب، وسَخِر وٱستسخر. ﴿خَلَصُوا۟﴾ أي ٱنفردوا وليس هو معهم. ﴿نَجِيًّا﴾ نصب على الحال من المضمر في «خَلَصُوا» وهو واحد يؤدّي عن جمع، كما في هذه الآية؛ ويقع على الواحد كقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢] وجمعه أَنْجِيَة؛ قال الشاعر[1]:

إنِّـي إذا مـا القـومُ كـانـوا أَنْجِيَـهْ واضْطَرَبَ القومُ ٱضطِرابَ الأَرْشِيَهْ

هُنَـاكَ أَوْصِـينِي وَلاَ تُوصِـي بِيَـهْ

وقرأ ابن كثير: «ٱسْتَايَسُوا» «وَلاَ تَايَسُوا» «إِنه لاَ يَايَسُ» «أَفَلَمْ يَايَس» بألف من غير همز على القلب؛ قدَّمت الهمزة وأخَّرت الياء، ثم قلبت الهمزة ألفاً لأنها ساكنة قبلها فتحة؛ والأصل قراءة الجماعة؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء ـ يأساً ـ والإياس ليس بمصدر أَيِسَ؛ بل هو مصدر أُسْتُهُ أَوْساً وَإِيَاساً أي أعطيته. وقال قوم: أَيِس وَيئِس لغتان؛ أي فلما يئسوا من ردّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس، يتناجون فيما عَرَض لهم. والنَّجيّ فعيل بمعنى المناجي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ قال قَتَادة: هو روبيل، كان أكبرهم في السِّن. مجاهد: هو شمعون، كان أكبرهم في الرأي. وقال الكلبي: يهوذا؛ وكان أعقلهم. وقال محمد بن كعب وابن إسحق: هو لاَوِى، وهو أبو الأنبياء. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عهداً من الله في حفظ ٱبنه، وردّه إليه. ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ «ما» في محل نصب عطفاً على «أن» والمعنى: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، وتعلموا تفريطكم في يوسف؛ ذكره النحاس وغيره. و «مِن» في قوله: «وَمِنْ قَبْلُ» متعلقة بـ «تعلموا». ويجوز أن تكون «ما» زائدة؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما «مِنْ قَبْلُ» و «في يُوسُفَ» بالفعل وهو «فَرَّطْتُمْ». ويجوز أن تكون «ما» والفعل مصدراً، و «مِنْ قَبْلُ» متعلقاً بفعل مضمر؛ التقدير: تفريطكم في يوسف واقع من قبل؛

---

(١) هو سحيم بن وثيل اليربوعي. والأرشية: حبال يستقى بها.

فما والفعل في موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذي يتعلق به «مِنْ قَبْلُ».
﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي ألزمها، ولا أبرح مقيماً فيها؛ يقال: بَرِحَ بَرَاحاً وبُرُوحاً أي زال، فإذا دخل النفي صار مثبتاً. ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بالرجوع فإنّي أستحي منه. ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بالممرّ مع أخي فأمضي معه إلى أبي. وقيل: المعنى أو يحكم الله لي بالسيف فأحارب وآخذ أخي، أو أعجز فأنصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ ومن حارب وعَجَز فقد أحيط به؛ وقال ابن عباس: وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يردّ وجهه مائة ألف[1]؛ يقوم شعره في صدره مثل المَسَالّ فتنفذ من ثيابه.
وجاء في الخبر أن يهوذا قال لإخوته ـ وكان أشدّهم غضباً ـ: إما أن تكفوني الملِك ومن معه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم الملِك ومن معه؛ قالوا: بل ٱكفنا الملك ومن معه نكفِك أهل مصر؛ فبعث واحداً من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقاً؛ ثم إنّ يهوذا دخل على يوسف وقال: أيها الملك! لئن لم تخلِّ معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تبقي[1] في مدينتك حاملاً إلاّ أسقطت ما في بطنها؛ وكان ذلك خاصة فيهم عند الغضب؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا وٱشتدّ غضبه، وٱنتفجت شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بني يعقوب؛ كان إذا غضب، ٱقشعرّ جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت[1] وتهدّم البنيان، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم والطير إلا وضعت ما في بطنها، تماماً أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دماً، أو تمسكه يدٌ من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تمّ وكمل كَلَّم ولداً له صغيراً بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه وألقى السيف فالتفت يميناً وشمالاً لعله يرى أحداً من إخوته فلم يره؛ فخرج مسرعاً إلى إخوته وقال: هل حضرني منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد ٱحتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال أذهب إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رؤوس كل من فيه؛ قال: فأرجع فردّها، أو ألقها في البحر، ولا تحدثنّ حَدَثاً؛ فوالذي ٱتخذ إبراهيم خليلاً! لقد مَسَّني كَفٌّ من نَسْل يعقوب. ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدّهم بطشاً، فقال: يا معشر العبرانيين! أتظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فَرَكَله برجله فَدَحا به من خلف الجدار

---

(١) هذه الروايات من مجازفات اليهود، وهي خيالية.

ـ الرَّكْلُ الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد رَكَله يَركُله؛ قاله الجوهري ـ ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه لجنبه، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصُواعِه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبي هؤلاء همّ ولا غمّ ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخاً لهم صغيراً فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه؛ فقالوا: أيها العزيز! ٱستر علينا ستر الله عليك، وٱمنن علينا منّ الله عليك؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجُبّ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله؛ ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنباً منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه؛ ولم تتوبوا إليه، ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقره سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم؛ لأجعلنّكم نكالاً للعالمين. إيتوني بالحدّادين أقطع أيديهم وأرجلهم، فتضرعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا: لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حيّ لنكونن طوع يده، وتراباً يطأ علينا برجله؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم: ٱخرجوا عني! قد خلّيت سبيلكم إكراماً لأبيكم، ولولا هو لجعلتكم نكالاً.

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ قاله الذي قال: «فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ». ﴿فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرأ ابن عباس والضّحاك وأبو رزين «إنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ». النحاس: وحدثني محمد بن أحمد بن عمر قال حدّثنا ابن شَاذَان قال حدّثنا أحمد بن أبي سُرَيج البغداديّ قال: سمعت الكسائيّ يقرأ: «يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ» بضم السين وتشديد الرّاء مكسورة؛ على ما لم يُسمّ فاعله؛ أي نُسب إلى السرقة ورُمي بها؛ مثل خوّنته وفسّقته وفجرّته إذا نسبته إلى هذه الخلال. وقال الزجاج: «سُرِّقَ» يحتمل معنيين: أحدهما ـ علم منه السَّرَق، والآخر ـ ٱتهم بالسَّرَق. قال الجوهري: والسَّرِق والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو اسم الشيء المسروق، والمصدر سَرَق يَسْرِق سَرَقاً بالفتح.

قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يريدون ما شهدنا قطّ إلا بما علمنا، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين: دَسَّ هذا في رحلي مَن دَسَّ بضاعتكم في رحالكم؛ قال معناه ابن إسحق. وقيل المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسْتَرَقُّ إلا بما علمنا من دينك؛ قاله ابن زيد. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي لم نعلم وقت أخَذْناه منك أنه يَسْرِق فلا نأخذه. وقال مجاهد وقتادة: ما كنا نعلم أن ٱبنك يُسترقّ ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا: نحفظ أخانا فيما نطيق. وقال ٱبن عباس: يعنون أنه سَرَق ليلاً وهم نيام، والغيب هو الليل بلغة حِمْير؛ وعنه: ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه وإيابه. وقيل: ما دام بمرأى منا لم يجر خَلَل، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته. وقيل معناه: قد أخِذت السّرِقة من رَحْله، ونحن أخرجناها وننظر إليها، ولا علم لنا بالغيب، فلعلهم سَرَّقوه ولم يَسرِق.

الثانية: تضمّنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلاً وشرعاً، فلا تسمع إلا ممن عَلِم، ولا تقبل إلا منهم، وهذا هو الأصل في الشهادات؛ ولهذا قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة؛ وكذلك الشهادة على الخطّ ـ إذا تيقّن أنه خطّه أو خطّ فلان ـ صحيحة فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يُشهِده المشهود عليه؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦] وقال رسول الله ﷺ:

[٣٦٩٤] «ألاَ أخبركم بخير الشهداء خيرُ الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها» وقد مضى في «البقرة».

الثالثة: ٱختلف قول مالك في شهادة المرور؛ وهو أن يقول: مررت بفلان فسمعته يقول كذا فإن ٱستوعب القول شهِد في أحد قوليه، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يُشهداه. والصحيح أداء الشهادة عند الاستيعاب؛ وبه قال جماعة العلماء، وهو الحق؛ لأنه قد حصل المطلوب، وتعيّن عليه أداء العلم؛ فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له، وشر الشهداء إذا كتمها والله أعلم.

الرابعة: إذا ٱدّعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردّت؛ لأنه ٱدّعى باطلاً فأكذبه العِيَان ظاهراً.

[٣٦٩٤] صحيح. أخرجه مسلم ١٧١٩ وتقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ﴾ حقّقوا بها شهادتهم عنده، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم. فقولهم: «وٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ» أي أهلها؛ فحُذِف؛ ويريدون بالقرية مصر. وقيل: قرية من قراها نزلوا بها وٱمتاروا منها. وقيل المعنى: «وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ» وإن كانت جماداً، فأنت نبيّ الله، وهو يُنطق الجماد لك؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار؛ قال سيبويه: ولا يجوز كَلِّم هِنداً وأنت تريد غلام هند؛ لأن هذا يُشكل. والقول في العِير كالقول في القرية سواء. ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ في قولنا.

الثانية: في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق، وعلِم أنه قد يُظنّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهَّم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه، ويصرّح بالحق الذي هو عليه، حتى لا يبقى لأحد مُتكلَّم؛ وقد فعل هذا نبيّنا محمد ﷺ بقوله للرجلين اللذين مرَّا وهو قد خرج مع صفِية يَقْلِبُها من المسجد:

[٣٦٩٥] «على رسلِكما إنما هي صفية بنت حُيَيّ» فقالا: سبحان الله! وكَبُر عليهما؛ فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدّم وإني خَشِيت أن يَقذِف في قلوبكما شيئاً» رواه البخاري ومسلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أي زَيَّنَتْ. ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ أن ابني سَرَق وما سَرَق، وإنما ذلك لأمر يريده الله. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فشأني صبر جميل؛ أو صبر جميل أولى بي، على ما تقدّم أوّل السورة.

الثانية: الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن

[٣٦٩٥] صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٣٥ و٢٠٣٨ و ٣٢٨١ ومسلم ٢١٧٥ وأبو داود ٢٤٧٠ وابن ماجه ١٧٧٩ وأحمد ٦/٣٣٧ وابن حبان ٣٦٧١ من حديث صفية بنت حُيَيّ.

يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجرِيه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدي بنبـي الله يعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين. وقال سعيد بن أبي عَرُوبة عن قَتَادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرّعهما العبد أحبّ إلى الله من جرعة مصيبة يتجرّعها العبد بحسن صبر وحسن عَزَاء، وجرعة غيظ يتجرّعها العبد بحلم وعفو. وقال ابن جُريج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي لا أشكو ذلك إلى أحد. وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رَبَاح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

[٣٦٩٦] «مَنْ بَثَّ لم يَصْبِر». وقد تقدّم في «البقرة» أن الصبر عند أوّل الصَّدمة، وثواب من ذكر مصيبته وٱسترجع وإن تقادم عهدها. وقال جُوَيبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال: إن يعقوب أُعطي على يوسف أجر مائة شهيد، وكذلك من ٱحتسب من هذه الأمة في مصيبته فله مثل أجر يعقوب عليه السلام(١).

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنه كان عنده أن يوسف ﷺ لم يمت، وإنما غاب عنه خبره؛ لأن يوسف حمِل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئاً، ثم ٱشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس، ثم حُبس، فلما تمكن ٱحتال في أن يعلم أبوه خبره؛ ولم يُوجّه برسول لأنه كرِه من إخوته أن يعرفوا ذلك، فلا يَدعوا الرسول يَصلُ إليه. وقال: «بهم» لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلّف من أجل أخيه، وهو القائل: «فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ». ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي. ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٨٣﴾ فيما يقضي.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٤﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين تَتَامَّ حزنه، وبلغ جهده، وجدّد الله مصيبته له في يوسف فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ونَسيَ ٱبنه بنيامين فلم يذكره؛ عن ابن عباس. وقال سعيد بن جُبير: لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال: «يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ».

[٣٦٩٦] أخرجه ابن عدي ٥/٢٩٦ من حديث ابن عمر، وفيه عبد الوهاب بن عطاء، ضعفه أحمد، وقواه غيره، وأخرجه ابن جرير ١٩٧٣٨ من وجه آخر عن مسلم بن يسار مرسلاً، وأما حديث أبي هريرة الذي ذكره المصنف فإنه واهٍ جداً، مقاتل بن سليمان متهم بالكذب، فالحديث ضعيف.

---

(١) جويبر متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس، فالأثر لا شيء.

قال قَتَادة والحسن: والمعنى يا حزناه! وقال مجاهد والضحّاك: يا جزعاه!؛ قال كُثَيِّر:

فيا أَسفا للقلب كيف أنصرافُهُ   وللنَّفْسِ لمّا سلِّيت فَتَسلَّتِ

والأسف شدّة الحزن على ما فات. والنداء على معنى: تعالَ يا أسف فإنه مَن أوقاتك. وقال الزجاج: الأصل يا أسفِي؛ فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة. ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ قيل: لم يبصر بهما ست سنين، وأنه عَمِيَ؛ قاله مقاتل. وقيل: قد تبيضّ العين ويبقى شيء من الرؤية، والله أعلم بحال يعقوب؛ وإنما ٱبيضّت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن، فلهذا قال: ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾. وقيل: إن يعقوب كان يصلّي، ويوسف نائماً معترضاً بين يديه، فَغطّ في نومه، فالتفت يعقوب إليه، ثم غَطّ ثانية فالتفت إليه، ثم غَطّ ثالثة فالتفت إليه سروراً به وبغطيطه؛ فأوحى الله تعالى إلى ملائكته: «أنظروا إلى صفييّ وابن خليلي قائماً في مناجاتي يلتفت إلى غيري، وعِزّتي وجَلاَلي! لأنزعنّ الحدقتين اللتين التفت بهما[1]، ولأفرقنّ بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة؛ ليعلم العاملون أن من قام بين يديّ يجب عليه مراقبة نظري».

الثانية: هذا يدلّ على أن الالتفات في الصلاة ـ وإن لم يُبطل ـ يدلّ على العقوبة عليها، والنقص فيها، وقد رَوى البخاري عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال:

[٣٦٩٧] «هو ٱختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد». وسيأتي ما للعلماء في هذا في أوّل سورة «المؤمنون» موعباً إن شاء الله تعالى.

الثالثة: قال النحاس: فإن سأل قوم عن معنى شدّة حزن يعقوب ـ ﷺ وعلى نبينا ـ فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة: منها ـ أنْ يعقوب ﷺ لما علم أن يوسف ﷺ حَيٌّ خاف على دِينه، فاشتدّ حزنه لذلك. وقيل: إنما حزن لأنه سلّمه إليهم صغيراً، فندم على ذلك. والجواب الثالث ـ وهو أبْيَنُها ـ هو أن الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الوَلْولة وشقّ الثياب، والكلام بما لا ينبغي. وقال النبي ﷺ:

[٣٦٩٨] «تَدمع العين ويَحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الربّ». وقد بيّن الله جلّ

[٣٦٩٧] صحيح. أخرجه البخاري ٧٥١ و٣٢٩١ وأبو داود ٩١٠ وأحمد ٦/١٠٦ من حديث عائشة. ويأتي في أول سورة «المؤمنون».

[٣٦٩٨] صحيح. أخرجه البخاري ١٣٠٣ ومسلم ٢٣١٥ وأحمد ٣/ ١٩٤ وأبو داود ٣١٢٦ وابن حبان ٢٩٠٢ من حديث أنس، قاله ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم عليه السلام.

---

(١) هذا أثر باطل، متلقىٰ عن الإسرائيليين، ومراد واضعه الطعن في الأنبياء.

وعزّ ذلك بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثّه؛ ومنه كَظْم الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٤٨] أي مملوء كرباً. ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم؛ وهو المشتمل على حزنه. وعن ٱبن عباس: كظيم مغموم؛ قال الشاعر:

فإنْ أَكُ كاظِماً لِمُصَابِ شَاسٍ ... فإني اليومَ مُنطلقٌ لساني

وقال ٱبن جُريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: ذهبت عيناه من الحزن «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال: فهو مكروب. وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ قال: فهو كَمِد؛ يقول: يعلم أن يوسف حيّ، وأنه لا يدري أين هو؛ فهو كَمِد من ذلك. قال الجوهري: الكَمَد الحزن المكتوم؛ تقول منه كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ. النحاس. يقال فلان كظِيم وكاظِم؛ أي حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر:

فَحَضضْتُ قَوْمي وٱحتسبتُ قِتالَهُم ... والقومُ من خوف المَنَايا كُظَّم

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي قال له ولده: «تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ» قال الكسائي: فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك أي ما زلتُ. وزعم الفراء أن «لا» مضمرة؛ أي لا تفتأ، وأنشد[1]:

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعِداً ... ولو قَطعوا رأسِي لدَيكِ وأَوصَالي

أي لا أبرح؛ قال النحاس: والذي قال حسن صحيح. وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضمر في القسم، لأنه ليس فيه إشكال؛ ولو كان واجباً لكان باللام والنون؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك؛ يقال: ما زال يفعل كذا، وما فتىء وَفَتَأَ فهما لغتان، ولا يستعملان إلا مع الجحد قال الشاعر[2]:

فما فَتِئتْ حتى كأنّ غُبَارَهَا ... سُرَادِقُ يومِ ذي رياحٍ تُرفَّعُ

أي ما برحت فتفتأ تبرح. وقال ٱبن عباس: تزال. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي تالفاً. وقال ابن عباس ومجاهد: دَنِفا من المرض، وهو ما دون الموت؛ قال الشاعر:

سَرَى هَمِّي فأمرضَني ... وقِدْماً زادني مَرَضَا

---

(١) البيت لامرىء القيس.

(٢) هو أوس بن حجر التميمي الجاهلي.

كـــذاكَ الحـــبُّ قبـــلَ اليـــو   مِ ممَّـــا يُـــورِث الحَـــرَضَـــا

وقال قَتادة: هرِماً. الضحّاك: بالِياً داثِراً. محمد بن إسحق: فاسداً لا عقل لك. الفراء: الحارض الفاسد الجسم والعقل؛ وكذا الحَرَض. ابن زيد: الحَرَض الذي قد رُدّ إلى أرذلِ العمر. الربيع بن أنس: يابس الجلد على العظم. المؤرِّج: ذائباً من الْهم. وقال الأخفش: ذاهباً. ابن الأنباريّ: هالكاً، وكلها متقاربة. وأصل الحَرَض الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم، عن أبي عُبيدة وغيره؛ وقال العَرْجِيّ:

إني ٱمْرُؤٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فأَحْرَضَنِي   حتّى بَلِيتُ وحتّى شَفَّنِي السَّقَمُ

قال النحاس: يقال حَرَض حَرَضاً وحَرُض حُرُوضاً وحُرُوضة إذا بلي وسقم، ورجل حارِض وحَرَض، إلا أن حَرَضاً لا يثنّى ولا يجمع، ومثله قَمِن وحَرِيّ لا يثنيان ولا يجمعان. الثّعلبيّ: ومن العرب من يقول حارِض للمذكر، والمؤنثة حارِضة، فإذا وصف بهذا اللفظ ثَنّي وجمع وأنّث. ويقال: حَرِض يحَرَض حَرَاضةً فهو حَريض وحَرِضٌ. ويقال: رجل مُحْرَض، ويُنْشَد:

طَلَبَتْـهُ الخيـلُ يـومـاً كـامـلاً   ولَـوْ ٱلْفَتْـهُ لأَضْحَـى مُحْـرَضَـا

وقال ٱمرؤ القيس:

أَرَى المرءَ ذا الأَذْوَاد يُصبِحُ مُحْرَضاً   كإِحْرَاضِ بِكْرٍ في الدّيارِ مَرِيض[1]

قال النحاس: وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ إذا أسقمه، ورجل حارض أي أحمق. وقرأ أنس: «حُرْضاً» بضم الحاء وسكون الراء، أي مثل عود الأشْنان. وقرأ الحسن بضم الحاء والراء. قال الجوهري: الحَرَض والحُرُض الأشْنَان. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي الميّتين، وهو قول الجميع؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقةً عليه، وإن كانوا السبب في ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي﴾ حقيقة البثّ في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها؛ وهو من بثثته أي فرّقته، فسميت المصيبة بَثًّا مجازاً، قال ذو الرُّمّة:

وقَفْـتُ علـى رَبْـع لِميَّـةَ نَـاقَتـي   فمـا زِلْـتُ أَبْكـي عِنـدهُ وأُخَـاطِبهْ
وأَسْقِيـه حتـى كـاد ممـا أُبِثُّـهُ   تُكَلِّمُنـي أَحْجـارُهُ ومَـلاَعِبُـهْ

وقال ابن عباس: «بَثّي» هَمِّي. الحسن: حاجتي. وقيل: أشد الحزن، وحقيقته ما

(١) الأذواد: جمع ذود وهو قطيع الغنم وغيره. والبَكْرُ: فتي الإبل.

ذكرناه. ﴿وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوف عليه، أعاده بغير لفظه. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سأسجد له. قاله ابن عباس. قتادة: إني أعلم من إحسان الله تعالى إليّ ما يوجب حسن ظنّي به. وقيل: قال يعقوب لملَك الموت هل قبضت رُوح يوسف؟ قال: لا، فأكّد هذا رجاءه. وقال السدّي: أعلم أن يوسف حيّ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخُلُقه وقوله أحسّت نَفْس يعقوب أنه ولده فطمع، وقال: لعله يوسف. وقال: لا يكون في الأرض صديق إلا نبيء. وقيل: أعلم من إجابة دعاء المضطرين ما لا تعلمون.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هذا يدلّ على أنه تيقن حياته؛ إما بالرؤيا، وإما بإنطاق الله تعالى الذئب كما في أوّل القصة، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض رُوحه؛ وهو أظهر. والتَّحسُّس طلب الشيء بالحواسّ؛ فهو تفعّل من الحسِّ، أي ٱذهبوا إلى هذا الذي طلب منكم أخاكم، وٱحتال عليكم في أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه. ويروى أن ملَك الموت قال له: ٱطلبه من هاهنا! وأشار إلى ناحية مصر. وقيل: إن يعقوب تنبه على يوسف بردّ البضاعة، وٱحتباس أخيه، وإظهار الكرامة؛ فلذلك وجّههم إلى جهة مصر دون غيرها. ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي لا تقنطوا من فرج الله؛ قاله ابن زيد؛ يريد: أن المؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدّة. وقال قَتَادة والضحاك: من رحمة الله. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر، وهو اليأس، وسيأتي في «الزُّمَر» بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الممتنع. ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر؛ وفي الكلام حذف، أي فخرجوا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف قالوا: «مَسَّنَا» أي أصابنا «وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» أي الجوع والحاجة؛ وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضُّر، أي الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضّر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه؛ ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل، وهذا ما لم يكن

التشكّي على سبيل التّسخط؛ والصبر والتّجلد في النّوائب أحسن، والتّعفف عن المسألة أفضل؛ وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى؛ وذلك قول يعقوب: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» أي من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائدته على عباده؛ فأما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السّفه، إلا أن يكون على وجه البثّ والتّسلّي؛ كما قال ٱبن دُرَيْد:

لاَ تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنّي ضارعٌ ... لِنَكْبةٍ تَعْرِقُني عَرْقَ الْمُدَى
مَارَسْت مَنْ لَوْ هوتِ الأفلاكُ مِنْ ... جَوَانِبِ الجوِّ عليه ما شَكَا
لكنّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ إذا ... جَاشَ لُغَامٌ مِن نَوَاحِيها غَمَا

قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شيء؛ تقول: أبضعت الشيء وأستبضعته أي جعلته بضاعة؛ وفي المثل: كمستبضع التمر إلى هَجَر[1].

قوله تعالى: ﴿مُّزْجَاةٍ﴾ صفة لبضاعة؛ والإزجاء السَّوْق بدفع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] والمعنى أنها بضاعة تدفع؛ ولا يقبلها كل أحد. قال ثعلب: البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة. ٱختلف في تعيينها هنا؛ فقيل: كانت قدِيداً وحيساً؛ ذكره الواقديّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: خَلَقُ الغَرَائر والحبال؛ روي عن ابن عباس. وقيل: متاع الأعراب صوف وسمن؛ قاله عبد الله بن الحارث. وقيل: الحبة الخضراء والصَّنَوبر وهو البُطْم، حبّ شجرٍ بالشام، يؤكل ويعصر الزيت منه لعمل الصابون، قاله أبو صالح؛ فباعوها بدراهم لا تَنْفُق في الطعام، وتَنْفُق فيما بين الناس؛ فقالوا: خذها منا بحساب جيادٍ تَنفُق في الطعام. وقيل: دراهم رديئة؛ قاله ابن عباس أيضاً. وقيل: ليس عليها صورة يوسف، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف. وقال الضحاك: النعال والأدم؛ وعنه: كانت سوِيقا منخلاً. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لا تنقصنا بمكان دراهمنا؛ هذا قول أكثر المفسرين. وقال ابن جريج: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» يريدون الكيل الذي كان قد كاله لأخيهم. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي تفضل علينا بما

---

(١) تعرف اليوم بالبحرين أقام الملاحدة القرامطة دولتهم بها.

بين سعر الجياد والرديئة. قاله سعيد بن جُبير والسدي والحسن: لأن الصدقة تحرم على الأنبياء. وقيل المعنى: «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» بالزيادة على حقّنا؛ قاله سفيان بن عُيَيْنة. قال مجاهد: ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد ﷺ. وقال ابن جُريج: المعنى «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» بردّ أخينا إلينا. وقال ابن شجرة: «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» تَجوّز عنا؛ وٱستشهد بقول الشاعر:

تَصدّقْ علينا يا ٱبن عَفّان وٱحْتَسِبْ ... وأَمِّــرْ علينــا الأشعــريّ لَيَــالِيَــا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾ يعني في الآخرة؛ يقال: هذا من مَعَاريض الكلام؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم، فلذلك لم يقولوا: إن الله يجزيك بصدقتك، فقالوا لفظاً يوهمه أنهم أرادوه، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل؛ قاله النقاش وفي الحديث:

[٣٦٩٩] «إن في المَعَاريض[1] لمندوحةً عن الكذب».

الثانية: ٱستدلّ مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع؛ قال ٱبن القاسم وابن نافع قال مالك: قالوا ليوسف «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» فكان يوسف هو الذي يكيل، وكذلك الوَزّان والعدّاد وغيرهم، لأن الرجل إذا باع عِدّة معلومة من طعامه، وأوجب العقد عليه، وجب عليه أن يبرزها ويميّز حق المشتري من حقه، إلا أن يبيع منه مُعيَّناً ـ صُبْرة[2] أو مالا حقّ توفية فيه ـ فخلّى مــا بينه وبينه، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية، وإن تلف فهو منه قبل التوفية.

الثالثة: وأما أجرة النقد فعلى البائع أيضاً؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول: إنها طَيِّبة، فأنت الذي تدّعي الرداءة فٱنظر لنفسك؛ وأيضاً فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه، وكذلك لا يجب على الذي يـجـب عليه القصاص؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه،

[٣٦٩٩] أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩٦ والديلمي ٨٣٥ من حديث عمران بن حصين، وفيه داود بن الزبرقان قال عنه ابن عدي: هو من جملة الضعفاء الذين يكتب حديثهم، وقال في موضع آخر: لاأعلم أحداً رفعه غير داود ا هـ وقال الذهبي في المغني: هو متروك.
وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ٨٨٤ عن عمران موقوفاً، وعن عمر مثله، فالمرفوع وإن كان ضعيفاً إلا أنه يتقوى بالموقوف، والله أعلم، وانظر المقاصد الحسنة ٢٢٧.

---

(١) التعريض بالقول: خلاف التصريح به.

(٢) ما جمع من الطعام بلا كيل ووزن.

إلا أن يمكن من ذلك طائعاً؛ ألا ترى أن فرضاً عليه أن يفدي يده، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه؛ فأجر القطاع على المقتص. وقال الشافعي في المشهور عنه: إنها على المقتص منه كالبائع.

الرابعة: يكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدّق عليّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغي الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا ربّ غيره؛ وسمع الحسن رجلاً يقول: اللهم تصدّق عليّ؛ فقال الحسن: يا هذا! إن الله لا يتصدّق إنما يتصدّق من يبتغي الثواب؛ أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ قل: اللهم أعطني وتفضّل عليّ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ٱستفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذي قال الله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ [يوسف: ١٥] الآية. ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ دليل على أنهم كانوا صغاراً في وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدلّ على أنه حسنت حالهم الآن؛ أي فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفاً منه. وقيل: جاهلون بما تؤول إليه العاقبة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» فخضعوا له وتواضعوا رق لهم، وعرفهم بنفسه، فقال: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ» فتنبهوا فقالوا: «أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ» قاله ابن إسحق. وقيل: إن يوسف تبسّم فشبهوه بيوسف وٱستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ الآية، ثم تبسم يوسف ـ وكان إذا تبسم كأنّ ثناياه اللؤلؤ المنظوم ـ فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام: «أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ». وعن ابن عباس أيضاً: أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شِبْه الشامة، فلما قال لهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ﴾ رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا:

«أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ». وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب ردّ ابنه[1]، وفي الكتاب: من يعقوب صفيّ الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر ـ أما بعد ـ فإنّا أهل بيت بلاء ومِحَن، ابتلى الله جدّي إبراهيم بنمروذ وناره، ثم ابتلى أبي إسحق بالذبح، ثم ٱبتلاني بولد كان لي أحبّ أولادي إليّ حتى كُفَّ بصري من البكاء، وإني لم أسرق ولم ألِدْ سارقاً والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب ٱرتعدت مفاصله، واقشعرّ جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعِيلَ صبره فباح بالسرّ. وقرأ ابن كثير «إنَّكَ» على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاماً كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ [الشعراء: ٢٦]. ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ أي أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو تعظيماً للقصة. ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي بالنجاة والملك. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ أي الصابرين في بلائه، القائمين بطاعته. وقرأ ٱبن كثير: «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي» بإثبات الياء؛ والقراءة بها جائزة على أن تجعل «مَنْ» بمعنى الذي، وتدخل «يَتَّقِي» في الصلة، فتثبت الياء لا غير، وترفع «ويصبر». وقد يجوز أن تجزم «ويصبر» على أن تجعل «يتقي» في موضع جزم و «من» للشرط، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التي كانت في الياء على الأصل؛ كما قال:

ثُـم نَـادِي إذا دَخلـتَ دِمَشْقـاً ... يـا يـزيـدُ بـنَ خـالـدِ بـنِ يـزيـد

وقال آخر:

ألـم يـأتيـكَ والأنبـاءُ تَنمِـي ... بمـا لاَقَـتْ لَبُـونُ بنـي زيـادِ

وقراءة الجماعة ظاهرة، والهاء في «إِنَّهُ» كناية عن الحديث، والجملة الخبر.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الأصل همزتان خفّفت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، وٱسم الفاعل مُؤْثِر، والمصدر إيثار. ويقال: أَثَرْتُ التراب إثارةً فأنا مُثير؛ وهو أيضاً على أَفْعَل ثم أُعِلَّ، والأصل أَثْيَر نقلت حركة الياء على الثاء، فانقلبت الياء ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. وأَثَرْتُ الحديث على فَعَلْتُ فأنا آثِرٌ؛ والمعنى: لقد فضّلك الله علينا، وٱختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك. ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾ أي مذنبين من خَطِيء يَخْطَأ إذا أتى الخطيئة، وفي ضمن هذا سؤال العفو. وقيل لابن عباس: كيف قالوا «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» وقد تعمدوا لذلك؟ قال: وإن تعمّدوا لذلك، فما تعمدوا حتى أخطؤوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنباً تَخطّى المنهاج

---

(١) لا يصح هذا عن ابن عباس، وإنما هو من الإسرائيليات.

الذي عليه من الحق، حتى يقع في الشبهة والمعصية.

قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي قال يوسف ـ وكان حليماً موفّقاً ـ: «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» وتمّ الكلام. ومعنى «اليوم»: الوقت. والتثريب التّعيير والتوبيخ، أي لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثوري وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام:

[٣٧٠٠] «إذا زنت أمة أحدكم فليجلِدها الحدّ ولا يُثرِّب عليها» أي لا يعيرها؛ وقال بشر:

فعَفَوتُ عنهم عَفْوَ غيرِ مُثَرِّبٍ ... وتركتهم لعقابِ يومٍ سَرْمَدِ

وقال الأصمعي: ثَرَّبْتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنى إذا قبحتَ عليه فعله. وقال الزجاج: المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة، وحقّ الإخوة، ولكم عندي العفو والصفح؛ وأصل التثريب الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أخذ بِعُضادَتَي الباب يوم فتح مكة، وقد لاَذَ الناسُ بالبيت فقال:

[٣٧٠١] «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «ماذا تظنون يا معشر قريش» قالوا: خيراً، أخ كريم، وأبن أخ كريم وقد قَدَرت؛ قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ»» فقال عمر رضي الله عنه: ففِضتُ عَرقاً من الحياء من قول رسول الله ﷺ؛ ذلك أني قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة: اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله ﷺ ما قال أستحييت من قولي. ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مستقبل فيه معنى الدعاء؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم. وأجاز الأخفش الوقف على «عَلَيْكُمُ» والأوّل هو المستعمل؛ فإن في الوقف على «عليكم» والابتداء بـ «الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» جَزْم بالمغفرة في اليوم، وذلك لا يكون إلا عن وحي، وهذا بيّن. وقال عطاء الخراساني: طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ؛ ألم تر قول يوسف: «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» وقال يعقوب: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي».

[٣٧٠٠] صحيح. أخرجه البخاري وغيره، قد مضى.

[٣٧٠١] أخرجه ابن مردويه في تفسيره كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤ من حديث ابن عباس. والبيهقي في الدلائل ٥/ ٨٧ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وله شواهد راجع الدر المنثور ٤/ ٣٤.

قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ نعت للقميص، والقميص مذكر، فأما قول الشاعر[1]:

تَـدْعـو هَـوَازِنُ والقميـصُ مُفَـاضَـةٌ فــوق النِّطــاقِ تُشَــدُّ بــالأزرارِ

فتقديره: والقـميـص دِرْع مُفاضةٌ. قاله النحاس. وقال ابن السدّي عن أبيه عن مجاهد: قال لهم يوسف: «ٱذْهَبُوا بِقَمِيصي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبي يَأْتِ بَصِيراً» قال: كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدّ على يعقوب بصره، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذي ألبسه الله في النار من حرير الجنة، وكان كساه إسحق، وكان إسحق كساه يعقوب، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص في قَصَبة من فضة وعلّقه في عُنق يوسف، لِمَا كان يخاف عليه من العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة، وأن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مُبتلًى إلا عُوفي. وقال الحسن: لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف: أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسرّه، وليعود إليه بصره، فحمله؛ حكاه السدّي. ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ لتتخذوا مصر داراً. قال مسروق: فكانوا ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وامرأة. وقد قيل: إن القميص الذي بعثه هو القميص الذي قدّ من دُبره، ليعلم يعقوب أنه عُصِم من الزنى؛ والقول الأوّل أصح، وقد روي مرفوعاً من حديث أنس عن النبي ﷺ[2]؛ ذكره القُشَيريّ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ أي خرجت منطلقة من مصر إلى الشام، يقال: فَصَلَ فُصُولاً، وفَصَلْته فَصْلاً، فهو لازم ومتعد. ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ أي قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾. وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقي: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ». قال

---

(١) هو جرير.

(٢) لم أره مسنداً والقشيري يروي الموضوعات، فلا حجة بما ينفرد فيه، والأشبه أنه من كتب الأقدمين.

ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وقال الحسن: مسيرة عشر ليال؛ وعنه أيضاً مَسيرة شهر. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ إلى سليمان عليه السلام طرفه. وقال مجاهد: هبّت ريح فصَفَقَت القميصَ فراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فعند ذلك قال: «إنّي لأجِدُ» أي أشم؛ فهو وجود بحاسة الشم. ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴿٩٤﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد: لولا أن تُسفّهون؛ ومنه قول النابغة:

إلاّ سُليمــان إذ قــال المليـكُ لَـهُ   قُمْ في البرِيَّة فٱحْدُدْها عنِ الفَنَدِ

أي عن السَّفَه. وقال سعيد بن جُبير والضحاك: لولا أن تكذِّبون. والفَنَد الكذب. وقد أَفْنَد إفْنَاداً كَذَب؛ ومنه قول الشاعر:

هل في ٱفتخار الكريم من أَوَدِ[1]   أَمْ هـل لقـول الصَّـدُوقِ مـن فَنَـدِ

أي من كذب. وقيل: لولا أن تُقبِّحون؛ قاله أبو عمرو؛ والتّفنيد التقبيح، قال الشاعر:

يـا صـاحبيّ دعـا لـومـي وتَفْنيـدِي   فليس ما فاتَ مِن أمرِي بمردودِ

وقال ٱبن الأعرابي: «لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ» لولا أن تُضعِّفوا رأيي؛ وقاله ابن إسحق. والفند ضعف الرأي من كِبر. وقول رابع: تُضلِّلون، قاله أبو عبيدة. وقال الأخفش: تلومونني؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأي. وقال الحسن وقَتَادة ومجاهد أيضاً: تُهرِّمون؛ وكله متقارب المعنى، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي؛ يقال: فَنَّده تفنيداً إذا أعجزه، كما قال:

* أهلكنـي باللـوم والتفنيـد *

ويقال: أفند إذا تكلم بالخطأ؛ والفند الخطأ في الكلام والرأي، كما قال النابغة:

* ... فٱحـددهـا عـن الفَنَـدِ *

أي ٱمنعها عن الفساد في العقل، ومن ذلك قيل: اللوم تفنيد؛ قال الشاعر:

يـا عـاذلـيّ دَعَـا الْمَـلاَمَ وأَقْصِـرَا   طـالَ الهَـوَى وأطلتمـا التَّفْنِيـدا

ويقال: أَفْنَد فلاناً الدهرُ إذا أفسده؛ ومنه قول ابن مُقْبِل:

دَعِ الـدَّهْـرَ يَفْعَـلْ مـا أَرادَ فـإنَّـهُ   إذا كُلِّـف الإفنـادَ بـالنـاسِ أَفْنَـدَا

---

(١) الأود: العوج.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أي لفي ذهاب عن طريق الصواب. وقال ابن عباس وابن زيد: لفي خطئِك الماضي من حبّ يوسف لا تنساه. وقال سعيد بن جُبير: لفي جنونك القديم. قال الحسن: وهذا عقوق. وقال قَتَادة وسفيان: لفي محبتك القديمة. وقيل: إنما قالوا هذا؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات. وقيل: إن الذي قال له ذلك من بقي معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر. وقيل: قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته. وقيل: بنو بنيه وكانوا صغاراً؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي على عينيه. ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ «أَنْ» زائدة، والبشير قيل هو شمعون. وقيل: يهوذا قال: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُلَطَّخاً بالدّم؛ قاله ابن عباس. وعن السدّي أنه قال لإخوته: قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرْحة. وقال يحيى بن يمان عن سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب قال له: على أيّ دِينٍ تركت يوسفَ؟ قال: على الإسلام؛ قال: الآن تمت النعمة؛ وقال الحسن: لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئاً يُثِيبه به؛ فقال: والله ما أصبتُ عندنا شيئاً، وما خبزنا شيئاً منذ سبع ليال، ولكن هوّن الله عليك سكراتِ الموت.

قلت: وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهِبات عند البشائر. وفي الباب حديث كعب بن مالك ـ الطويل ـ وفيه: «فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعت ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته» وذكر الحديث، وقد تقدّم بكماله في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا[1]، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به، وهو دليل على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغمّ والترّح. ومن هذا الباب جواز حِذَاقة الصبيان، وإطعام الطعام فيها، وقد نحر عمر بعد حفظه سورة «البقرة» جَزُوراً. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ذَكَّرهم قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ في الكلام حذف، التقدير: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا؛ وهذا يدلّ على أن الذي قال له: «تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ» بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لا ولده؛ فإنهم كانوا غُيّباً، وكان

---

(١) وذلك في أواخر سورة التوبة آية: ١١٨.

يكون ذلك زيادة في العقوق. والله أعلم. وإنما سألوه المغفرة، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله.

قلت: وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالماً له؛ فإنه يجب عليه أن يَتَحَلَّل له ويخبره بالمَظْلِمة وقدرها؛ وهل ينفعه التّحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلِمة لها قَدْرٌ وبَالٌ ربما لم تَطب نفس المظلوم في التَّحلُّل منها. والله أعلم. وفي صحيح البخاريّ وغيره عن أبي هُريرة قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٧٠٢] «من كانت له مَظْلِمَة لأخيه من عِرْضه أو شيءٍ فلْيحلّله منه اليوم قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مَظْلِمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فُحمِل عليه» قال المهلَّب فقوله ﷺ: «أُخذ منه بقدر مَظْلِمته» يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشاراً إليها مبيّنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ قال ابن عباس: أَخَّر دعاءه إلى السَّحَر. وقال المُثَنَّى بن الصَّبَّاح عن طاوس قال: سَحَر ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء. وفي دعاء الحِفظِ ـ من كتاب الترمذيّ ـ عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال: ـ بأبي أنت وأمّي ـ تَفَلَّتَ هذا القرآنُ من صدري، فما أجدني أقدر عليه، فقال له رسول الله ﷺ:

[٣٧٠٣] «أفلا أعلمك كلماتٍ يَنفعْكَ اللَّهُ بهنّ ويَنفعْ بهنّ من عَلَّمته ويُثبّت ما تعلمتَ في صدرك» قال: أجل يا رسول الله! فَعلِّمني؛ قال: «إذا كان ليلة الجمعة فإن أستطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخرِ فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال

[٣٧٠٢] صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٩ والطيالسي ٢٣١٨ وأحمد ٢/٤٣٥ وابن حبان ٧٣٦١ من حديث أبي هريرة.

[٣٧٠٣] ضعيف جداً. أخرجه الترمذي ٣٥٧٠ وابن الجوزي في الموضوعات ٢/١٤٠ من حديث ابن عباس، وأعله ابن الجوزي بمحمد بن الحسن النقاش، وقال: لاأتهم به غيره. قال البرقاني: كل حديثه منكر. وتعقبه السيوطي في اللآلىء ٢/٦٦ ـ ٦٧ بأن النقاش توبع عند الترمذي اهـ نعم توبع إلا أن من تابعه إنما هو سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، وهو ضعيف، وقد ذكره الذهبي في ميزانه بهذا الحديث، وقال: هو مع نظافة سنده حديث منكر جداً في نفسي منه شيء فالله أعلم اهـ وللحديث علتان أيضاً الأولى أن الوليد يدلس التسوية بإسقاط شيخ شيخه، والثانية ابن جريج مدلس أيضاً، وقد عنعنه. والحديث شبه موضوع.

أخي يعقوب لبنيه «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» يقول حتى تأتي ليلة الجمعة»[١] وذكر الحديث. وقال أيوب بن أبي تميمة السَّخْتِيَاني عن سعيد بن جُبير قال: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» في الليالي البيض، في الثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب. وعن عامر الشّعبي قال: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» أي أسأل يوسف إن عفا عنكم ٱستغفرت لكم ربي؛ وذكر سُنَيد بن داود قال: حدّثنا هشيم قال حدّثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دِثَار عن عَمّه قال: كنت آتي المسجد في السَّحر فَأَمُرُّ بدار ٱبن مسعود فأسمعه يقول: اللهم إنك أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا سَحَرٌ فٱغفر لي، فلقيت ٱبن مسعود فقلت: كلمات أسمعك تقولهنّ في السحر؟ فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السَّحَر بقوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي».

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي قَصْراً كان له هناك. ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ قيل: إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازاً، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعاً؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه، أي ضمّ؛ ويعني بأبويه أباه وخالته، وكانت أمّه قد مات في ولادة أخيه بنيامين. وقيل:[٢] أحيا الله له أمّه تحقيقاً للرؤيا حتىٰ سجدت له، قاله الحسن؛ وقد تقدّم في «البقرة» أن الله تعالى أحيا لنبيه عليه السلام أباه وأمه فآمنا به.[٣]

قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ قال ٱبن جريج: أي سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله؛ قال: وهذا من تقديم القرآن وتأخيره؛ قال النحاس: يذهب ٱبن جُرَيج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول: «ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ». وقيل: إنما قال: «إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ» تَبَرُّكاً وجَزْماً. «آمنين» من القَحْط، أو من فرعون؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال قَتَادة: يريد السَّرير، وقد تقدّمت محامله؛ وقد يُعبر بالعرش عن المُلْك والمَلِك نفسه؛ ومنه قول النابغة الذُّبْيَانيّ:

---

(١) هو حديث طويل، وفيه أنه علمه أن يصلي أربع ركعات يقرأ فيهنّ يسٓ والسجدة والدخان وتبارك الملك.

(٢) هذا القولُ من الإسرائيليات.

(٣) باطل لا أصل له، وإنما ورد في حديث موضوع راجع «الموضوعات» ١/ ٢٨٣.

* عُـروشٌ تَفانَـوْا بعـد عِـزٍّ وأَمْنَـةٍ *

وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ الهاء في «خَرُّوا لَهُ» قيل: إنها تعود على الله تعالى؛ المعنى: وخرّوا شكراً لله سجداً؛ ويوسف كالقِبْلة لتحقيق رؤياه، وروي عن الحسن؛ قال النّقاش: وهذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أوّل السورة: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ». وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام، فاقشعرّ جلده وقال: «هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ» وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها ٱثنتان وعشرون سنة. وقال سلمان الفارسيّ وعبد الله بن شَدّاد: أربعون سنة؛ قال عبد الله بن شَدّاد: وذلك آخر ما تبطىء الرؤيا. وقال قَتَادة: خمس وثلاثون سنة. وقال السدّي وسعيد بن جُبير وعِكرمة: ست وثلاثون سنة. وقال الحسن وجِسْر بن فَرْقَد وفُضَيل بن عِيَاض: ثمانون سنة. وقال وهب بن مُنَبِّه: أُلقي يوسف في الجُبّ وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ٱبن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من ٱمرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة ٱمرأة أيوب. وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة. وقيل: إن يعقوب بقي عند يوسف عشرين سنة، ثم توفي ﷺ. وقيل: أقام عنده ثماني عشرة سنة. وقال بعض المحدّثين: بضعاً وأربعين سنة؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله. وقال ابن إسحق: ثماني عشرة سنة، والله أعلم.

الثانية: قال سعيد بن جُبير عن قَتَادة عن الحسن ـ في قوله: «وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً» ـ قال: لم يكن سجوداً، لكنه سنة كانت فيهم، يُومِئون برؤوسهم إيماء، كذلك كانت تحيتهم. وقال الثّوري والضحّاك وغيرهما: كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا، وهو كان تحيتهم. وقيل: كان ٱنحناء كالركوع، ولم يكن خروراً على الأرض، وهكذا كان سلامهم بالتّكفّي والانحناء، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء. وأجمع المفسّرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة؛ قال قَتَادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة.

قلت: هذا الانحناء والتّكفّي الذي نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية، وعند

العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يُؤبه به، وأنه لا قدر له؛ وكذلك إذا ٱلتقوا ٱنحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء. نَكَبوا عن السُّنَنِ، وأعرضوا عن السَّنَن. وروى أنس بن مالك قال:

[٣٧٠٤] قلنا يا رسول! أينحني بعضنا إلى بعض إذا ٱلتقينا؟ قال: «لا»؛ قلنا: أفيعتَنِق بعضنا بعضاً؟ قال «لا». قلنا: أفيصافح بعضنا بعضاً؟ قال «نعم». خرّجه أبو عمر في «التمهيد» فإن قيل: فقد قال رسول الله ﷺ:

[٣٧٠٥] «قوموا إلى سيّدكم وخَيْرِكم» ـ يعني سعد بن معاذ ـ قلنا: ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعيّنة؛ وقد قيل: إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار؛ وأيضاً فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثّر ذلك في نفسه، فإن أثّر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظاً لم يجز عَوْنه على ذلك؛ لقوله ﷺ:

[٣٧٠٦] «من سره أن يتمثَّل له الناس قياماً فليتبوّأ مقعده من النار». وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم من وجه رسول الله ﷺ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه، لما يعرفون من كراهته لذلك.

الثالثة: فإن قيل: فما تقول في الإشارة بالإصبع؟ قيل له: ذلك جائز إذا بَعد عنك، لتعيّن له به وقت السلام، فإن كان دانياً فلا؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد؛ لما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٣٧٠٧] «من تَشبَّه بغيرنا فليس منا». وقال[1]: «لا تُسلِّموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكُفّ والنّصارى بالإشارة». وإذا سَلَّم فإنه لا يَنحني، ولا أن يُقبِّل مع

[٣٧٠٤] أخرجه الترمذي ٢٧٢٩ وابن ماجة ٣٧٠٢ وأبو يعلىٰ ٤٢٨٩ من حديث أنس، ومداره على حنظلة السدوسي، وهو ضعيف، وقد ضعف هذا الحديث أحمد والبيهقي انظر الإحياء ٢/ ٢٠٤، ومع ذلك ذكره الألباني في «الصحيحة ١٦٠».

[٣٧٠٥] متفق عليه وقد مضى.

[٣٧٠٦] حسن. أخرجه أبو داود ٥٢٢٩ والترمذي ٢٧٥٥ والديلمي ٥٦٨١ من حديث ابن الزبير، وحسنه الترمذي، ووافقه العراقي في الإحياء ٢/ ٢٠٥.

[٣٧٠٧] ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٦٩٥ من حديث ابن عمرو، وقال: إسناده ضعيف، ورواه ابن المبارك عن ابن لهيعة فلم يرفعه.

---

(١) هذا تبع لما قبله.

السّلام يده، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله. وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيماً منهم لكبرائهم؛ قال النبي ﷺ:

[٣٧٠٨] «لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عند رؤوس أكاسرتها» فهذا مثله.

ولا بأس بالمصافحة؛ فقد صافح النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة، وأمر بها، وندب إليها، وقال:

[٣٧٠٩] «تصافحوا يذهب الغِلّ» وروى غالب التَّمَّار عن الشّعبيّ أن أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا التقوا تَصافحوا، وإذا قدموا من سفر تَعانقوا؛ فإن قيل: فقد كره مالك المصافحة؟ قلنا: روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة، وذهب إلى هذا سُحْنون وغيره من أصحابنا؛ وقد روي عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة، وهو الذي يدلّ عليه معنى ما في الموطأ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف. قال ابن العربي: إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمراً عاماً في الدِّين، ولا منقولاً نقل السلام؛ ولو كانت منه لاستوى معه.

قلت: قد جاء في المصافحة حديث يدلّ على الترغيب فيها، والدّأب عليها والمحافظة؛ وهو ما رواه البَرَاء بن عازب قال:

[٣٧١٠] لقيت رسول الله ﷺ فأخذ بيدي فقلت: يا رسول الله! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم؟ فقال: «نحن أحق بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما».

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يقل من الجُبّ ٱستعمالاً

[٣٧٠٨] أخرجه أبو داود ٥٢٣٠ من حديث أبي أمامة. قال العراقي في الإحياء ٢/٢٠٥: فيه أبو العديس مجهول اهـ كذا وقع في الإحياء. وفي التقريب: أبو العَدَبَّس مجهول اهـ فالحديث ضعيف، لكن ورد في المصافحة أحاديث.

[٣٧٠٩] ضعيف. أخرجه ابن عدي ٦/٢٠٥ من حديث ابن عمر، ومداره على محمد بن أبي الزُّعَيْزعية، ونقل عن البخاري قوله: منكر الحديث جداً لايكتب حديثه اهـ لكن ورد في المصافحة أحاديث كثيرة يقوي بعضها بعضاً، ومنها الآتي. وانظر المجمع ٨/٣٦ ـ ٣٧.

[٣٧١٠] ضعيف بهذا اللفظ. أخرجه ابن عدي في الكامل ١٤٣٥ من حديث البراء، وأعله بعمرو بن حمزة البصري، ونقل عن البخاري قوله: لايتابع عليه اهـ.

وأخرجه أبو داود ٥٢١١ من وجه آخر عن البراء مختصراً، وإسناده ضعيف، شواهد كثيرة انظر المجمع ٨/٣٦ـ٣٧.

للكرم؛ لئلا يُذكِّر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم بقوله: «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ».

قلت: وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذِكْرُ الجَفَا في وقت الصَّفَا جَفَا؛ وهو قول صحيح دَلَّ عليه الكتاب. وقيل: لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» وكان في الجبّ بإرداة الله تعالى له. وقيل: لأنه كان في السجن مع اللصوص والعُصَاة، وفي الجبّ مع الله تعالى؛ وأيضاً فإن المِنّة في النّجاة من السّجن كانت أكبر، لأنه دخله بسبب أَمْرٍ هَمَّ به؛ وأيضاً دخله باختياره إذ قال: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ» فكان الكَرْب فيه أكثر؛ وقال فيه أيضاً: «ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» فعوقب فيه. ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان، وكانوا أهل مواشٍ وبَرية؛ وقيل: كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسَكَنها، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية. وقيل: إنه كان خرج إلى بَدَا، وهو موضع؛ وإياه عنى جَمِيل بقوله:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْباً[1] إلى بَدَا إلـيّ وأوطـانـي بـلادٌ سِـواهُمَـا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل. يقال: بَدَا القومُ بَدْواً إذا أَتَوا بَدَا، كما يقال: غَاروا غَوْراً أي أَتَوا الْغَوْر؛ والمعنى: وجاء بكم من مكان بَدَا؛ ذكره القشيريّ، وحكاه الماوَرْديّ عن الضحّاك عن ابن عباس. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله ابن عباس. وقيل: أفسد ما بيني وبين إخوتي؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرماً منه. ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي رفيق بعباده. وقال الخَطَّابيّ: اللطيف هو البَرّ بعباده الذي يَلطُف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لا يَحتسبون؛ كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩]. وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرام والرفق. قال قَتادة، لطف بيوسف بإخراجه من السجن، وجاءه بأهله من البدو، ونزع عن قلبه نزغ الشيطان. ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشَارَفَ أرض مصر وبلغ ذلك يوسف ٱستأذن فرعون ـ وٱسمه الريان ـ أن يأذن له في تَلَقِّي أبيه يعقوب، وأخبره بقدومه فأذن له، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه؛ فخرج يوسف والملك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلْقٌ الله أعلم بهم؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب، فكان يعقوب يمشي متكئاً على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر فقال: يا يهوذا! هذا فرعون مصر؟ قال: لا، بل هذا ابنك يوسف؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمُنع من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال: السلام

(١) موضع بين الشام والمدينة.

عليك يا مُذْهِب الأحزان، وبكى وبكى معه يوسف؛ فبكى يعقوب فرحاً، وبكى يوسف لِما رأى بأبيه من الحزن؛ قال ٱبن عباس: فالبكاء أربعة. بكاءٌ من الخوف، وبكاءٌ من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاءُ رياءٍ. ثم قال يعقوب: الحمد لله الذي أقرّ عيني بعد الهموم والأحزان، ودخل مصر في ٱثنين وثمانين من أهل بيته؛ فلم يخرجوا من مصر حتىٰ بلغوا ستمائة ألف[1] ونيف ألف؛ وقطعوا البحر مع موسىٰ عليه السلام؛ رواه عِكْرِمة عن ٱبن عباس. وحكى ٱبن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنساناً ما بين رجل وٱمرأة، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا[1]. وقال الربيع بن خَيْثَم: دخلوها وهم ٱثنان وسبعون ألفاً، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف. وقال وهب: بن منبه دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنساناً ما بين رجل وٱمرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسىٰ فِراراً من فرعون[1]، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً مقاتلين، سوى الذرية والهَرْمى والزَّمْنى؛ وكانت الذرّية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة. وقال أهل التواريخ: أقام يعقوب بمصر أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى ٱبنه يوسف أن يحملِ جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل، ثم ٱنصرف إلى مصر. قال سعيد بنُ جُبير: نقل يعقوب ﷺ في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عِيصو، فدفنا في قبر واحد؛ فمن ثَمَّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، مَنْ فَعَلِ ذلك منهم؛ ووُلد يعقوب وعِيصُو في بطن واحد، ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعاً وأربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال قَتَادة: لم يتمنّ الموت أحدٌ؛ نبيّ ولا غيره إلاّ يوسف عليه السلام؛ حين تكاملت عليه النِّعم وجمع له الشمل ٱشتاق إلى لقاء ربه عزّ وجلّ. وقيل: إن يوسف لم يتمنّ الموت، وإنما تمنّى الوفاة على الإسلام؛ أي إذا جاء أَجَلِي تَوَفَّنِي مسلماً؛ وهذا قول الجمهور. وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَريّ: لا يتمنى الموت إلا ثلاث: رجل جاهل بما بعد الموت، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله عزّ وجلّ. وثبت في الصحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ:

---

(١) لايصح عن ابن مسعود مثل هذا، والأشبه أنه من قول وهب بن منبه، وهذا الرقم من مجازفات بني إسرائيل. وكيف يفر نبي من أولي العزم مع هذا العدد؟!!

[٣٧١١] «لا يتمنّين أحدُكم الموت لضُرٍّ نزل به فإن كان لا بدّ متمنياً فليقل ٱللهم أَحْيني ما كانت الحياة خيراً لي وتَوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي» رواه مسلم. وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٧١٢] «لا يتمنّى أحدُكم الموت ولا يَدْعُ به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم ٱنقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمِنَ عُمُره إلا خيراً». وإذا ثبت هذا فكيف يقال: إن يوسف عليه السلام تمنى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل؟ هذا بعيد! إلا أن يقال: إن ذلك كان جائزاً في شرعه؛ أَمَا أنه يجوز تمنّي الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها، وخوف ذهاب الدين، على ما بيّناه في كتاب «التذكرة» و«مِنَ» من قوله: «مِنَ الْمُلْكِ» للتبعيض، وكذلك قوله: «وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلأَحَادِيثِ» لأن مُلْك مصر ما كان كل الْمُلك، وعلم التّعبير ما كان كلّ العلوم. وقيل: «مِنَ» للجنس كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقيل: للتأكيد. أي آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نصب على النعت للنداء، وهو ربّ، وهو نداء مضاف؛ والتقدير: يا ربّ! ويجوز أن يكون نداء ثانياً. والفاطر الخالق؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أي خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولا مثال سبق؛ وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة» مستوفى؛ عند قوله: «بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَٱلأَرضِ» وزدناه بياناً في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ أي ناصري ومتولّي أموري في الدنيا والآخرة. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ يريد آباءه الثلاثة؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب، فتوفاه الله ـ طاهراً طيباً ﷺ ـ بمصر، ودُفن في النيل في صندوق من رخام؛ وذلك أنه لما مات تَشاحَّ الناس عليه؛ كلٌّ يحب أن يدفن في مَحَلَّتهم، لما يرجون من بركته؛ وٱجتمعوا على ذلك حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النِّيل من حيث مَفرِق الماء بمصر، فيمرّ عليه الماء، ثم يتفرّق في جميع مصر، فيكونوا فيه شَرَعاً ففعلوا؛ فلما خرج موسى ببني إسرائيل أخرجه من النيل، ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس، فدفنوه مع آبائه لدعوته: «وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام. وعن الحسن قال: أُلقي يوسف في الجبّ وهو ٱبن سبع

[٣٧١١] صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٥١ ومسلم ٢٦٨٠ وأبو داود ٣١٠٨ والترمذي ٢٩٧١ والنسائي ٤/٣ وابن ماجه ٤٢٦٥ وأحمد ٣/ ١٠١ وابن حبان ٩٦٨ من حديث أنس.

[٣٧١٢] صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٧٣ ومسلم ٢٦٨٢ من حديث أبي هريرة.

عشرة سنة، وكان في العبودية والسّجن والملك ثمانين سنة، ثم جُمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة؛ وكان له من الولد إفرائيم، ومنشا، ورحمة، زوجة أيوب؛ في قول ٱبن لَهِيعة. قال الزّهريّ: وولد لإفرائيم ـ بن يوسف ـ نون بن إفرائيم، وولد لنون يوشع؛ فهو يوشع بن نون، وهو فتى موسى الذي كان معه صاحب أمره، ونبأه الله في زمن موسى عليه السلام؛ فكان بعده نبياً، وهو الذي ٱفتتح أرِيحا، وقَتل من كان بها من الجبابرة، وٱستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم في «المائدة». وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا، قبل موسى بن عمران. وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذي طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه، والعالم هو الذي خرق السفينةِ، وقتل الغُلامَ، وبنَى الجدارَ، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ؛ وكان ٱبن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذي قاله ابن عباس؛ وكذلك في القرآن. ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون، وكان فيما بينهما شعيب، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ٱبتداء وخبر. ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر ثان. قال الزجاج: ويجوز أن يكون «ذَٰلِكَ» بمعنى الذي، «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» خبره؛ أي الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعني هو الذي قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» أي نعلمك بوحي هذا إليك. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي مع إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ في إلقاء يوسف في الجبّ. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي بيوسف في إلقائه في الجبّ. وقيل: «يَمْكُرُونَ» بيعقوب حين جاؤوه بالقميص مُلطَّخاً بالدم؛ أي ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ ظنّ أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا؛ فنزلت الآية تسلية للنبي ﷺ؛ أي ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول: حَرَص يَحرِص، مثل: ضَرَب يَضرِب. وفي لغة ضعيفة حَرِص يَحرَص مثل حَمِدَ يَحمَد. والحِرْص طلب الشيء باختيار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ «مِنْ» صلة؛ أي ما تسألهم جُعْلاً. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو؛ يعني القرآن والوحي. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي عظة وتذكرة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال الخليل وسيبويه: هي «أيّ» دخل عليها كاف التشبيه وبُنيت معها، فصار في الكلام معنى كَمْ، وقد مضى في «آل عمران» القول فيها مستوفى. ومضى القول في آية «السَّمَوَاتِ والأرْضِ» في «البقرة». وقيل: الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة؛ أي هم غافلون معرضون عن تأملها. وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد «وَالأَرْضُ» رفعاً ابتداء، وخبره. ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾. وقرأ السّدي «وَالأَرْضَ» نصباً بإضمار فعل، والوقف على هاتين القراءتين على «السموات». وقرأ ابن مسعود: «يمشون عليها».

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ نزلت في قوم أقرّوا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها، وهم يعبدون الأوثان؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر الشّعبي[1] وأكثر المفسرين. وقال عِكرمة هو قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون له أنداداً؛ وعن الحسن أيضاً: أنهم أهل كتاب معهم شِرْكٌ وإيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمد ﷺ؛ فلا يصح إيمانهم؛ حكاه ابن الأنباري. وقال ابن عباس: نزلت في تلبية مشركي العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وعنه أيضاً أنهم النصارى. وعنه أيضاً أنهم المشبّهة، آمنوا مجملاً وأشركوا مُفَصَّلاً. وقيل: نزلت في المنافقين؛ المعنى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ أي باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماورديّ عن الحسن أيضاً. وقال عطاء: هذا في الدعاء؛ وذلك أن الكفار يَنْسَون ربهم في الرّخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء؛ بيانه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]الآية. وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾[يونس: ١٢] الآية. وفي آية أخرىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾[فصلت: ٥١] وقيل: معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهَلَكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم: لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللّص، ونحو هذا؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب.

(١) في الأصل «والشعبي» وذكر الواو خطأ لأن الشعبي هو عامر بن شراحيل.

قلت: وقد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوامّ المسلمين؛ ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. وقيل: نزلت هذه الآية في قصة الدُّخان؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدُّخَان في سنيّ القَحْط قالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ [الدخان: ١٢]فذلك إيمانهم، وشركهُم عودُهم إلى الكفر بعد كشف العذاب؛ بيانه قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾ [الدخان: ١٥] والعود لا يكون إلا بعد ٱبتداء؛ فيكون معنى: «إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ» أي إلا وهم عائدون إلىٰ الشرك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: مُجلّلة. وقال مجاهد: عذاب يغشاهم؛ نظيره. ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]. وقال قَتَادة: وقِيعة تقع لهم. وقال الضحّاك: يعني الصَّواعِق والقَوارِع. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني القيامة. ﴿بَغْتَةً﴾ نصب على الحال؛ وأصله المصدر. وقال المبرد: جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم: وقع أمر بغتة وفجأة؛ قال النحاس: ومعنى: «بَغْتَةً» إصابة من حيث لم يتوقّع. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٠٧﴾ وهو توكيد. وقوله: «بَغْتَةً» قال ابن عباس: تَصيح الصيحة بالناس وهم في أسواقهم ومواضعهم، كما قال: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾ [يٓس: ٤٩] على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ ٱبتداء وخبر؛ أي قل يا محمد هذه طريقي وسُنَّتي ومِنْهَاجِي؛ قاله ابن زيد. وقال الرّبيع: دعوتي. مقاتل: ديني، والمعنى واحد؛ أي الذي أنا عليه وأدعو إليه يؤدّي إلى الجنة. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على يقين وحقّ؛ ومنه: فلان مستبصر بهذا. ﴿أَنَا۠﴾ توكيد. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف على المضمر. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد: «وَسُبْحَانَ اللَّهِ». ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ الذين يتخذون من دون الله أنداداً.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ هذا ردّ على القائلين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] أي أرسلنا رجالاً ليس فيهم ٱمرأة ولا جِنّيٌّ ولا مَلَك؛ وهذا يردّ ما يُروى عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٣٧١٣] «إن في النِّساء أربع نبيَّات حَوّاء وآسية وأمّ موسى ومريم». وقد تقدّم في «آل عمران» شيء من هذا. «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» يريد المدائن؛ ولم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن: لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية قطّ، ولا من النِّساء، ولا من الجنّ. وقال قتادة: «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أي من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم. وقال العلماء: مِن شرط الرسول أن يكون رجلاً آدميّا مدنياً؛ وإنما قالوا آدميّا تحرّزاً؛ من قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ إلى مصارع الأمم المكذِّبة لأنبيائهم فيعتبروا. ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ابتداء وخبره. وزعم الفرّاء أن الدار هي الآخرة؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ، كيوم الخميس، وبارحة الأولى؛ قال الشاعر:

ولو أَقْوَتْ عليكَ دِيارُ عَبْسٍ   عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليَقينِ

أي عِرْفَاناً يقيناً؛ واحتجّ الكسائيّ بقولهم: صلاة الأولى؛ واحتجّ الأخفش بمسجد الجامع. قال النحاس: إضافة الشيء إلى نفسه محال؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرّف به؛ والأجود الصلاة الأولى، ومن قال صلاة الأولى فمعناه: عند صلاة الفريضة الأولى؛ وإنما سمّيت الأولى لأنها أوّل ما صُلّي حين فُرضت الصّلاة، وأوّل ما أظهر؛ فلذلك قيل لها أيضاً الظهر. والتقدير: ولدار الحال الآخرة خير، وهذا قول البصريين؛ والمراد بهذه الدار الجنة؛ أي هي خير للمتقين. وقرىء: «وَلَلدَّارُ ٱلآخِرَةُ». وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠٩﴾ بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ تقدّم القراءة فيه ومعناه. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغي الوقوف عليه لئلا يزِلّ الإنسان فيكون في سواء الجحيم. المعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب. «حَتَّى إِذَا ٱسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ» أي يئسوا من إيمان قومهم. «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» بالتشديد؛ أي أيقنوا أن قومهم

[٣٧١٣] لا أصل له. وهو مردود كما قال القرطبي رحمه الله. وقال ابن كثير في تفسيره ٢/ ٥١٤: الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية وإنما فيهن صدّيقات اهـ ملخصاً.

كَذَّبوهم. وقيل المعنى: حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كَذَّبوهم، لا أَنَّ الْقَوْمَ كَذَّبوا، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسِبوا أنهم يُكَذِّبونهم؛ أي خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شكّ؛ فيكون «وَظَنُّوا» على بابه في هذا التأويل. وقرأ ابن عباس وٱبن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ وأبو جعفر بن القَعْقَاع والحسن وقَتَادة وأبو رَجَاء العُطَارِديّ وعاصم وحمزة والكسائيّ ويحيى بن وَثَّاب والأعمش وخَلَف «كُذِبُوا» بالتخفيف؛ أي ظنّ القوم أن الرسل كَذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب، ولم يَصدقُوا. وقيل: المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَبوا فيما وعدوا به من نصرهم. وفي رواية عن ابن عباس؛ ظنّ الرسلُ أن الله أخلف ما وعدهم. وقيل: لم تصح هذه الرواية؛ لأنه لا يَظنّ بالرسل هذا الظنّ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحقّ النّصر؛ فكيف قال: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾؟! قال القُشَيريّ أبو نصر: ولا يبعد إن صحّت الرواية أن المراد خطر بقلوب الرسل هذا من غير أن يتحققوه في نفوسهم؛ وفي الخبر:

[٣٧١٤] «إن الله تعالى تجاوز لأمّتي عما حدّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به». ويجوز أن يقال: قربوا من ذلك الظنّ؛ كقولك: بلغت المنزل، أي قربت منه. وذكر الثعلبيّ والنحاس عن ابن عباس قال: كانوا بشراً فضَعُفوا من طول البلاء، ونسوا وظنُّوا أَنَّهُمْ أخلِفوا؛ ثم تلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال الترمذيّ الحكيم: وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعدما وعد الله النصر، لا من تهمة لوعد الله، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حَدَثاً يَنْقُض ذلك الشرط والعهد الذي عهد إليهم؛ فكانت إذا طالت عليهم المدّة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه. وقال المهدويّ عن ابن عباس: ظنّت الرُّسل أنهم قد أُخلِفُوا على ما يلحق البشر؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية. والقراءة الأولى أولى. وقرأ مجاهد وحميد ـ «قَدْ كَذَبوا» بفتح الكاف والذال مُخَفّفاً، على معنى: وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كَذَبوا، لما رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ في تأخير العذاب. ويجوز أن يكون المعنى: ولما أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم جاء الرسلَ نصرُنا. وفي البخاريّ عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال قلت: أكُذِبُوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. قلت: فقد ٱستيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أَجَلْ! لعمري! لقد ٱستيقنوا بذلك؛ فقلت لها: «وَظَنُّوا أَنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا» قالت: معاذ الله! لم تكن

[٣٧١٤] متفق عليه مع اختلاف يسير فيه، وتقدم.

الرسل تظنّ ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم، فطال عليهم البلاء، وٱستأخر عنهم النصر حتى إذا ٱستيأس الرسل] ممن كذّبهم من قومهم، وظنّت الرسل أن أتباعهم [قد] كذبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ قولان: أحدهما: جاء الرسلَ نصْر الله؛ قاله مجاهد. الثاني: جاء قومهم عذاب الله؛ قاله ابن عباس. ﴿فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ﴾ قيل: الأنبياء ومن آمن معهم. وروي عن عاصم «فَنجِّيَ مَنْ نَشَاءُ» بنون واحدة مفتوحة الياء، و«مَنْ» في موضع رفع، ٱسم ما لم يسم فاعله؛ وٱختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها في مصحف عثمان، وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة. وقرأ ٱبن مُحَيْصِن «فَنَجَا» فعل ماض، و«مَنْ» في موضع رفع لأنه الفاعل، وعلى قراءة الباقين نصباً على المفعول. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ أي الكافرين المشركين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي في قصة يوسف وأبيه وإخوته، أو في قصص الأمم. ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي فكرة وتذكرة وعظة. ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي العقول. وقال محمد بن إسحاق عن الزّهريّ عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيميّ: إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعاً وأربعين سنة، وتُوفّي أخوه عِيصُو معه في يوم واحد، وقُبِرا في قبر واحد؛ فذلك قوله[1]: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إلى آخر السورة. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي ما كان القرآن حديثاً يفترى، أو ما كانت هذه القصة حديثاً يفترى. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكن كان تصديق، ويجوز الرفع بمعنى لكن هو تصديق الذي بين يديه أي ما كان قبله من ٱلتوراة وٱلإنجيل وسائر كتب الله تعالى؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام، والشرائع والأحكام. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

---

(١) هذا الأثر من الإسرائيليات، ولا يصح تفسير الآية به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعِكْرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكَلْبيّ ومقاتل. وقال ابن عباس وقَتَادة: مدنية إلا آيتين منهما نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١] إلى آخرهما.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ﴾ تقدّم القول فيها. ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك. ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به من تلقاء نفسك؛ فاعتصم به، واعمل بما فيه. قال مقاتل: نزلت حين قال المشركون: إن محمداً أتى بالقرآن من تلقاء نفسه. «وَالَّذِي» في موضع رفع عطفاً على «آيَاتُ» أو على الابتداء، و«الْحَقُّ» خبره؛ ويجوز أن يكون موضعه جراً على تقدير: وآيات الذي أنزل إليك، وارتفاع «الحقّ» على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره: ذلك الحق؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُم يعلمون الحَقَّ﴾[1] يعني ذلك الحق. قال الفرّاء: وإن شئت جعلت «الَّذِي» خفضاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال: أتانا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق؛ ومنه قول الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ[2] وابنِ الهُمَامِ ... ولَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحَم

يريد: إلى الملك الْقَرْمِ بن الهمام، ليثِ الكَتيبة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ الآية. لمّا بيّن تعالى أن القرآن

(١) راجع ما ذكره المصنف عند الآية ١٤٦ ـ ١٤٧ سورة البقرة.

(٢) القَرْم ـ بفتح القاف ـ السيد.

حقّ، بين أن مَن أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدّم هذا المعنى. وفي قوله: «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» قولان: أحدهما: أنها مرفوعة بغير عمد ترونها؛ قاله قَتَادة وإيّاس بن معاوية وغيرهما. الثاني: لها عمد، ولكنا لانراه؛ قال ٱبن عباس: لها عمد على جبل قاف[1]؛ ويمكن أن يقال على هذا القول: العمد قدرته التي يُمسِك بها ٱلسموات وٱلأرض، وهي غير مرئية لنا؛ ذكره الزّجاج. وقال ٱبن عباس أيضاً: هي توحيد المؤمن. أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر؛ ذكره الغَزْنَوِيّ. والعَمَد جمع عمود؛ قال النابغة:

وخَيِّسِ الجِنَّ إني قد أَذِنْتُ لَهُمْ ... يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[2]

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدّم الكلام فيه. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذَلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مُذلّل للخالق. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة ٱلتي عندها تُكوّر الشمس، ويُخسَف القمر، وتنكدر النّجوم، وتنتثر الكواكب. وقال ٱبن عباس: أراد بالأجل المسمّى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها. وقيل: معنى الأجل المسمّى أن القمر يقطع فَلَكه في شهر، والشمس في سنة. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يصرفه على ما يريد. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي يُبيّنها؛ أي من قدر على هذه الأشياء يقدر على ٱلإعادة؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ لمّا بيّن آيات السّموات بيّن آيات الأرض؛ أي بسط الأرض طولاً وعرضاً. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً ثوابت؛ واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسو بها، أي تثبت؛ والإرساء الثّبوت؛ قال عَنْتَرَة:

فَصَبَـرْتُ عَـارِفَـةً لـذلـك حُـرَّةً ... تَـرْسُـو إذا نَفْـسُ الجَبَـانِ تَطَلَّـعُ

وقال جميل:

أُحِبُّهـا والـذي أَرْسَـى قَـواعِـدَهُ ... حُبًّـا إذا ظَهَـرَت آيـاتُـه بَطَنَـا

وقال ٱبن عباس وعطاء: أوّل جبل وُضع على الأرض أبو قُبَيس[3].

---

(١) هذا من الإسرائيليات.
(٢) خيس: ذلل. وتدمر مدينة في الشام.
(٣) جبل مشرف على المسجد الحرام في مكة.

مسألة: في هذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض[1] كالكرة، وردّ على من زعم أن الأرض تهوِي أبوابها عليها؛ وزعم ابن الرَّاوندي أن تحت الأرض جسماً صَعَّاداً كالرِّيح الصعَّادة؛ وهي منحدرة فاعتدل الهاوي والصعادي في الجِرْم والقوّة فتوافقا. وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين، أحدهما منحدر، والآخر مصعد، فاعتدلا، فلذلك وقفت. والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي مياهاً جارية في الأرض، فيها منافع الخلق. ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ بمعنى صنفين. قال أبو عبيدة: الزوج واحد، ويكون ٱثنين. الفراء: يعني بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى؛ وهذا خلاف النص. وقيل: معنى «زَوْجَيْنِ» نوعان، كالحُلْو والحامض، والرطب واليابس، والأبيض والأسود، والصغير والكبير. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ في الكلام حذف؛ المعنى: وفي الأرض قِطع متجاورات وغير متجاورات؛ كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والمعنى وتقيكم البَرْد، ثم حذف لعلم السامع. والمتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر.

الثانية: قوله تعالى: «مُتَجَاوِرَاتٌ» أي قُرًى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثّمار والتَّمر؛ فيكون البعض حُلْواً، والبعض حامضاً؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثّمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم، وإن ٱنبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد؛ وفي هذا أدلّ دليل على وحدانيته وعِظم صمدِيته، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته؛ فإنه نَبَّهَ سبحانه بقوله: ﴿يُسقىٰ بِمَاءٍ واحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلاّ بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف. وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع؛ فمِن تربة عذبة، ومن

---

(١) ما ذهب إليه المصنف غير صحيح، والصواب أن الأرض كروية تميل إلى البيضوية.

تربة سبِخة مع تجاورهما؛ وهذا أيضاً من دلالات كمال قدرته؛ جلّ وعزّ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيراً.

الثالثة: ذهبت الكفرة ـ لعنهم الله ـ إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع؛ وادّعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرّوا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض. وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً؛ والدليل على أن الحادث لا بدّ له من مُحدِث أنه يَحدُث في وقت، ويَحدُث ما هو من جنسه في وقت آخر؛ فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يَحدُث في وقته كل ما هو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مُخصِّص خَصَّصه به، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وٱستيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ﴾ قرأ الحسن «وَجَنَّاتٍ» بكسر التاء، على التقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على «كل» التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات. الباقون: «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير: وبينهما جنات. ﴿وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ﴾ بالرفع. ٱبن كثير وأبو عمرو وحفص عطفاً على الجنات؛ أي على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نَسَقاً على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجَنّات؛ ويجوز أن يكون معطوفاً على «كُلّ» حسب ما تقدّم في «وجنّات». وقرأ مجاهد والسُّلَميّ وغيرهما «صُنْوَانٌ» بضم الصاد، والباقون بالكسر؛ وهما لغتان؛ وهما جمع صِنْوٍ، وهي النَّخَلات والنَّخلتان، يجمعهن أصلٌ واحد، وتتشعب منه رؤوس فتصير نخيلاً؛ نظيرها قِنْوان، واحدها قِنو: وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال: الصِّنْوان المجتمع، وغير الصِّنْوان المتفرق؛ النحاس: وكذلك هو في اللغة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صِنْوان. والصِّنو المِثل؛ ومنه قول النبي ﷺ:

[٣٧١٥] «عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه». ولا فرق فيها بين التّثنية والجمع، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التّثنية؛ قال الشاعر:

العلـمُ والحلـمُ خُلَّتَا كَـرَمٍ ... للمـرءِ زَيْـنٌ إذا هُمَـا ٱجْتَمَعَـا
صِنْـوانِ لا يُسْتَتَـمُّ حُسنُهُمَـا ... إلاَّ بجمـعِ ذا وذاكَ مَعَـا

[٣٧١٥] هو بعض حديث أخرجه البخاري ١٤٦٨ ومسلم ٩٨٣ من حديث أبي هريرة، وتقدم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد؛ قاله النحاس والبخاريّ. وقرأ عاصم وابن عامر: «يُسْقَى» بالياء، أي يُسقى ذلك كله. وقرأ الباقون بالتاء، لقوله: «جَنَاتٌ» واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة؛ قال أبو عمرو: والتأنيث أحسن؛ لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ ولم يقل بعضه. وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما «وَيُفَضِّلُ» بالياء ردّاً على قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ و«يُفَصِّلُ» و«يُغْشِي» الباقون بالنون على معنى: ونحن نفضل. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول لعليّ رضي الله عنه:

[٣٧١٦] «الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة» ثم قرأ النبي ﷺ ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ حتى بلغ قوله: «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ» و«الأُكُلِ» الثمر. قال ابن عباس: يعني الحلو والحامض والفارسيّ والدّقل[1]. ورُوي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ قال:

[٣٧١٧] «الفارسي والدَّقَل والحُلْو والحامض» ذكره الثعلبيّ. قال الحسن: المراد بهذه الآية المثل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد؛ ومنه قول الشاعر:

النـاسُ كـالنَّبـتِ والنَّبـتُ ألـوان منها شجر الصَّندلِ والكافورِ والبان
* ومنها شجر يَنضحُ طول الدّهرِ قطران *

[٣٧١٦] ضعيف جداً. أخرجه الحاكم ٢/ ٢٤١ من حديث جابر، وصححه، وتعقبه الذهبي، فقال: لا والله. هارون: هالك اهـ. وفي الميزان: هارون بن حاتم سئل عنه أبو حاتم، فقال: أسأل الله السلامة، ثم ذكر الذهبي، له حديث «النظر إلى علي عبادة» فجعله من مناكيره ثم قال: هو باطل.

[٣٧١٧] ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١١٨ وابن جرير ٢٠١٢٦ من حديث أبي هريرة. قال الترمذي حسن غريب. ورواه زيد بن أبي أنيسة عن الأعمش به اهـ. حسنه الترمذي، مع أن في إسناده سيف بن محمد قال الحافظ في التقريب: كذبوه. وقال الذهبي في ميزانه: كذبه أحمد، ويحيى اهـ وتابعه سليمان بن عبيد الله الرقي عند الطبري ٢٠١٢٧ وذكره الذهبي في الميزان به، وقال: قال العقيلي: لم يأت به غير سليمان، ويعرف هذا الحديث بسيف عن الأعمش. قال الذهبي: سيف هالك. وسليمان قال عنه يحيى: ليس بشيء اهـ والأشبه أنه موقوف على ابن عباس، كما في الطبري ٢٠١٢٢، وانظر تفسير الشوكاني ١٢٨٢ بتخريجي.

---

(١) تمر فارسي ممتاز.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث؛ والله تعالى لا يتعجَّب، ولا يجوز عليه التعجّب؛ لأنه تَغيُّر النفس بما تخفى أسبابه، وإنما ذَكَر ذلك ليتعجّب منه نَبيُّه والمؤمنون. وقيل المعنى: أي إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء. وقيل: الآية في منكري الصانع؛ أي إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغيّر فهو محل التعجّب؛ ونظم الآية يدلّ على الأوّل والثاني؛ لقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أي أنبعث إذا كنا تراباً؟! . ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقرىء «إِنَّا». وَ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ جمع غلّ؛ وهو طَوْق تشد به اليد إلى العُنُق، أي يُغلّون يوم القيامة؛ بدليل قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١] إلى قوله: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧٢]. وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيل هو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]. قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقيل: «قَبْلَ الْحَسَنَةِ» أي قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات. و﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ العقوبات؛ الواحدة مَثُلَة. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ «المُثْلاَت» بضم الميم وإسكان الثاء؛ وهذا جمع مُثْلَة، ويجوز «المَثْلاَت» تبدل من الضمة فتحة لثقلها، وقيل: يُؤْتى بالفتحة عِوَضاً من الهاء. وروي عن الأعمش أنه قرأ «ٱلْمَثْلاَت» بفتح الميم وإسكان الثاء؛ فهذا جمع مُثْلة، ثم حذف الضمة

لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله. وعلى قراءة الجماعة واحدة مَثُلة، نحو صَدُقة وصُدقَة؛ وتميم تضم الثاء والميم جميعاً، واحدها على لغتهم مُثْلة، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل: غُرْفة وغُرُفات؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلا، بفتح الميم وسكون الثاء. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا، وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ إذا أصروا على الكفر. وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال:

[٣٧١٨]لما نزلت: «وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب» قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هَنَأَ أحداً عيشٌ ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتَّكَل كل أحد».

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي مُعْلِم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ أي نبيّ يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله؛ أي عليك الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم في سورة «الأنعام» أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده لا شريك له؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

«مفاتيح الغيب خمس» الحديث. وفيه «لا يعلم ما تغيض الأرحام إلاّ الله»[1] واختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾فقال قتادة: المعنىٰ ما تُسقِط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال ابن عباس. وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لما نقص؛ وعنه: الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما ما تزداد

[٣٧١٨] ضعيف ذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٥١٩ فقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن المسيب مرسلاً اهـ ومع إرساله، وفيه علي بن زيد ضعفه غير واحد.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧٨ وتقدم.

منه. وقيل: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها. وقيل: الغيض ٱنقطاع دم الحيض. «وَمَا تَزْدَادُ» بدم النفاس بعد الوضع.

الثانية: في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه. وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض؛ وبه قال أبو حنيفة؛ ودليله الآية. قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيض الحبالى، وكذلك روي عن عِكْرمة ومجاهد؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حِضْن أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع؛ قاله ابن القصّار. وذكر أن رجلين تنازعا ولداً، فترافعا إلى عمر رضي الله عنه فعرضه على القَافَة، فألحقه القَافَة بهما، فَعَلاه عمر بالدرة، وسأل نِسوة من قريش فقال: ٱنظُرْن ما شأن هذا الولد؟ فقلن: إن الأوّل خلا بها وخلّاها، فحاضت على الحمل، فظنّت أن عِدّتها انقضت؛ فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني؛ فقال عمر: الله أكبر! وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لا تحيض، ولا قال ذلك أحد من الصحابة؛ فدلّ أنه إجماع، والله أعلم. احتجّ المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضاً لما صَحّ استبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع. ورُوي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض.

الثالثة: في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر.

الرابعة: وهذه الستة الأشهر هي بالأهِلّة كسائر أشهر الشريعة؛ ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطية.

الخامسة: وٱختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جُرَيج عن جَميلة بنت سعد عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحوّل ظِل المِغْزَل؛ ذكره الدَّارَقُطْنِي. وقالت جَميلة بنت سعد ـ أخت عبيد بن سعد، وعن الليث بن سعد ـ: إن أكثره ثلاث سنين. وعن الشافعي أربع سنين؛ وروي عن مالك في إحدى روايتيه، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروي عنه لا حدّ له، ولو زاد على العشرة الأعوام؛ وهي الرواية الثالثة عنه. وعن الزّهري ست وسبع. قال أبو عمر: ومن الصحابة من يجعله إلى سبع؛ والشافعي: مُدَّةُ الغاية منها أربع سنين. والكوفيون يقولون: سنتان لا غير. ومحمد بن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر. وداود يقول: تسعة أشهر، لا يكون عنده

حمل أكثر منها. قال أبو عمر: وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والرّد إلى ما عُرف من أمر النّساء وبالله التوفيق. رَوى الدّارَقُطْنِيّ عن الوليد بن مسلم قال: قلت لمالك بن أنس إني حدّثت عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قَدْر ظِلّ المِغْزَل، فقال: سبحان الله! مَن يقول هذا؟! هذه جارتنا ٱمرأة محمد بن عَجْلاَن، تحمل وتضع في أربع سنين، ٱمرأة صدق، وزوجها رجل صدق؛ حملت ثلاث أبطن في ٱثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين. وذكره عن[1] المبارك بـنُ مجاهد قال: مشهور عندنا كانت ٱمرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين، وكانت تسمى حاملة الفيل. وروي أيضاً قال: بينما مالك بن دينار يوماً جالس إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيـى! ٱدع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت في كرب شديد؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال: ما يرى هؤلاء القوم إلا أنّا أنبياء! ثم قرأ، ثم دعا، ثم قال: اللّهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها الساعة، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها بـها غلاماً، فإنك تَمْحُو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمّ الكتاب، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال: أدرك ٱمرأتك، فذهب الرجل؛ فما حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْد قَطَطٌ[2] ٱبن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قُطِعت سراره[3]؛ ورُوي أيضاً أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! إني غبت عن ٱمرأتي سنتين فجئت وهي حبلى؛ فشاور عمر الناس في رجمها، فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل؛ فاتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلاماً قد خرجت ثنيتاه؛ فعرف الرجل الشبه فقال: ابني وربّ الكعبة! فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ؛ لولا معاذ لهلك عمر. وقال الضحّاك: وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين، فولدتني وقد خرجت سِنّي. ويذكر عن مالك أنه حمل به في بطن أُمه سنتين، وقيل: ثلاث سنين. ويقال: إن محمد بن عجلان مكث في بطن أُمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطراباً شديداً، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه. وقال حمّاد بن سلمة: إنما سمي هَرِم بن حيان هَرِماً لأنه بقي في بطن أُمه أربع سنين. وذكر الغَزْنَوي أن الضحّاك وُلد لسنتين، وقد طلعت سِنّه فُسمّي ضحّاكاً. عبّاد بن العوّام: ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاماً شعره إلى منكبيه، فمرّ به طير فقال: كش.

---

(١) وفي نسخة «ابن المبارك».

(٢) أي شديد الجعودة.

(٣) سرر الصبي: ما تقطعه القابلة.

السادسة: قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد؛ لأن علم ذلك استأثر الله به، فلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقَدْرِ ما أظهره لنا، ووُجد ظاهراً في النساء نادراً أو معتاداً؛ ولمّا وجدنا ٱمرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك، والنفاس والحيض لَمّا لم نجد فيه أمراً مستقراً رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهنّ.

السابعة: قال ابن العربي: نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر؛ وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالكيّ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبّر الحمل في الرَّحِم الكواكب السبعة؛ تأخذه شهراً شهراً، ويكون الشهر الرابع منها للشمس؛ ولذلك يتحرّك ويضطرب، وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى زُحل، فيُبْقِله بِبَرْده؛ فيا ليتني تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم! ما بال المرجع بعد تمام الدّور يكون إلى زُحل دون غيره؟ آلله أخبركم بهذا أم على الله تفترون؟! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثاً؟! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة!.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: «بمقدار» قدر خروج الولد من بطن أمّه، وقَدْر مكثه في بطنها إلى خروجه. وقال قَتَادة: في الرزق والأجل. والمقدار القَدْر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم.

قلت: هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعالى بها بأنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهِدوه. فالغيب مصدر بمعنى الغائب. والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبّه سبحانه على ٱنفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد؛ فأما أهل الطبّ الذين يستدلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تُرِكوا وما هم عليه، ولم يَقدَح ذلك في الممدوح؛ فإن العادة يجوز ٱنكسارها، والعلم لا يجوز تبدّله. و﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء دونه. ﴿ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ عما يقول المشركون، المستعلي على كل شيء بقدرته وقَهْره؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ إسرار القول: ما حَدَّث به المرءُ نفسه، والجهر ما حدَّث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. و«مِنكُمْ» يحتمل أن يكون وصفاً لـ«سواء» التقدير: سِرُّ مَن أَسَرَّ وَجَهْرُ مَن جَهَر سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق «بسواء» على معنى: يستوي منكم، كقولك: مررت بزيد. ويجوز أن يكون على تقدير: سِر من أَسَرّ منكم وجَهْر من جَهَر منكم. ويجوز أن يكون التقدير: ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، كما تقول: عدل زيد وعمرو أي ذوا عدلٍ. وقيل: «سواء» أي مستوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف. ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ أي يستوي في علم الله السرّ والجهر، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات. وقال الأخفش وقُطْرُب: المستخفي بالليل الظاهر؛ ومنه خَفَيتُ الشيء وأَخْفَيته أي أظهرتُه؛ وأخفيت الشيء أي ٱستخرجته؛ ومنه قيل لِلنَّبَّاشِ: المختفي. وقال ٱمرؤ القيس:

خَفَـاهُـنَّ مِـن أَنْفَـاقِهِـنّ كَـأَنَّمَـا خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ[1]

والسّارب المتواري، أي الداخل سَرَباً؛ ومنه قولهم: ٱنسَرَب الوحشيُّ إذا دخل في كِنّاسه. وقال ابن عباس: «مُسْتَخْفٍ» مستتر، «وَسَارِبٌ» ظاهر. مجاهد: «مُسْتَخْفٍ» بالمعاصي، «وَسَارِبٌ» ظاهر. وقيل: معنى «سَارِبٌ» ذاهب؛ قال الكسائي: سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَباً وسُرُوباً إذا ذهب؛ وقال الشاعر[2]:

وكُـلُّ أنـاسٍ قَـارَبُـوا قَيْـدَ فَحْلِهِـمْ ونَحْـنُ خَلَعْنَـا قَيْـدَهُ فهـو سَـارِبُ

أي ذاهب. وقال أبو رجاء: السّارب الذاهب على وجهه في الأرض؛ قال الشاعر[3]:

* أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقال القُتَبيّ: «سَارِبٌ بِالنَّهارِ» أي منصرف في حوائجه بسرعة؛ من قولهم؛ ٱنْسَرَب الماء. وقال الأصمعيّ: خَلِّ سَرْبَه أي طريقه.

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا صعِدت

---

(١) النفق: طريق في الأرض يصل إلى موضع آخر. والودق: المطر.

(٢) هو الأخنس بن شهاب التغلبي.

(٣) هو قيس بن الخطيم.

ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار. وقال: «مُعَقِّبَاتٌ» والملائكة ذُكْرَان لأنه جمع مُعقِّبة؛ يقال: مَلَك مُعقِّب، وملائكة مُعقِّبة، ثم مُعقِّبات جمع الجمع. وقرأ بعضهم ـ «لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ». ومعاقيب جمع مُعْقِب؛ وقيل للملائكة معقّبة على لفظ الملائكة. وقيل: أنّث لكثرة ذلك منهم؛ نحو نسّابة وعلاّمة وراوية؛ قاله الجوهري وغيره. والتّعقب العود بعد البدء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]أي لم يَرجع؛ وفي الحديث:

[٣٧١٩] «مُعَقِّبَاتٌ لا يَخِيبُ قَائِلُهنّ ـ أو ـ فاعلُهنّ» فذكر التسبيح والتحميد والتكبير. قال أبو الهيثم: سُمّين «مُعقِّبات» لأنهن عادت مرّة بعد مرّة، فِعْل من عَمِل عَملاً ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ. والمعقّبات من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض؛ فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى. وقوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي المستخفي بالليل والسارب بالنهار. ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ اختلف في هذا الحفظ؛ فقيل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرّة، لطفاً منه به، فإذا جاء القَدَر خلّوا بينه وبينه؛ قاله ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. قال أبو مِجلَز: جاء رجل من مُرَاد[1] إلى علي فقال: احترس فإن ناساً من مُرَاد يريدون قتلك؛ فقال: إن مع كل رجل مَلَكين يحفظانه ما لم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَر خلَّيَا بينه وبين قَدَر الله، وإن الأجل حِصن حصينة؛ وعلى هذا، «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» أي بأمر الله وبإذنه؛ فـ«مِن» بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقيل: «مِنْ» بمعنى «عن»؛ أي يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأوّل؛ أي حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم؛ وهذا قول الحسن؛ تقول: كسوته عن عُرْي ومن عُرْي؛ ومنه قوله عز وجل: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾[قريش: ٤] أي عن جوع. وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تحلّ به عقوبة؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من النّعمة والعافية حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصرُّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة، وتزول عنهم الحَفَظَة المعقبات. وقيل: يحفظونه من الجِنّ؛ قال

[٣٧١٩] صحيح. أخرجه مسلم ٥٩٦ والترمذي ٣٤٠٩ والنسائي ٣/٧٥ وفي اليوم والليلة ١٥٥ و ١٥٦ من حديث كعب بن عجرة.

---

(١) قبيلة من قبائل العرب.

كعب: لولا أن الله وَكَّل بكم ملائكة يَذبُّون عنكم في مَطْعَمكم وَمَشْرَبكم وعوراتم لَتخطَّفتكم الجِنّ. وملائكة العذاب من أمر الله؛ وخصّهم بأن قال: «مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» لأنهم غير معايَنين؛ كما قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] أي ليس مما تشاهدونه أنتم. وقال الفرّاء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره، له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه؛ وهو مرويّ عن مجاهد وٱبن جُرَيج والنَّخعيّ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجِنّ من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير، وقال ٱبن جريج: إن المعنى يحفظون عليه عمله، فحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أقواله وأفعاله. ويجوز إذا كانت المعقّبات الملائكة أن تكون الهاء في «له» لله عزّ وجل، كما ذكرنا؛ ويجوز أن تكون للمستخفي، فهذا قول. وقيل: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» يعني به النبي ﷺ؛ أي أن الملائكة تحفظه من أعدائه؛ وقد جرى ذكر الرسول في قوله: «لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ» أي سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به في أنه لا يضرّ النبي ﷺ، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام؛ ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال: «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» أي يحفظون الهادي من بين يديه ومن خلفه. وقول رابع: أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئاً؛ قاله ابن عباس وعِكْرِمة؛ وكذلك قال الضّحاك: هو السّلطان المتحرّس من أمر الله، المِشركُ. وقد قيل: إن في الكلام على هذا التأويل نفياً محذوفاً، تقديره: لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره الماورديّ. قال المهدويّ: ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى: يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه. وقيل: سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي، ويحفظونه من أن ينجَع فيه وعظٌ؛ قال القُشَيريّ: وهذا لا يمنع الرّب من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب؛ وهو إذا غَيَّرَ هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سبباً للعقوبة؛ فكأنّه الذي يحلّ العقوبة بنفسه؛ فقوله: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» أي من ٱمتثال أمر الله. وقال عبد الرحمن بن زيد: المعقّبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عباده؛ قال الماورديّ: ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» وجهان: أحدهما: يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل؛ قاله الضحاك. الثاني: يحفظونه من الجِنّ والهوامّ المؤذية، ما لم يأت قَدَرٌ؛ ـ قاله أبو أمامة وكعب الأحبار ـ فإذا جاء المقدور خلّوا عنه؛ والصحيح أن المعقّبات الملائكة، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وٱبن جريج؛ ورُوي عن ابن عباس، واختاره النحاس، وٱحتج بقول النبي ﷺ:

[٣٧٢٠] «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديثَ، رواه الأئمة. وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ ـ معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه من أمر الله يحفظونه فهذا قد بيّن المعنى. وقال كِنَانة العَدَويّ: دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أخبرني عن العبد كم معه من مَلَك؟ قال:

[٣٧٢١] «مَلَك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عَمِلت حسنة كُتبت عشراً وإذا عمِلت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أأكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى أو يتوب إليه فإذا قال ثلاثاً قال نعم أكتب أراحنا الله تعالى منه فبئس القرين هو ما أقلّ مراقبته لله عز وجل وأقل استحياءه منا يقول الله تعالى ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] ومَلَكَان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ» وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعتَ لله رفعك وإذا تَجَبَّرْتَ على الله قَصَمكَ وملَكَان على شَفَتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله ومَلَك قائم على فِيك لا يدع أن تدخل الحيّة في فِيك وملَكَان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون مَلَكاً على كل آدمي وإبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل». ذكره الثعلبيّ. قال الحسن: المعقّبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر. واختيار الطَّبريّ: أن المعقّبات المواكب بين أيدي الأمراء وخَلْفهم؛ والهاء في «له» لهنّ؛ على ما تقدّم. وقال العلماء رضوان الله عليهم: إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين: أحدهما: قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره. والآخر: قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشَّريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال ﷺ ـ وقد سُئل أنَهلِك وفينا الصّالحون؟ قال:

[٣٧٢٠] صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥ وقد مضىٰ.

[٣٧٢١] ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٢٠١١ عن كتابة مرسلاً، ومع إرساله عبد الحميد بن جعفر فيه ضعف، وإبراهيم بن عبد السلام القشيري، مجهول، والخبر شبه موضوع وقال ابن كثير ٢/ ٦٢١: غريب جداً.

[٣٧٢٢] «نعم إذا كَثُر الْخُبْثُ». والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ أي هلاكاً وعذاباً، ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾. وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه. وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفة بكفه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ أي ملجأ؛ وهو معنى قول السُّدي. وقيل: من ناصر يمنعهم من عذابه؛ وقال الشاعر:

* ما في السماء سوى الرحمنِ من وَالِ *

ووَالٍ ووَليّ كقادر وقدير.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾ أي بالمطر. «والسَّحاب» جمع، والواحدة سَحَابة، وسُحُب وسَحَائب في الجمع أيضاً. ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ قد مضى في «البقرة» القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته؛ وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز؛ أي يريكم البرق في السماء خوفاً للمسافر، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق؛ قال الله تعالى: ﴿أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢] وطمعاً للحاضر أن يكون عقبه مطر وخِصْب؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما. وقال الحسن: خوفاً من صواعق البرق، وطمعاً في غيثه المزيل للقحط. «وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ» قال مجاهد: أي بالماء. «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ» من قال إن الرّعد صوت السحاب فيجوز أن يُسبّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه؛ ودليل صحة هذا القول قوله: «وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ» فلو كان الرّعد مَلَكاً لدخل في جملة الملائكة. ومن قال إنه ملك قال: معنى. «مِنْ خِيفَتِهِ» من خيفة الله؛ قاله الطَّبَريّ وغيره. قال ابن عباس: إن الملائكة خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال: الرّعد ملَك يَسوق

[٣٧٢٢] صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٦ ومسلم ٢٨٨٠ من حديث زينب بنت جحش في خبر يأجوج ومأجوج، والسائلة هي زينب رضي الله عنها.

السّحاب، وإن بخار الماء لفي نُقْرة إبهامه، وأنه مُوَكّل بالسّحاب يصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبّح الله؛ فإذا سبّح الرّعد لم يبق مَلَك في السّماء إلا رفع صوته بالتّسبيح، فعندها ينزل القَطْر، وعنه أيضاً كان إذا سمع صوت الرّعد قال: سبحان الذي سَبَّحَت له. وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه[1] أنه كان إذا سمع صوت الرّعد قال: سبحان الذي يُسَبِّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد. وقيل: إنه مَلَك جالس على كرسيّ بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبّح سبّح الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسَبّح سَبّح الجميع من خوف الله. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ذكر الماورديّ عن ابن عباس وعليّ بن أبي طالب ومجاهد: نزلت في يهوديّ قال للنبيّ ﷺ: أخبرني! مِن أيّ شيء ربّك، أمِن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته[2]. وقيل: نزلت في بعض كفّار العرب؛ قال الحسن: كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي ﷺ نَفَراً يدعونه إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم: أخبروني عن ربّ محمد ما هو، ومِمّ هو، أمِن فضة أم من حديد أم نحاس؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال: أُجِيبُ محمداً إلى ربّ لا يعرفه! فبعث النبي ﷺ إليه مراراً وهو يقول مثل هذا؛ فبينا النَّفَر ينازعونه ويدعونه إذ ٱرتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبي ﷺ فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: ٱحترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبيّ ﷺ. «وَيُرسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ»[3] ذكره الثعلبي عن الحسن؛ والقشيري بمعناه عن أنس، وسيأتي. وقيل: نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لَبِيد بن ربيعة، وفي عامر بن الطُّفَيْل؛ قال ابن عباس: أقبل عامر بن الطُّفَيْل وأَرْبَد بن ربيعة العامريان يريدان النبي ﷺ وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور، وكان من أجمل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: هذا يا رسول الله عامر بن الطُّفَيْل قد أقبل نحوك؛ فقال:

[٣٧٢٢ م]«دَعْه فإن يُرِد الله به خيراً يَهْدِه» فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي

[٣٧٢٢] أورده الواحدي في الأسباب ٥٤٧ عن ابن عباس بدون إسناد. وأخرجه الطبراني في الكبير ١٠٧٦٠ =

---

(١) هو ابن الزبير.

(٢) يأتي برقم: ٣٧٢٥

(٣) هذا مرسل، ومراسيل الحسن واهية.

إن أسلمت؟ فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين». قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس ذاك إليّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء». قال: أفتجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال: «لا». قال: فما تجعل لي؟ قال: «أجعل لك أَعِنّة الخيل تغزو عليها في سبيل الله». قال: أو ليس لي أعنّة الخيل اليوم؟ قم معي أكلمك؛ فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامر أومأ إلى أَرْبَد: إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه وٱضربه بالسيف؛ فجعل يخاصم النبي ﷺ ويراجعه؛ فاخترط أَرْبَدْ من سيفه شبراً ثم حبسه الله، فلم يقدر على سَلّه، ويَبست يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائفٍ صاحٍ فأحرقته، وولّى عامر هارباً وقال: يا محمد! دعوت ربك على أربد حتى قتلته؛ والله لأملأنها عليك خيلاً جُرْداً، وفتياناً مُرْداً؛ فقال عليه السلام: «يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة» يعني الأوْس والخَزْرَج؛ فنزل عامر بيت ٱمرأة سَلولية؛ وأصبح وهو يقول: والله لئن أَصْحَرَ[1] لي محمدٌ وصاحبه ـ يريد مَلَك الموت ـ لأنفذتهما برمحي؛ فأرسل الله مَلَكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التراب؛ وخرجت على ركبته غُدَّة عظيمة في الوقت؛ فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول: غُدّة كغدة البعير، وموت في بيت سَلُولية؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره. ورَثَى لَبيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال:

يـا عيـنُ هـلاّ بَكَيـتِ أَرْبَـدَ إِذْ قُمْـ	ـنَـا وقـامَ الخُصُـوم فـي كَبَـد[2]
أَخْشَـى علـى أَرْبَـدَ الحُتُـوفَ وَلاَ	أَرْهَـبُ نَـوْءَ السِّمَـاك وَالأَسَـد
فَجَّعَنـي الـرَّعْـدُ والصَّـوَاعِـقُ بـالفا	رِسِ يَـوْمَ الْكَـرِيهَـةِ النَّجِـدِ[3]

وفيه قال:

إن الـرَّزِيَّـةَ لاَ رَزِيَّـةَ مِثْلُهَـا	فِقْدَانُ كُـلِّ أخٍ كضـوء الْكَـوْكَـبِ
يـا أَرْبَـدَ الخيـرِ الكـريـمَ جُـدُودُهُ	أفـردَتنِـي أَمشِـي بقَـرْنٍ أعْضَـب

وأسلم لبِيد بعد ذلك رضي الله عنه.

مسألة: روى أَبَان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

= وفي الأحاديث الطوال (٣٧) من حديث ابن عباس قال الهيثمي في المجمع ٧/٤١/١١٠٩١: في إسنادهما عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف اهـ. والمتن غريب.

---

(١) أصحر الرجل: إذا خرج إلى الصحراء.

(٢) الكَبَدُ: العناء والتعب.

(٣) النجد: سريع الإجابة.

[٣٧٢٣] «لا تأخذ الصاعقة ذاكراً لله عزّ وجلّ». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول:

[٣٧٢٤] «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته». وذكر الخطيب من حديث سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال[١]: كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد، فقال لنا كعب: من قال حين يسمع الرعد: سبحان من يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خِيفته ثلاثاً عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإذا بَرَدَة قد أصابت أنفه فأثّرت به، فقلت: يا أمير المؤمنين ما هذا؟ قال بَرَدَة أصابت أنفي فأثرت، فقلت: إن كعباً حين سمع الرعد قال لنا: من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عُوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ فقلنا فعوفِينا؛ فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتىٰ نقولها؟[١] وقد تقدّم هذا المعنىٰ في «البقرة».

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني جدال اليهوديّ حين سأل عن الله تعالى: من أيّ شيء هو؟ قاله مجاهد. وقال ٱبن جُرَيج: جدال أَرْبَدَ فيما همّ به من قتل النبي ﷺ. ويجوز أن يكون، «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ» حالاً، ويجوز أن يكون منقطعاً. وروى أنس أن رسول الله ﷺ بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل، فقال لرسول الله ﷺ:

[٣٧٢٥] أخبرني عن إلهك هذا! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس؟ فاستعظم ذلك؛ فرجع إليه فأعلمه؛ فقال: «ٱرجع إليه فادعه» فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله ﷺ وقد نزل: «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ». ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾ قال ابن

[٣٧٢٣] ضعيف جداً، فيه أبان وهو ابن أبي عياش اتهمه شعبة بالكذب، وأخرجه الطبراني كما في المجمع ١٠/ ١٣٦ من حديث ابن عباس بنحوه، وقال الهيثمي: في يحيىٰ بن ثير ضعيف اهـ.

[٣٧٢٤] هو ملفق من حديثين. فقد أخرج الطبري ٢٠٢٦٠ من حديث أبي هريرة «أنه ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد، قال: سبحان من يسبح الرعد بحمده وفيه راوٍ يسمَّ ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٧ موقوفاً عن ابن عباس بلا سند بمثل لفظ المصنف، إلا أن صدره: «من سمع صوت الرعد...».

[٣٧٢٥] أخرجه أبو يعلى ٣٣٤١ والطبري ٢٠٢٧٠ والبزار ٢٢٢١ من حديث أنس، وإسناد أبي يعلى حسن رجاله كلهم ثقات، وله شواهد مرسلة انظر الطبري ٢٠٢٦٦ و٢٠٢٦٧ و ٢٠٢٧١ وبرقم ٢٠٢٦٩ عن علي، لكن فيه سيف ابن أخت الثوري، وهو واهٍ.

---

(١) لا يصح، سليمابن بن علي العباسي. مجهول.

الأعرابي: «المِحال» المكر، والمكر من الله عزّ وجلّ التدبير بالحق. النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» أي النقمة. وقال الأزهريّ: «المحال» أي القوّة والشدّة. والْمَحْل: الشدّة؛ الميم أصلية، وماحَلْتُ فلاناً مِحَالاً أي قاويته حتى يتبيّن أينا أشدّ. وقال أبو عبيد: «المحال» العقوبة والمكروه. وقال ابن عَرَفة: «المِحال» الجدال؛ يقال: ماحَلَ عن أمره أي جادل. وقال القُتَيبِيّ: أي شديد الكيد؛ وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوّله ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: مِهاد ومِلاك ومِرَاس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو مثل: مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر، وغيرها من الحروف؛ وقال: وقرأ الأعرج ـ «وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَال» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الْهَرَوِيّ، إلا ما ذكرناه أوّلاً عن ابن الأعرابيّ؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها: شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها: شديد الْحَوْل، قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها: شديد الأخذ، قاله عليّ بن أبي طالب. ورابعها: شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها: شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها: شديد الغضب، قاله وهب بن مُنَبّه. وسابعها: شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضاً. وثامنها: شديد الحيلة؛ قاله قَتَادة. وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المِحال والمماحلة المماكرة والمغالبة؛ وأنشد للأعشى:

فرع نَبْعٍ يَهْتَزُّ في غُصُنِ الْمَجْـ ـدِ كثير النَّدَى شديد المحال

وقال آخر[1]:

ولَبْسٍ بَيْنَ أقوامٍ فكُلٌّ أَعَدَّ له الشَّغَازِبَ[2] والْمِحَالاَ

وقال عبد المطلب:

لا هُمَّ إنّ الْمَرْءَ يَمْـ ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلاَلَكَ[3]
لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُم وَمِحَالُهُمْ عَدْواً مِحَالَك

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى

---

(١) هو ذو الرمة.
(٢) هو أن يدخل الرجل بين رجلي خصمه، فيصرعه.
(٣) الحِلال ـ بكسر الحاء ـ المجاورون للحرم.

﴿ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي لله دعوة الصدق. قال ابن عباس وقَتَادة وغيرهما: لا إله إلا الله. وقال الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق. وقيل: إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق؛ قاله بعض المتأخرين. وقيل: دعوة الحق دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه، كما قال: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ قال الْمَاوَرْدِيّ: وهو أشبه بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام والأوثان. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء. ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلاً ليأسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مَثَلا بالقابض الماء باليد؛ قال:

فأصبحتُ فيما كان بَيْني وبينها ... من الودّ مثلَ القابِض الماء باليدِ

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: أحدها: أن الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فِيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه؛ قاله مجاهد. الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفّه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه؛ قاله ابن عباس. الثالث: أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شيء منه. وزعم الفراء أن المراد بالماء هاهنا البئر؛ لأنها معدن للماء، وأن المثل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رِشاء؛ وشاهده قول الشاعر:

فإن الماءَ ماءُ أَبِي وجَدّي ... وبِئري ذُو حَفَرْتُ وذُو[1] طَوَيْتُ

قال علي رضي الله عنه: هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغ قعر البئر، ولا الماء يرتفع إليه؛ ومعنى «إِلاَّ كَبَاسِطِ» إلا كاستجابة باسط كفيه «إِلَى الْمَاءِ» فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم حذف المضاف؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء؛ والمعنى: إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء؛ واللام في قوله: «لِيَبْلُغَ فَاهُ» متعلقة بالبسط؛ وقوله: «وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ» كناية عن الماء؛ أي وما الماء ببالغ فاه. ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم؛ أي ما الفم ببالغ الماء. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، لأنها شرك. وقيل: إلا في ضلال أي يضلّ عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه سبيلاً؛ كما قال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟

(١) «ذو» هاهنا موصولة بمعنى الذي، وليست من الأسماء الستة.

ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧] وقال ابن عباس: أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقَتَادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كَرهاً بالسيف. وعن قَتَادة أيضاً: يسجد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: سجود الكافر كَرها ما فيه من الخضوع وأثر الصّنعة. وقال ابن زيد: «طَوْعاً» من دخل في الإسلام رغبة، و«كَرها» من دخل فيه رهبة بالسيف. وقيل: «طوعاً» من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و«كَرها» من يكره نفسه لله تعالى؛ فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «وَالأَرْضِ» وبعض من في الأرض. قال القُشَيْرِي: وفي الآية مسلكان: أحدهما: أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعاً، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين؛ فالآية محمولة على هؤلاء، ذكره الفرّاء. وقيل على هذا القول: الآية في المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعاً لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقّة، ولكنهم يتحملون المشقّة إخلاصاً وإيماناً، إلى أن يألفوا الحق ويَمْرُنوا عليه. والمسلك الثاني: ـ وهو الصحيح ـ إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما: أن المؤمن يسجد طوعاً، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ به. والثاني: ـ وهو الحق ـ أن المؤمن يسجد ببدنه طوعاً، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا كقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥] أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدوّ والآصال؛ لأنها تبين في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨] قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: ظِل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع؛ وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره. وقال ٱبن الأنباريّ: يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخشع بها، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت. قال القُشَيري: في هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة أي مالت. و«الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛

وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائِل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلي:

لَعَمْرِي لأَنْتَ البيتُ أُكرِمُ أَهلَهُ   وأَقعدُ في أَفْيَائِهِ بِالأَصَائِلِ

و«ظِلاَلُهُمْ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ» ويجوز أن يكون ٱرتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ التقدير: وظلالُهم سُجّدٌ بالغدوّ والآصال و«بالغدوّ» يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوّي كونه جمعاً مقابلة الجمع الذي هو الآصال به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ» ثم أمره أن يقول لهم: هو الله إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا مَن هو. ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا يدلّ على ٱعترافهم بأن الله هو الخالق وإلا لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معنى؛ دليله قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] أي فإذا ٱعترفتم فَلِمَ تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرّ؛ وهو إلزام صحيح. ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق، والمشرك الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مَثَلٌ لما عبدوه من دون الله، والبصير مَثَلُ الله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي الشرك والإيمان. وقرأ ٱبن محيصِن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي «يستوي» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقي. الباقون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل. و«الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك. ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أي خَلَق غير الله مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء. والآية ردّ على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله. ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ قبل كل شيء. ﴿ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ الغالب لكل شيء، الذي يغلب في مراده كل مريد. قال القُشَيريّ أبو نصر: ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع؛ أي سَلْهُم عن خالق السموات والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم، ويقرب الأمر من

الضرورة؛ فإن عَجْز الجماد وعَجْز كل مخلوق عن خلق السموات والأرض معلوم؛ وإذا تقرّر هذا وبَانَ أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداء الشريك له؟! وبيّن في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟!

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ﴾ ضرب مثلاً للحق والباطل؛ فشبَّه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحلّ ويعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ، على ما نبيّنه. قال مجاهد: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا» قال: بقدر ملئها. وقال ابن جُرَيج: بقدر صغرها وكبرها. وقرأ الأَشْهَبُ العُقَيْلي والحسن «بِقَدْرِهَا» بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل: معناها بما قدّر لها. والأودية جمع الوادي؛ وسمّي وادياً لخروجه وسيلانه؛ فالوادي على هذا آسم للماء السائل. وقال أبو علي: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ» توسع؛ أي سال ماؤها فحذف؛ قال ومعنى «بِقَدَرِهَا» بقدر مياهها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. «فَٱحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً» أي طالعاً عالياً مرتفعاً فوق الماء، وتمّ الكلام؛ قاله مجاهد. ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ وهو المثل الثاني. ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي حلية الذهب والفضة. ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قال مجاهد: الحديد والنحاس والرصاص. وقوله: «زَبَدٌ مِثْلُهُ» أي يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبداً، كذلك ما يوقد عليه من النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنبتّ فِي الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ﴾ قال مجاهد: جموداً. وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء: أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ إذا غَلَت حتى ينصبّ زَبَدُها، وإذا جَمَد في أسفلها. والجُفاء ما أجفاه الوادي أي رمَى به. وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ «جُفَالاً» قال أبو عبيدة: يقال أَجْفَلَت القِدْرُ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا

قطعته. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ قال مجاهد: هو الماء الخالص الصّافي. وقيل: الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص؛ وهو أن المثَلين ضربهما الله للحقّ في ثباته، والباطل في اضمحلاله، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحلّ كاضمحلال الزّبد والخَبَث. وقيل: المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب؛ فَشبَّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه، وشَبَّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها. قال ابن عباس: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» قال: قرآناً؛ «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا» قال: الأودية قلوب العباد. قال صاحب[1] «سوق العروس» إن صحّ هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مَثّل القرآن بالماء. ومَثّل القلوب بالأودية، ومثل المُحْكَم بالصّافي، ومثل المتشابة بالزّبد. وقيل: الزبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تِلَعها، كما أن ماء السّيل يجري صافياً فيرفع ما يجد في الوادي باقياً، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السَّنية. والأخلاق الزّكية؛ التي بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذّهب والفضّة زينة النّساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص «يُوقِدُونَ» بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقوله: «يَنْفَعُ النَّاس» فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا. الباقون بالتاء لقوله في أول الكلام: «أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» الآية. وقوله: «فِي النَّارِ» متعلق بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الهاء التي في «عَلَيْهِ» التقدير: ومما توقدون عليه ثابتاً في النار أو كائناً. وفي قوله: «فِي النَّارِ» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي ٱسم ذي الحال ولا يستقيم أن يتعلق «فِي النَّارِ» بـ«يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدتُ عليه في النار؛ لأن الموقَد عليه يكون في النَّار، فيصير قوله: «فِي النَّارِ» غير مفيد. وقوله: «ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ» مفعول له. «زَبَدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر؛ أي زبد مثل زبد السّيل. وقيل: إن خبر «زبد» قوله: «فِي النَّارِ» الكسائي: «زَبَدٌ» ابتداء، و«مِثْلُهُ» نعت له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو «مِمَّا يُوقِدُونَ». ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ أي كما بيّن لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بيّنات. تم الكلام، ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ أي أجابوا؛ واستجاب بمعنى أجاب؛ قال[2]:

فلَـمْ يَسْتَجِبْه عند ذاكَ مُجِيـب

وقد تقدم؛ أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات. ﴿ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ لأنها في

---

(١) هو أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري. له كتاب في القراءات «سوق العروس» توفي سنة ٤٧٨.

(٢) هو كعب بن سعد الغنوي.

نهاية الحسن. وقيل: من الحسنى النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غداً. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ أي لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي من الأموال. ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ ملك لهم. ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره في «آل عمران» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، [آل عمران: ١٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]حسب ما تقدم بيانه هناك. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فَرْقَدٌ السَّبَخِيّ[1] قال لـي إبراهيم النَّخعيّ: يا فَرْقَد! أتدري ما سوء الحساب؟ قلت لا! قال أن يحاسَب الرجل بذنبه كلّه لا يفقد منه شيء. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي مسكنهم ومقامهم. ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٨﴾ أي الفراش الذي مهدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، ورُوي أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأبي جهل لعنه الله. والمراد بالعَمَى عَمَى القلب، والجاهل بالدين أعمى القلب. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوي الألباب، أي إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد اسم للجنس؛ أي بجميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصّى بها عَبيده؛ ويدخل في هذه الألفاظ التزامُ جميع الفروض، وتجنبُ جميع المعاصي. وقوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أي إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه. قال قَتَادة: تقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم. وقال القَفّال: هو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات.

الثانية: روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال:

---

(١) نسبة إلى سبخة موضع بالبصرة.

[٣٧٢٦] «ألا تبايعون رسول الله ﷺ» وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك حتىٰ قالها ثلاثاً؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل: يا رسول الله! إنا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتُصلّوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتُطيعوا ـ وأسرّ كلمةً خَفِيَّةً ـ قال لا تسألوا الناس شيئاً». قال: ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَوْطه فما يسأل أحداً أن يناوله إيّاه. قال ابن العربي: من أعظم المواثيق في الذكر ألاّ يُسأل سواه؛ فقد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العبّاد سمع أن أناساً بايعوا رسول الله ﷺ ألاّ يسألوا أحداً شيئاً، الحديث؛ فقال أبو حمزة: ربِّ! إن هؤلاء عاهدوا نبيّك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألاّ أسأل أحداً شيئاً؛ قال: فخرج حَاجًّا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق؛ فلما حلّ في قعره قال: أستغيث لعل أحداً يسمعني. ثم قال: إن الذي عاهدته يراني ويسمعني، والله! لا تكلمت بحرف للبشر، ثم لم يلبث إلا يسيراً إذ مرّ بذلك البئر نفر، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سدّ هذا البئر؛ ثم قطعوا خشباً ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال: هذه مهلكة، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله! لا أخرج منها أبداً؛ ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس قد عاهدت مَن يراك؟ فسكَتَ وتوكّل، ثم ٱستند في قعر البئر مفكراً في أمره فإذا بالتراب يقع عليه؛ والخشب يرفع عنه، وسمع في أثناء ذلك من يقول: هات يدك! قال: فأعطيته يدي فأقلّني في مرة واحدة إلى فم البئر، فخرجت فلم أر أحداً؛ فسمعت هاتفاً يقول: كيف رأيت ثمرة التوكل؛ وأنشد:

نَهانِي حَيائِي منكَ أن أكشفَ الهوى ... فأغنيتني بالعِلْم منكَ عن الكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللّطفُ يُدرَكُ باللُّطْفِ
تَـراءيـتَ لـي بـالعلـم حتـى كـأنمـا ... تُخَبِّـرُنـي بـالغيـب أنّـكَ فـي كـفِّ
أَرانِي وبِي من هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةٌ ... فتؤنِسُني باللُّطف مِنكَ وبالعطف
وتُحيِـي مُحِبًّا أنت في الحبِّ حَتْفُهُ ... وذا عَجبٌ كيف الحياةُ مَعَ الْحَتْفِ

قال ٱبن العربي: هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا. قال أبو الفرج الجوزيّ: سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه، وذلك لا يحلّ؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي

[٣٧٢٦] صحيح. أخرجه مسلم ١٠٤٣ وأبو داود ١٦٤٢ والنسائي ١/٢٢٩ وابن ماجه ٢٨٦٧ وابن حبان ٣٣٨٥ من حديث عوف بن مالك.

ٱستغاثته في تلك الحالة؛ كما لم يخرج رسول الله ﷺ من التوكل بإخفائه الخروجَ من مكة، وٱستئجاره دليلاً، وٱستكتامه ذلك الأمر، وٱستتاره في الغار، وقوله لسُرَاقة: «اخْفِ عَنّا»[1]. فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور؛ وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه، وبيان ذلك أن الله تعالىٰ قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر، والة يجتلب بها النفع، فإذا عطلها مدّعياً للتوكل كان ذلك جهلاً بالتوكل، وردّاً لحكمة التواضع؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطع الأسباب؛ ولو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان الثّوري وغيره، لأنه قد دلّ على طريق السلامة، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه. وقال أبو الفرج: ولا التفات إلى قول أبي حمزة: «فجاء أسد فأخرجني» فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله ٱتفاقاً، وقد يكون لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل، ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به، إنما ينكر فعله الذي هو كَسْبه، وهو إعانته على نفسه التي هي وديعة لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهر في صلة الأرحام، وهو قول قَتَادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: في قطع الرَّحم. وقيل: في جميع المعاصي. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾. سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن نوقش الحساب عُذّب. وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَير: معنى. «يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ» الإيمانُ بجميع الكتب والرسل كلهم. الحسن: هو صلة محمد ﷺ. ويحتمل رابعاً: أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح؛ «وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» فيما أمرهم بوصله، «وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» في تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: «الَّذِينَ» مستأنف؛ لأن «صَبَرُوا» ماض فلا ينعطف على «يُوفونَ». وقيل: هو من وصف مَن تقدّم، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان «الَّذِينَ» يتضمن الشرط والماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال: «الَّذِينَ

(١) هو بعض خبر هجرة رسول الله ﷺ أخرجه البخاري ٣٩٠٦ في أثناء حديث طويل.

يُوفُونَ» ثم قال: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا» ثم عطف عليه فقال: «وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ» قال ٱبن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله. وقال عطاء: صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب. وقال أبو عِمْران الْجَوْني: صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أدّوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها. ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في «البقرة» وغيرها. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون بالعمل الصالح السَّيىء من الأعمال، قاله ابن عباس. ٱبن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضّحاك: يدفعون الفحش بالسلام. جُوَيبِر: يدفعون الظلم بالعفو. ٱبن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَبي: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسّفه السّيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إلٰه إلا الله؛ فهٰذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] ومنه قوله عليه السلام لمعاذ:

[٣٧٢٧] «وَأَتْبِعْ السّيئة الحَسَنَةَ تَمْحُهَا وخَالِق الناسَ بِخُلُق حَسَن». قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ أي عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، والدار غداً داران: الجنة للمطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عنى بالدار دار الدنيا؛ أي لهم جزاء ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي لهم جنات عدن؛ فـ«ـجَنَّاتُ عَدْنٍ» بدل من «عُقْبَى» ويجوز أن تكون تفسيراً لـ«ـعُقْبَى الدَّارِ» أي لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عُقْبَى الدَّارِ» حَدَثَ و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» عين، والحدث إنما يفسر بحدَث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ» خبر ابتداء محذوف. و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» وسط الجنة وقَصَبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيري أبو نصر عبد الملك. وفي صحيح البخاري:

[٣٧٢٨] «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه

[٣٧٢٧] أخرجه الترمذي ١٩٨٧ وغيره، ويأتي إن شاء الله.

[٣٧٢٨] صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٩٠ و ٧٤٢٣ وأحمد ٢/٣٣٥ وابن حبان ٤٦١١ من حديث أبي هريرة. وأخرجه الترمذي ٢٥٣٠ وابن ماجه ٤٣٣١ من حديث معاذ. والترمذي ٢٥٣١ والحاكم ١/٨٠ من حديث عبادة بن الصامت.

عرش الرحمٰن ومنه تُفَجّر أنهار الجنة» فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك إن صحّ فذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن في الجنة قصراً يقال له عَدْن، حوله البُرُوج والمروج؛ فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرَة[١] لا يدخله إلا نبي أو صدّيق أو شهيد. و«عدن» مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتي بيانه في سورة «الكهف» إن شاء الله تعالى. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على «أُولَئِكَ» المعنى: أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في: «يَدْخُلُونَهَا» وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما. ويجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم؛ أي من كان صالحاً، لا يدخلونها بالأنساب. ويجوز أن يكون موضع «مَنْ» نصباً على تقدير: يدخلونها مع من صلح من آبائهم، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم. وقال ٱبن عباس: هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعيّة. قال القُشَيريّ: وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من الإيمان، فالقول في ٱشتراط العمل الصالح كالقول في ٱشتراط الإيمان. فالأظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال، والمعنى: أن النعمة غَداً تَتمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنة، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه؛ بل برحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ أي بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أي يقولون: سلام عليكم؛ فأضمر القول، أي قد سلمتم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي سلمكم الله، فهو خبر معناه الدعاء؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي بصبركم؛ فـ«ـما» مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في «بما» متعلقة بمعنى. «سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ» ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أي هذه الكرامة بصبركم، أي على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جُبَير. وقيل: على الفقر في الدنيا؛ قاله أبو عِمران الجونيّ. وقيل: على الجهاد في سبيل الله؛ كما روي عن عبد الله بن عمرو[٢] قال: قال رسول الله ﷺ:

[٣٧٢٩] «هل تدرون [من أول][٣] من يدخل الجنة من خلق الله؟ قالوا: الله ورسوله

[٣٧٢٩] أخرجه أحمد ٢/١٦٨ والبزار ٣٦٦٥ وصححه ابن حبان ٧٤٢١ والبيهقي في «البعث» ٤١٤ والحاكم=

---

(١) ضرب من البرود اليمانية.

(٢) وقع في الأصل «عمر» والتصويب من كتب الحديث.

(٣) ما بين القوسين مستدرك من كتب الحديث، وبها يستقيم السياق.

أعلم؛ قال: «المجاهدون الذين تُسدّ بهم الثغور وتُتقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». وقال محمد بن إبراهيم: كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول:

[٣٧٣٠] «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره الْبَيْهَقِيّ عن أبي هُريرة قال:

[٣٧٣١] كان النبي ﷺ يأتي الشهداء، فَإِذَا أَتَى فُرْضَةَ[1] الشِّعْب يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبي ﷺ يفعله، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمان بعد عمر يفعله. وقال الحسن البصري رحمه الله: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن فضول الدنيا. وقيل: «بِمَا صَبَرْتُمْ» على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الْفُضَيْل بن عِيَاض. ابن زيد: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عما تحبونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعاً: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن اتباع الشهوات. وعن عبد الله بن سَلاَم وعلي بن الحسين رضي الله عنهم[2] أنهما قالا: إذا كان يوم القيامة ينادي مناد ليقم أهل الصبر؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: ٱنطلقوا إلى الجنة فتتلقّاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم! فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبّرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبّرناها عن معاصي الله وصبّرناها على البلاء والمحن في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: ٱدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ٱبن سَلاَم: فتقول لهم الملائكة: «سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ». «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه؛ فالعقبى على هذا ٱسم، و«الدار» هي الدنيا. وقال أبو عِمران الْجَوْني: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن النار. وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن الدنيا.

= ٧١/٢ ـ ١٦٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع ٢٥٩/١٠: رجاله ثقات، وكذا صحيح إسناده الشيخ شعيب في «الإحسان».

[٣٧٣٠] مرسل. أخرجه الطبري ٢٠٣٤٤ عن محمد بن إبراهيم، وهذا مرسل. ويعضده ما بعده.

[٣٧٣١] أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣٠٦/٣ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده عباد بن أبي صالح، غير قوي انظر الميزان. وأخرجه ابن المنذر، وابن مردويه، كما في الدر ١٠٩/٤ من حديث أنس، فالحديث حسن بشاهديه المرسل، وحديث أنس. والله أعلم.

---

(١) الشعب: ما انفرج بين جبلين. وفرضته: فوهته.

(٢) الصواب «عليهما» إلاّ أن يريد المصنف تعميم الحسين.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ لما ذكر الموفين بعهده، والمواصلين لأمره، وذكر مالهم ذكر عكسهم. نقض الميثاق: ترك أمره. وقيل: إهمال عقولهم، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ أي من الأرحام. والإيمان بجميع الأنبياء. ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بالكفر وٱرتكاب المعاصي ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ أي الطّرد والإبعاد من الرحمة. ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي سوء المنقلَب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقاص[1]: والله الذي لا إله إلاّ هو! إنهم الحَرُورِية. قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بيّن أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا، لأنها دار ٱمتحان؛ فبَسْط الرزق على الكافر لا يدلّ على كرامته، والتّقتير على بعض المؤمنين لا يدلّ على إهانتهم. «وَيَقْدِرُ» أي يضيق؛ ومنه. ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضيّق. وقيل: «يقدر» يعطي بقدر الكفاية. ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني مشركي مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عند الله؛ وهو معطوف على «وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ». وفي الآية تقديم وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا. ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي في جنبها. ﴿ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي متاع من الأمتعة، كالقَصْعة والسُّكُرُّجَة[2]. وقال مجاهد: شيء قليل ذاهب؛ من مَتَعَ النهارُ إذا ارتفع، فلا بدّ له من زوال. ٱبن عباس: زَادٌ كزاد الراعي. وقيل: متاع الحياة الدنيا ما يُستمتع بها منها. وقيل: ما يتزود منها إلى الآخرة، من التقوى والعمل الصالح، «وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» ثم ٱبتدأ. «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» أي يوسّع ويضيّق.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ بين في مواضع أن

---

(١) هو عند الطبري ٢٠٣٥٠ بمعناه.

(٢) السُّكُرُّجَةُ: إناء صغير يؤكل فيه. وهو فارسي.

اقتراح الآيات على الرسل جهل، بعد أن رأوا آية واحدة تدلّ على الصدق، والقائل عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي ﷺ بالآيات. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عزّ وجلّ ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها يضلّكم عند نزول غيرها. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ أي من رجع. والهاء في «إليه» للحق، أو للإسلام، أو لله عزّ وجلّ؛ على تقدير: ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه. وقيل: هي للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «الذين» في موضع نصب، لأنه مفعول؛ أي يهدي الله الذين آمنوا. وقيل بدل من قوله: «مَنْ أَنَابَ» فهو في محل نصب أيضاً. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي تسكن وتستأنس بوحيد الله فتطمئن؛ قال: أي وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم؛ قاله قَتَادة. وقال مجاهد وقَتَادة وغيرهما: بالقرآن. وقال سفيان بن عيينة: بأمره. مقاتل: بوعده. ابن عباس: بالحلف باسمه، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه؛ كما تَوْجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه. وقيل: «بِذِكْرِ اللَّهِ» أي يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ أي قلوب المؤمنين. قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه. وقيل: «بِذِكْرِ اللَّهِ» أي بطاعة الله. وقيل: بثواب الله. وقيل: بوعد الله. وقال مجاهد: هم أصحاب النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ ابتداء وخبره. وقيل: معناه لهم طُوبَى، فـ«طُوبَى» رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: جعل لهم طُوبى، ويعطف عليه «وَحُسْنُ مَآبٍ» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب. وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر عن يحيىٰ بن أبي كَثير عن عمرو بن[1] أبي يزيد البِكَالِي عن عُتْبة بن عَبْد السُّلَمي قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال:

[٣٧٣٢] فيها فاكهة؟ قال: «نعم شجرة تدعى طوبى» قال: يا رسول الله! أي شجرة

[٣٧٣٢] أخرجه أحمد ٤/ ١٨٣ وابن حبان ٧٤١٤ والطبري ٢٠٣٩٢ من حديث عُتبة بن عبد السلمي، وإسناده ليّن لأجل عامر بن زيد البكالي، وثقه ابن حبان وحده على قاعدته في توثيق المجاهيل.

(١) كذا في الأصول، والذي في كتب التخريج «عامر بن زيد».

أرضنا تشبه؟ قال: «لا تشبه شيئاً من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها». قال: يا رسول الله! فما عِظم أصلها! قال: لو ٱرْتَحَلْتَ جَذَعة من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَماً». وذكر الحديث، وقد كَتَبْنَاه بكماله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»، والحمد لله. وذكر ٱبن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر عن الأشعث عن عبد الله عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعالى لها: تفتّقي لعبدي عما شاء؛ فَتَفَتَّق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتَفَتّق عن الراحلة برِحلها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النّجائب والثّياب. وذكر ٱبن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أُمامة الباهليّ قال: «طُوبَى» شجرة في الجنة ليس منها دار إلا وفيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هي منها؛ وقد قيل: إن أصلها في قصر النبي ﷺ في الجنة، ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة، كما ٱنتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا. وقال ٱبن عباس: «طُوبَىٰ لَهُمْ» فرح لهم وقرة عين؛ وعنه أيضاً أن «طوبى» ٱسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جُبَير. الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند؛ قال القُشَيري: إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين. وقال قَتَادة: «طُوبَى لَهُمْ» حسنى لهم. عِكْرِمة: نعمى لهم. إبراهيم النَّخَعيّ: خير لهم؛ وعنه أيضاً كرامة من الله لهم. الضّحاك: غبطة لهم. النحاس: وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطّيب؛ أي العيش الطّيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلىٰ الشيء الطّيب. وقال الزّجاج: طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب، وهي الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُيْبَى، فصارت الياء واواً لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا: موسِر وموقِن. قلت: والصحيح أنها شجرة؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلي؛ ذكره أبو عمر في التمهيد، ومنه نقلناه؛ وذكره أيضاً الثعلبي في تفسيره؛ وذكر أيضاً المهدوي والقُشَيري عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٧٣٣] «طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحليّ والحُلَل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة» ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبيّ. وقال ٱبن عباس: «طُوبَى» شجرة في الجنة أصلها في دار عليّ، وفي دار كل مؤمن منها غُصْن. وقال أبو جعفر محمد بن علي[1]: سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى:

[٣٧٣٣] ضعيف. أخرجه الطبري ٢٠٣٩٣ من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعاً، وفيه فرات بن أبي الفرات، قال يحيى: ليس بشيء. وضعفه ابن عدي كما في الميزان.

---

(١) هذا معضل. ومع كونه معضلاً المتن منكر، وأمارة الوضع لائحة عليه. والحمل فيه علىٰ من رواه عن أبي جعفر.

«طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ» قال: «شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة» ثم سئل عنها مرة أخرى فقال: «شجرة أصلها في دار عليّ وفروعها في الجنة». فقيل له: يا رسول الله! سئلت عنها فقلت: «أصلها في داري وفروعها في الجنة» ثم سئلت عنها فقلت: «أصلها في دار علي وفروعها في الجنة» فقال النبي ﷺ: «إن داري ودار عليّ غداً في الجنة واحدة في مكان واحد» وعنه ﷺ: «هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مُدَلّى فيها غُصن منها[1]» ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ آب إذا رجع. وقيل: تقدير الكلام الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وعملوا الصالحات طوبى لهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك؛ قاله الحسن. وقيل: شبّه الإنعام على من أُرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله. ﴿لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن. ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ قال مقاتل وابن جُريج: نزلت في صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا أن يكتبوا كتاب الصُّلح، فقال النبي ﷺ لعليّ:

[٣٧٣٤] «أكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمٰن إلا صاحب اليمامة، يعنون مُسَيْلِمَة الكذاب؛ أكتب باسمك اللهم، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون؛ فقال النبي ﷺ لعليّ: «أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك؛ ولكن أكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله؛ فقال أصحاب النبي ﷺ: دعنا نقاتلهم؛ فقال: «لا ولكن أكتب ما يريدون» فنزلت. وقال ابن عباس[2]: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٠]. قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ؟ فنزلت. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: الذي أنكرتم. ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه؛ هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت ووثقت.

[٣٧٣٤] ذكره الواحدي ٥٤٨ بهذا اللفظ بدون إسناد، وهو في صحيح البخاري بدون لفظ «ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة ـ يعنون به مسيلمة الكذاب» وتقدم، وليس فيه أنه سبب نزول هذه الآية، فتنبه والله أعلم.

---

(١) هو حديث موضوع كسابقة.

(٢) ذكره الواحدي ٥٤٩ عن الضحاك عن ابن عباس، وهذا منقطع، الضحاك لم يلق ابن عباس.

﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي مرجعي غداً، واليوم أيضاً عليه توكلت ووثقت، رضاً بقضائه، وتسليماً لأمره. وقيل(1): سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الحِجْر ويقول: «يا أَللَّه يا رحمن» فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين؛ فنزلت هذه الآية، ونزل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ هذا متصل بقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧]. وذلك أن نفراً من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميّان جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم؛ فقال له عبد الله:

[٣٧٣٥] إن سرّك أن نتبعك فسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن، فأَذْهبها عنّا حتى تنفسح؛ فإنها أرض ضيّقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، حتى نغرس ونزرع؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه، وسَخِّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليها مِيرتنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا؛ فقد كان سليمان سخّرت له الريح كما زعمتَ؛ فلستَ بأهون على ربك من سليمان بن داود، وأَحْيِ لنا قُصَيّا جدّك، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله؛ أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه؛ فأنزل الله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» الآية؛ قال معناه الزّبير بن العوام ومجاهد وقَتَادة والضّحاك؛ والجواب محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازاً، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه؛ كما قال ٱمرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَموتُ جَمِيعةً ... ولكِنَّها نفسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

يعني لهان عليّ؛ هذا معنى قول قَتَادة؛ قال: لو فَعَل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله

[٣٧٣٥] أخرجه الطبراني في الكبير ١٢٦١٧ من حديث ابن عباس مختصراً، وفيه قابوس بن ظبيان ضعيف، وقد وُثّق قاله في المجمع ٧/ ٤٣ وأخرجه أبو يعلى ٦٧٩ من حديث الزبير بن العوام مطولاً، وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٨٥: فيه عبد الجبار الأيلي عن عبد الله بن عطاء، وكلاهما وثق، وضعفهما الجمهور اهـ والمتن غريب، فالحديث ضعيف.

---

(1) لم أجد من ذكر أنه سبب نزول هذه الآية، وإنما هذا ورد في الآية الثانية، وهي في أواخر سورة الإسراء.

قرآنكم. وقيل: الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا. الفراء: يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن. الزّجاج: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً» إلى قوله: «الْمَوْتَى» لما آمنوا، والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله: ﴿۞وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قال الفراء قال الْكَلْبي: «ييئس» بمعنى يعلم، لغة النَّخَع؛ وحكاه القُشَيْري عن ابن عباس؛ أي أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهري في الصحاح.

وقيل: هو لغة هَوَازِن؛ أي أفلم يعلم؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن. وقال أبو عبيدة: أفلم يعلموا ويتبيّنوا، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْرِي:

أَقُولُ لَهُمْ بالشِّعْب إذْ يَيْسِرُونَنِي ... أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ٱبْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

يَيْسرونني من المَيْسر، وقد تقدم في «البقرة» ويروى يأسرونني من الأَسْر. وقال رَبَاح بن عديّ:

أَلَمْ يَيْئَسِ الأقوامُ أَنِّي أنــا ٱبْنُهُ ... وإنْ كنتُ عن أرضِ الْعَشِيرةِ نائيَا

في كتاب الرّد «أني أنا ٱبنه» وكذا ذكره الغزنوي: ألم يعلم؛ والمعنى على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات. وقيل: هو من اليأس المعروف؛ أي أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن الله تعالىٰ لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تَمنَّوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار. وقرأ عليّ وابن عباس: «أَفَلَمْ يَتَبَيَّنَ الَّذِينَ آمَنُوا» من البيان. قال القُشَيْرِي: وقيل لابن عباس المكتوب «أَفَلَمْ يَيْئَسِ» قال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس؛ أي زاد بعض الحروف حتى صار «ييئس». قال أبو بكر الأنباريّ: روي عن عِكرمة عن ٱبن أبي نَجيح أنه قرأ ـ «أفلم يتبين الذين آمنوا» وبها ٱحتجّ من زعم أنه الصواب في التلاوة؛ وهو باطل عن ٱبن عباس، لأن مجاهداً وسعيد بن جُبَير حكيا الحرف عن ابن عباس، على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس؛ ثم إن معناه: أفلم يتبين؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها، وتأتي بتأويلها، وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا؛ وأمّا سقوطه يبطل القرآن، ولزوم أصحابه البهتان. ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ

﴿ٱللَّهُ﴾ «أَنْ» مخففة من الثقيلة، أي أنه لو يشاء الله ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وهو يردّ على القَدَرية وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ أي داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم، ويقال: قرعه أمر إذا أصابه، والجمع قَوارع؛ والأصل في القرع الضرب؛ قال[1]:

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ   قَـرْعُ الْقَوَاقِيـزِ[2] أَفْـوَاهَ الأَبَـارِيـقِ

أي لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أَرْبَدَ أو من قتل أو من أسر أو جدب، أو غير ذلك من العذاب والبلاء؛ كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء المشركين. وقال عِكرِمة عن ابن عباس: القارعة النكبة. وقال ابن عباس أيضاً وعكْرمة: القارعة الطلائع والسرايا التي كان يُنفِذها رسول الله ﷺ لهم. ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي القارعة. ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قاله قتادة والحسن. وقال ابن عباس: أو تَحُلّ أنت قريباً من دارهم. وقيل: نزلت الآية بالمدينة؛ أي لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كَقُرى المدينة ومكة. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ في فتح مكة؛ قاله مجاهد وقتادة. وقيل: نزلت بمكة؛ أي تصيبهم القوارع، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد، فتحلّ قريباً من دارهم، أو تحلّ بهم محاصراً لهم؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف، ولِقلاع خَيْبَر، ويأتي وعد الله بالإذن لك في قتالهم وقهرهم. وقال الحسن: وعد الله يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تقدّم معنى الاستهزاء في «البقرة» ومعنى الإملاء في «آل عمران» أي سُخِر بهم، وأزْرِي عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حقّ القضاء أخذتهم بالعقوبة. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك.

---

(١) هو الأقيشر الأسدي. التلاد: المال القديم الموروث.

(٢) جمع قاقوزة، وهي إناء يشرب بها الخمر.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضدّ القعود، بل هو بمعنى التولّي لأمور الخلق؛ كما يقال: قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى: أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى: أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل. وقيل: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ» أي عالم؛ قاله الأعمش. قال الشاعر:

فلولا رِجالٌ من قريشٍ أَعِزّة ... سَرَقْتُمْ ثيابَ البيتِ واللّهُ قائمُ

أي عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس. وقيل: المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم، عن الضحاك. ﴿ وَجَعَلُوا۟ ﴾ حال؛ أي أو قد جعلوا، أو عطف على «اسْتُهْزِىءَ» أي ٱستهزؤوا وجعلوا؛ أي سَمّوا ﴿ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة. ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد: «سَمُّوهُمْ» أي بيّنوا أسماءهم، على جهة التهديد؛ أي إنما يسمّون: اللاّت والعُزّى وَمَنَاة وهُبَل. ﴿ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ «أم» استفهام توبيخ، أي أتنبئونه؛ وهو على التحقيق عطف على ٱستفهام متقدّم في المعنى؛ لأن قوله: «سَمُّوهُمْ» معناه: أَلَهُمْ أسماء الخالقين. «أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ». وقيل: المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه. «أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ» يعلمه؟ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه أحالوا، وإن قالوا: بظاهر يعلمه فقل لهم: سموهم؛ فإذا سموهم اللاّت والعُزّى فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً. وقيل: «أَمْ تُنَبِّئُونَهُ» عطف على قوله: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ» أي أفمن هو قائم، أم تنبئون الله بما لا يعلم؛ أي أنتم تدعون لله شريكاً، والله لا يعلم لنفسه شريكاً؛ أفتنبئونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلمه! وإنما خصّ الأرض بنفي الشريك عنها وإن لم يكن له شريك في غير الأرض لأنهم ٱدّعوا له شركاء في الأرض. ومعنى. ﴿ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾: الذي أنزل الله على أنبيائه. وقال قَتَادة: معناه بباطل من القول؛ ومنه قول الشاعر:

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَها ولُحُومَهَا ... وذلك عارٌ يابن رَيْطَةَ ظاهرُ

أي باطل. وقال الضّحاك: بكذب من القول. ويحتمل خامساً: أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم؛ ويكون معنى الكلام: أتخبرونه بذلك مشاهدين، أم تقولون محتجين. ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ ﴾ أي دع هذا! بل زين للذين كفروا مكرهم؛ قيل: ٱستدراك على هذا الوجه، أي ليس لله شريك، لكن زين للذين كفروا مكرهم. وقرأ ٱبن عباس ومجاهد: «بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ» مسمّى الفاعل؛ وعلى قراءة الجماعة فالذي زَيّن للكافرين مكرهم الله تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يسمى الكفر مكراً؛

لأن مكرهم بالرسول كان كفراً. ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي صدّهم الله؛ وهي قراءة حمزة والكسائي. الباقون بالفتح؛ أي صدّوا غيرهم؛ واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧] وقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥]. وقراءة الضم أيضاً حسنة في «زين» و«صدّوا» لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة؛ ففيه إثبات القَدر، وهو اختيار أبي عبيد. وقرأ يحيى بن وثّاب وعلقمة ـ «وصِدّوا» بكسر الصاد؛ وكذلك. ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] بكسر الراء أيضاً على ما لم يسم فاعله؛ وأصلها صدِدوا ورِدِدت، فلما أدغمت الدال الأولى في الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بخذلانه. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي موفّق؛ وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم؛ لقوله: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ»، فكذلك قوله: «وَصُدُّوا». ومعظم القراء يقفون على الدّال من غير الياء؛ وكذلك «والٍ» و«واقٍ»؛ لأنك تقول في الرجل: هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين. وقرىء «فَمَا لَهُ مِنْ هَادِي»، و«وَالِي» و«وَاقِي» بالياء؛ وهو على لغة من يقول: هذا داعي ووالي وواقي بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقائها مع التنوين، وقد أمنا هذا في الوقف؛ فردّت الياء فصار هادي ووالي وواقي. وقال الخليل في نِداء قاضٍ: يا قاضي بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين في نحو الداعي والمتعالي.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي للمشركين الصادّين، بالقتل والسَّبْي والإسار، وغير ذلك من الأسقام والمصائب. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي أشدّ؛ من قولك: شَقّ عليّ كَذا يَشُقّ. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع. و«مِن» زائدة.

قوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ٱختلف النحاة في رفع «مَثَلُ» فقال سيبويه: ٱرتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ والتقدير: وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنة. وقال الخليل: ٱرتفع بالابتداء وخبره «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» أي صفة الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ كقولك: قولي يقوم زيد؛ فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره؛ والمثل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾[الفتح: ٢٩] وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل: ٦٠] أي الصفة العليا، وأنكره أبو

علي وقال: لم يسمع مَثَل بمعنىٰ الصفة؛ إنما معناه الشبه؛ ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته، كقولهم: مررت برجل مثلك؛ كما تقول: مررت برجل شبهك؛ قال: ويفسد أيضاً من جهة المعنى؛ لأن مثلاً إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام: صفة الجنة التي فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها. وقال الزجاج: مثَّلَ الله عزّ وجلّ لنا ما غاب عنا بما نراه؛ والمعنىٰ: مَثَلُ الجنَّة جَنَّةٌ تجري من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو عليّ فقال: لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت: صفة الجنّة جنّة، فجعلت الجنة خبراً لم يستقم ذلك؛ لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضاً شبه الجنة جنة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حَدَث؛ والجنّة غير حَدَث؛ فلا يكون الأول الثاني. وقال الفرّاء: المثل مقحم للتأكيد؛ والمعنى: الجنّة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمثل؛ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي ليس هو كشيء. وقيل التقدير: صفة الجنة التي وعِد المتقون صفة جنّة «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ». وقيل معناه: شبه الجنة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدّة والخلود؛ قاله مقاتل. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع؛ وفي الخبر: «إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى»[1] وقد بيناه في «التذكرة». ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي وظلها كذلك؛ فحذف؛ أي ثمرها لا ينقطع، وظلّها لا يزول؛ وهذا ردّ على الْجَهْمِيّة في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى. ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلاَم وسَلْمان، والذين جاؤوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص. وقال قَتَادة: هم أصحاب محمد ﷺ يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد وابن زيد. وعن مجاهد أيضاً أنهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم. وقال أكثر العلماء[2]:

---

(١) تقدم نحو هذا في سورة البقرة آية: ٢٥.

(٢) هذا قول باطل، آية الإسراء هذه مكية، وابن سلام أسلم في المدينة. والصواب أن الآية في نزول القرآن كله.

كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أوّل ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سَلاَم وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة؛ فسألوا النبي ﷺ عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠] فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إلٰه واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمن! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب؛ فنزلت: ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٦] ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الرعد: ٣٠] ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾. ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ يعني مشركي مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارىٰ والمجوس. وقيل: هم العرب المتحزبون على النبي ﷺ. وقيل: ومن أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض. ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفاً على «أعبد». وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف أي أفرده بالعبادة وحده لا شريك له، وأتبرّأ عن المشركين، ومن قال: المسيح ابن الله وعزير ابن الله، ومن اعتقد التشبيه كاليهود. ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُواْ ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس. ﴿ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي أرجع في أموري كلها.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ ﴾ أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكماً عربياً؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ، وهو عربيّ، فكذب ٱلأحزاب بهذا الحكم أيضاً. وقيل نظم الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكماً عربياً، أي بلسان العرب؛ ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم. ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي أهواء المشركين في عبادة ما دون الله، وفي التوجيه إلى غير الكعبة. ﴿ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ أي ناصر ينصرك. ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ يمنعك من عذابه؛ والخطاب للنبي ﷺ، والمراد الأمة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قيل: إن اليهود عابوا على النبي ﷺ الأزواج، وعيرته بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النّساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوّة عن النّساء؛ فأنزل الله هذه الآية، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي جعلناهم بشراً يقضون ما أحلّ الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص في الوحي.

الثانية: هذه الآية تدلّ على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التَّبتُّل، وهو ترك النكاح، وهذه سنّة المرسلين كما نصّت عليه هذه الآية، والسنّة واردة بمعناها؛ قال ﷺ:

[٣٧٣٦] «تزوّجوا فإني مكاثِر بكم الأمم» الحديث. وقد تقدّم في «آل عمران» وقال:

[٣٧٣٧] «من تزوج فقد ٱستكمل نِصف الدّين فليتقِ الله في النصف الثاني». ومعنى ذلك أن النكاح يعفّ عن الزنى، والعفاف أحد الْخَصْلَتين اللتين ضَمِن رسول الله ﷺ عليهما الجنة فقال:

[٣٧٣٨] «من وقاه الله شر ٱثنتين وَلَجَ الجنّة ما بين لَحْييه وما بين رجليه» خرجه الموطأ وغيره. وفي صحيح البخاري عن أنس قال:

[٣٧٣٩] جاء ثلاثة رَهْط إلى بيوت أزواج النبيّ ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ! قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. فقال أحدهم: أمّا أنا فإني أُصلّي الليل أبداً، وقال الآخر: إني أصوم الدهر فلا أُفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج؛ فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأُفطر وأصلّي وأرقد

[٣٧٣٦] مضى تخريجه وهو حديث حسن.

[٣٧٣٧] حسن. أخرجه الحاكم ٢/١٦١/ ٢٦٨١ من حديث أنس، وصححه، ووافقه الذهبي، ومن وجه آخر أخرجه البيهقي في الشعب ٥٤٨٦ وابن الجوزي في الواهيات ١٥٠٠، وأعله بيزيد الرقاشي، وأنه واهٍ، وقد توبع ولذا ذكره الألباني في الصحيحة ٦٢٥. مع أن الحافظ ذكره في التلخيص ٣/ ١١٧ من طريقين، وحكم بضعفه والراجح أنه حسن.

[٣٧٣٨] صحيح. أخرجه مالك ٢/ ٩٨٧ عن عطاء بن يسار مرسلاً ووصله الترمذي ٢٤٠٩ وابن حبان ٥٧٠٣ والحاكم ٤/ ٣٥٧ من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي الباب من حديث سهل بن سعد عند البخاري ٦٤٧٤ و ٦٨٠٧.

[٣٧٣٩] مضى تخريجه.

وأتزوّج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس مني». خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا أبْين. وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقّاص قال: أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي ﷺ؛ ولو أجاز له ذلك لَاخْتَصَيْنَا[1]، وقد تقدّم في «آل عمران» الحضّ على طلب الولد والرّدّ على من جهل ذلك. وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول:

[٣٧٤٠] إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة، وأطؤها وما أشتهيها؛ قيل له: وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حبّي أن يخرج الله مِنّي من يكاثر به النبي ﷺ النبيّين يوم القيامة؛ وإني سمعته يقول: «عليكم بالأبكار فإنهنّ أَعْذَب أفواهاً وأحسن أخلاقاً وأَنْتَق أرحاماً وإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» يعني بقوله: «أنتق أرحاماً» أَقْبَل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمي بالأولاد رمياً. وخرج أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال:

[٣٧٤١] جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت ٱمرأة ذات حسب وجمال، وإنها[2] لا تلد، أفأتزوجها؟ قال «لا» ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم». صححه أبو محمد عبد الحق وحَسْبُك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عاد الكلام إلى ما ٱقترحوا من الآيات ـ ما تقدّم ذكره في هذه السورة ـ فأنزل الله ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظْر ومعناه النفي؛ لأنه لا يحظر على أحدٍ ما لا يقدر عليه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ أي لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن. وقيل: فيه تقديم وتأخير، المعنى: لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء والضّحاك؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم؛ نظيره. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسْتَقَرّٞ﴾ [الأنعام: ٦٧]؛ بيّن أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب. وقيل: المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدّر لا تقف عليه الملائكة. وذكر الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي

[٣٧٤٠] لم أجده من حديث عمر. والمرفوع منه أخرجه ابن ماجه ١٨٦١ من حديث عويم بن ساعدة الأنصاري، وقال البوصيري في الزوائد: فيه محمد بن طلحة، قال البخاري: لم يصح حديثه. وأخرجه ابن الجوزي في الواهيات ١٠١٦ من حديث جابر، وأعله بإبراهيم بن البراء، وله شواهد واهية، انظر المجمع ٤/٢٥٩ برقم ٧٣٤٥، ولصدره وعجزه شواهد.

[٣٧٤١] صحيح. أخرجه أبو داود ٢٠٥٠ من حديث معقل بن يسار، وصححه عبد الحق كما ذكر القرطبي، وكذا العراقي في الإحياء ٢/٤١.

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) في الأصل «وأنها» والتصويب من السنن.

هريرة قال: لما ٱرتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء رأى الجَبَّارُ في إصبعه خاتماً، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شيء من حُليّ الرجال، قال: فهل عليه شيء من أسمائي مكتوب أو كلامي؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ»[1].

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به. «وَيُثْبِتُ» ما يشاء؛ أي يؤخره إلى وقته؛ يقال: محوت الكتاب محواً، أي أذهبت أثره. «وَيُثْبِتُ» أي ويثبته؛ كقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي والذاكرات الله.

وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو وعاصم «وَيُثْبِتُ» بالتخفيف، وشَدّد الباقون؛ وهي قراءة ٱبن عباس، وٱختيار أبي حاتم وأبي عبيد لكثرة من قرأ بها؛ لقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقال ٱبن عمر: سمعت النبيّ ﷺ يقول:

[٣٧٤٢] «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت». وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء؛ الخَلق والخُلُق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه: هما كتابان سوى أمّ الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ الذي لا يتغيّر منه شيء. قال القُشَيْريّ: وقيل السعادة والشقاوة والخَلق والخُلُق والرزق لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفي هذا القول نوع تحكّم.

قلت: مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفاً، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وٱبن مسعود وأبي وائل وكعب الأحبار وغيرهم، وهو قول الْكَلْبِيّ. وعن أبي عثمان النَّهْدِيّ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب. وقال ابن مسعود: اللهم إن

[٣٧٤٢] ضعيف. أخرجه الطبراني في الأوسط كما في المجمع ٧/ ٤٣/ ١١٠٩٤ من حديث ابن عمر، وقال الهيثمي: فيه محمد بن جابر اليمامي، ضعيف من غير تعمّد كذب ا هـ والحديث ضعفه السيوطي في الدر ٤/ ١٢٣.

---

(١) هذا الأثر متلقىً عن أهل الكتاب.

كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فأمحني من الأشقياء وٱكتبني في السعداء؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت؛ وعندك أمّ الكتاب. وكان أبو وائل يكثر أن يدعو: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح وٱكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب. وقال كعب[1] لعمر بن الخطاب: لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ». وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدِلها غلاماً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب. وقد تقدّم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

[٣٧٤٣] «من سَرّه أن يُبْسَط له في رزقه ويُنْسَأ له في أثَرِه فلْيَصِلْ رَحِمَه». ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ» فذكره بلفظه سواء؛ وفيه تأويلان: أحدهما: معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت. والآخر: يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ؛ والذي في علم الله ثابت لا تبدّل له، كما قال: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ». وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحبّ أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتق الله ولْيَصِلْ رَحِمَه» كيف يزاد في العمر والأجل؟! فقال: قال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢]. فالأجل الأوّل أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني ـ يعني المسمى عنده ـ من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحِمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البَرْزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البَرْزَخ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق ٱمتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]فتوافق الخبر والآية؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأَجَل على ظاهر اللفظ، في ٱختيار حبر الأمة، والله أعلم. وقال مجاهد: يُحكم الله أمر السَّنَة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة

[٣٧٤٣] صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٨٥ من حديث أبي هريرة وقد تقدم. وأخرجه البخاري ٢٠٦٧ و ٥٩٨٦ ومسلم ٢٥٥٧ من حديث أنس.

---

(١) هو كعب الأحبار أسلم، وحوله ريب وشكوك واستمر في رواية الإسرائيليات، ومثل هذا لايصح، ولا يتجرأ أن يقول مثل هذا لعمر. والله أعلم.

والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضّحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحَفَظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس. وقال الْكَلْبِي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي[1] ﷺ. ثم سئل الكَلْبِي عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب. وقال قَتَادة وابن زيد وسعيد بن جُبَيْر: يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أمّ الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدويّ عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدّثنا بكر بن سهل، قال حدّثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، «يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ» يقول: يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه، «ويثبت» ما يشاء فلا يبدله، «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» يقول: جملة ذلك عنده في أمّ الكتاب، الناسخ والمنسوخ. وقال سعيد بن جُبَيْر أيضاً: يغفر ما يشاء ـ يعني ـ من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره. وقال عِكرمة: يمحو ما يشاء ـ يعني بالتوبة ـ جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية. وقال الحسن: «يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ» من جاء أجله، «وَيُثْبِتُ» من لم يأت أجله. وقال الحسن: يمحو الآباء، ويثبت الأبناء. وعنه أيضاً: يُنْسى الحفظة من الذنوب ولا يُنْسَى. وقال السدّي: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ» يعني: القمر، «وَيُثْبِتُ» يعني: الشمس؛ بيانه قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالة النوم، يقبضها عند النوم، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه؛ بيانه قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[الزمر: ٤٢] الآية. وقال عليّ بن أبي طالب: يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [يٓس: ٣١] ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون: ٣١] فيمحو قَرْناً، ويثبت قرناً. وقيل: هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله؛ فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويثبته في ديوان الحسنات؛ ذكره الثعلبيّ والماورديّ عن ابن عباس. وقيل: يمحو الله ما يشاء ـ يعني الدنيا ـ ويثبت الآخرة. وقال قيس بن عُبَاد في اليوم العاشر من رجب: هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما

(١) لا أصل له عن رسول الله ﷺ، والكلبي كذاب وضاع.

يشاء، ويثبت فيه ما يشاء؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان. وقال ٱبن عباس: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام، من درّة بيضاء، لها دَفّتان من ياقوتة حمراء لله فيه كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء[1]. وروىٰ أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال:

[٣٧٤٤] «إن الله سبحانه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يَبقين من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء». والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثابت؛ ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو الممحوّ، والله أعلم. الغزنوِيّ: وعندي أن ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة؛ فيحتمل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال؛ وما في علمه من تقدير الأشياء لا يبدّل. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ أي أصل ما كتب من الآجال وغيرها. وقيل: أمّ الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يبدّل ولا يغير. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأخر. وسئل ٱبن عباس عن أمّ الكتاب فقال: عِلْم الله ما هو خالق. وما خلْقُه عاملون؛ فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبديل في علم الله، وعنه أنه الذِّكْر؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهذا يرجع معناه إلى الأوّل؛ وهو معنى قول كعب. قال كعب الأحبار: أمّ الكتاب عِلم الله تعالى بما خَلَق وبما هو خالق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى﴾ «ما» زائدة، والتقدير: وإن نرينك بعض الذي نعدهم، أي من العذاب لقوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ أي إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ فليس عليك إلا البلاغ؛ أي التبليغ؛ ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ أي الجزاء والعقوبة.

[٣٧٤٤] واهٍ بمرة. أخرجه الطبري ٢٠٥٠٢ و ٢٠٥٠٣ من حديث أبي الدرداء، ومداره في الطريقين على زيادة بن محمد الأنصاري، قال البخاري والنسائي: منكر الحديث، وذكره الذهبي في ميزانه بهذا الحديث، وأتم منه وقال: فهذه ألفاظ منكرة لم يأت بها غيره.

---

(١) هذا الأثر من الإسرائيليات.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهل مكة، ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي نقصدها. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس ومجاهد: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ موت علمائها وصلحائها. قال القُشَيري: وعلى هذا فالأطراف الأشراف؛ وقد قال ابن الأعرابي: الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم؛ ولكن هذا القول بعيد، لأن مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان في أمورهم، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز؛ إلا أن يحمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى. وقال مجاهد أيضاً وقتادة والحسن: هو ما يغلب عليه المسلمون مما في أيدي المشركين؛ وروي ذلك عن ابن عباس، وعنه أيضاً هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها؛ وعن مجاهد: نقصانها خرابها وموت أهلها. وذكر وكيع بن الجرّاح عن طلحة بن عُمَير عن عطاء بن أبي رَبَاح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: ذهاب فقهائها وخيار أهلها. قال أبو عمر بن عبد البر: قول عطاء في تأويل الآية حسن جداً[1]؛ تلقاه أهل العلم بالقبول.

قلت: وحكاه المهدويّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأوّل نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد، «نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا» قال: موت الفقهاء والعلماء؛ ومعروف في اللغة أن الطَّرف الكريمُ من كل شيء؛ وهذا خلاف ما ارتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس. وقال عِكْرِمة والشّعبيّ: هو النقصان وقبض الأنفس. قال أحدهما: ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حَشّك[2]. وقال الآخر: لضاق عليك حشٌّ تتبرز فيه. قيل: المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم؛ والمعنى: أو لم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ذلك؛ وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد وابن جُرَيج. وعن ابن عباس أيضاً أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها. وقيل: نقصها بِجَوْرِ وُلاَتها.

قلت: وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وانجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ أي الانتقام من الكافرين، سريع الثواب للمؤمن.

---

(١) هذا مرجوح، والراجح ما ورد عن مجاهد وقتادة والحسن، لأن في الآية تهديد للكفار.

(٢) الحشّ: موضع قضاء الحاجة.

وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى رَوِيّة قلب، ولا عقد بَنَان؛ حسب ما تقدّم في «البقرة» بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضرّ إلا بإذنه. وقيل؛ فللّهِ خير المكر؛ أي يجازيهم به. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه. ﴿وَسَيَعْلَمُ الكافِرُ﴾ كذا قراءة نافع وٱبن كثير وأبي عمرو. الباقون: «ٱلْكُفَّارُ» على الجمع. وقيل: عنى بـه أبو جهل. ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو لِمن الثواب والعقاب في الدّار الآخرة؛ وهذا تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قال قَتَادة: هم مشركو العرب؛ أي لست بنبيّ ولا رسول، وإنما أنت متقوّل؛ أي لما لم يأتهم بما ٱقترحوا قالوا ذلك. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي كفى الله ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدقي وكذبكم. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ وهذا احتجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب ـ من آمن منهم ـ في التفاسير. وقيل: كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سَلاَم وسَلْمان الفارسيّ وتميم الداريّ والنجاشيّ وأصحابه؛ قاله قَتَادة وسعيد بن جُبَير. وروى الترمذيّ عن ابن أخي عبد الله بن سَلاَم قال:

[٣٧٤٥] لما أريد قتل عثمان جاء عبد الله بن سَلاَم فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نُصرتك؛ قال: ٱخرج إلى الناس فاطردهم عني، فإنك خارج خير لي من داخل؛ قال فخرج عبد الله بن سَلاَم إلى الناس فقال: أيها الناس! إنه كان ٱسمي في الجاهلية فلان، فسماني رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله؛ فنزلت

[٣٧٤٥] أخرجه الترمذي ٢٣٥٦ والطبري ٢٠٥٣٥ و ٢٠٥٣٦ من حديث عبد الله بن سلام، وفيه مجهول وقال الترمذي: حسن غريب اهـ وله علة ثانية وهي كون السورة مكية في قول الجمهور، وقد أسند الطبري ٢٠٥٥٥ عن سعيد بن جبير وقد قيل له: أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: فكيف؟ وهذه السورة مكية، وبهذا أعله ابن كثير أيضاً في تفسيره ٢/ ٥٤٠.

فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف: ١٠] ونزلت فيَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ الحديث. وقد كتبناه بكماله في كتاب «التذكرة». وقال فيه أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي ﷺ عبد الله. وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جُبَيْر ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾؟ قال: هو عبد الله بن سَلاَم.

قلت: وكيف يكون عبد الله بن سَلاَم وهذه السورة مكية وٱبن سَلاَم ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي. وقال القُشَيري: وقال ٱبن جُبَير السورة مكية وٱبن سَلاَم أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سَلاَم؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول ٱبن عباس. وقال الحسن ومجاهد والضّحاك: هو الله تعالى؛ وكانوا يقرؤون «ومِن عِندِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ» وينكرون على من يقول: هو عبد الله بن سَلاَم وسَلْمان؛ لأنهم يَرَوْن أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قرأ:

[٣٧٤٦] «ومِنْ عِندِهِ عِلم الكِتابِ» وإن كان في الرواية ضعف، وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبيّ ﷺ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد اليمانيّ أنه قرأ كذلك ـ «ومِن عِندِهِ» بكسر الميم والعين والدال «عُلم الكِتابُ» بضم العين ورفع الكتاب. وقال عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلاَم فقال: إنما ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية. وقيل: جميع المؤمنين[1]، والله أعلم. قال القاضي أبو بكر بن العربي: أما من قال إنه عليّ فعوّل على أحد وجهين: إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه. ولقول النبي ﷺ:

[٣٧٤٧] «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» وهو حديث باطل؛ النبيّ ﷺ مدينة علم

[٣٧٤٦] ضعيف. أخرجه الطبري ٢٠٥٥٨ من حديث ابن عمر وقال: هذا خبر ليس له أصل عند الثقات من أصحاب الزهري. وقال ابن كثير في تفسيره ٢/ ٥٤٠: فيه سليمان بن أرقم وهو ضعيف.

[٣٧٤٧] باطل لاأصل له. أخرجه الترمذي ٣٧٢٣ وابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٣٤٩ ـ ٣٥٥ وأبو نعيم في الحلية ١/ ٦٤ والخطيب ٤/ ٣٤٨ والحاكم ٣/ ١٢٦ وابن عدي ١/ ١٩٠ وابن حبان في المجروحين ١/ ١٣٠ من حديث ابن عباس، وغيره بأسانيد واهية جداً، وصححه بعض المتأخرين، وكذا الحاكم، وتعقبه الذهبي فقال: موضوع. وقال الترمذي: حديث منكر. وقال شيخه البخاري: =

---

(١) هذا هو الراجح، وقد ذهب إليه القرطبي، وذلك بعد أسطر.

وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفسح، ومنهم المتوسط، على قدر منازلهم في العلوم. وأما من قال إنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يَعْلَم الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبيّ ﷺ بصدقه.

قلت: فالكتاب على هذا هو القرآن. وأما من قال هو عبد الله بن سَلَام فعوّل على حديث الترمذيّ؛ وليس يمتنع أن ينزل في عبد الله بن سَلَام شيئاً ويتناول جميع المؤمنين لفظاً؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني قريشاً؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان. قال النحاس: وقول من قال هو عبد الله بن سَلَام وغيره يحتمل أيضاً؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمراً مؤكداً؛ والله أعلم بحقيقة ذلك.

= ليس له وجه صحيح. وقال ابن معين فيما حكاه الخطيب في تاريخ بغداد: إنه كذب لاأصل له، وكذا قال أبو حاتم، ويحيى بن سعيد القطان، وقال أبو زرعة: كم خلق افتضحوا به، فلا عبرة بقول من حسنه أو صححه من المتأخرين. انظر كشف الخفاء ٦١٨ والشذرة لابن طولون ١٧٠ والمقاصد ١٨٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
[صلى الله على محمد وآله وسلم تسليما]

تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها في قول الحسن وعِكرِمة وجابر. وقال ابن عباس وقَتادة: إلا آيتين منها مدنيتين وقيل: ثلاث، نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله وهو قوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۝٣٠﴾ [إبراهيم: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾.

قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ تقدّم معناه. ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ أي بالكتاب، وهو القرآن، أي بدعائك إليه. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم؛ وهذا على التمثيل؛ لأن الكفر بمنزلة الظلمة؛ والإسلام بمنزلة النور. وقيل: من البدعة إلى السُّنة، ومن الشك إلى اليقين؛ والمعنى متقارب. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتوفيقه إياهم ولطفه بهم، والباء في «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» متعلقة بـ«تخرج» وأضيف الفعل إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمنذر الهادي. ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾ هو كقولك: خرجت إلى زيد العاقِلِ الفاضِلِ من غير واو، لأنهما شيء واحد؛ والله هو العزيز الذي لا مثل له ولا شبيه. وقيل: «الْعَزِيز» الذي لا يغلبه غالب. وقيل: «الْعَزِيزِ» المنيع في ملكه وسلطانه. «الْحَمِيدِ» أي المحمود بكل لسان، والممجد في كل مكان على كل حال. وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال: كان قوم آمنوا بعيسى ابن مريم، وقوم كفروا به، فلما بُعِث محمد ﷺ آمن به الذين كفروا بعيسى، وكفر الذين آمنوا بعيسى؛ فنزلت هذه الآية، ذكره الماورديّ.

قوله تعالى: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ملكاً وعبيداً وٱختراعاً وخلقاً. وقرأ نافع وٱبن عامر وغيرهما: «اللَّهُ» بالرفع على الابتداء «الَّذِي» خبره. وقيل: «الَّذي» صفة، والخبر مضمر؛ أي الله الذي له ما في السموات وما في الأرض قادر على كل شيء. الباقون بالخفض نعتاً للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت؛ كقولك: مررت بالظريفِ زيدٍ. وقيل: على البدل من «الْحَمِيدِ» وليس صفة؛ لأن اسم الله صار كالعلَم فلا يوصف؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد. وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السموات وما في الأرض. وكان يعقوب إذا وقف على «الْحَمِيدِ» رفع، وإذا وصل خفض على النعت. قال ٱبن الأنباري: من خفض وقف على ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ قد تقدّم معنى الويل في «البقرة» وقال الزجاج: هي كلمة تقال للعذاب والهَلَكة. «مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» أي في جهنم. ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي يختارونها على الآخرةِ، والكافرون يفعلون ذلك. فـ«ـالَّذِينَ» في موضع خفض صفة لهم. وقيل: في موضع رفع خبر ابتداء مضمر؛ أي هم الذين. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ مبتدأ وخبره. «أُولَئِكَ». وكل من آثر الدنيا وزهرتها، وٱستحب البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصدّ عن سبيل الله ـ أي صرف الناس عنه وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ٱبن عباس وغيره ـ فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قال ﷺ:

[٣٧٤٨] «إنّ أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلّون» وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله المستعان. وقيل: «يَسْتَحِبُّونَ» أي يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون لها زَيْغاً وميلاً لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تذكّر وتؤنّث. والعِوج بكسر العين في الدّين والأمر والأرض، وفي كل ما لم يكن قائماً؛ وبفتح العين في كل ما كان قائماً، كالحائط، والرُّمح ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران» وغيرها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾ أي ذهاب عن الحق بعيد عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن

[٣٧٤٨] أخرجه أبو داود ٢٤٥٢ ومضىٰ تخريجه وهو حديث جيد.

يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ ﴾ أي قبلك يا محمد ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ أي بلغتهم، ليبيّنوا لهم أمر دينهم؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي ﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال ﷺ:

[٣٧٤٩] «أُرسِل كلُّ نبيّ إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كلّ أحمرَ وأسودَ من خَلْقه». وقال ﷺ:

[٣٧٥٠] «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديّ ولا نصرانيّ ثم لم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار». خرجه مسلم، وقد تقدّم. ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ ردّ على القَدَرية في نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على «لِيُبَيِّنَ» لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال. ويجوز النصب في «يضل» لأن الإرسال صار سبباً للإضلال؛ فيكون كقوله: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ ﴾ [القصص: ٨] وإنما صار الإرسال سبباً للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم؛ فصار كأنه سبب لكفرهم. ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي بحجتنا وبراهيننا؛ أي بالمعجزات الدالة على صدقه. قال مجاهد: هي التسع الآيات. ﴿ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة: ﴿ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾. وقيل: «أَنْ» هنا بمعنى أي، كقوله تعالى: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ ﴾ [صۤ: ٦] أي امشوا.

قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي قل لهم قولاً يتذكرون به أيام الله تعالى. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة:

[٣٧٤٩] يأتي تخريجه.

[٣٧٥٠] مضى تخريجه.

[٣٧٥١] بنعم الله عليهم؛ وقاله أبيّ بن كعب ورواه مرفوعاً؛ أي بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التيه إلى سائر النعم، وقد تسمى النعم الأيام؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم:

* وأيـامٍ لنـا غُـرٍّ طِـوالٍ *

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة؛ يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي بوقائعها. قال ابن زيد: يعني الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية؛ وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال: بلاؤه. وقال الطبريّ: وعظهم بما سلف في الأيام الماضية لهم؛ أي بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة؛ وقد كانوا عبيداً مستذلين؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم. وروى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٣٧٥٢] «بينا موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله وأيامُ الله بَلاؤه ونِعماؤه» وذكر حديث الخضر؛ ودلّ هذا على جواز الوعظ المرقّق للقلوب، المقوّي لليقين، الخالي من كل بدعة، والمنزه عن كل ضلالة وشبهة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في التذكير في أيام الله ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه. ﴿شَكُورٍ ۝﴾ لنعم الله. وقال قتادة: هو العبد؛ إذا أُعطِي شَكر، وإذا ٱبتُلِيَ صَبر. وروي عن النبي ﷺ أنه قال:

[٣٧٥٣] «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ـ ثم تلا هذه الآية ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾». ونحوه عن الشعبيّ موقوفاً. وتَوارَى الحسن البصريّ عن الحجّاج سبعَ سنين، فلما بلغه موته قال: اللهم قد أمتّه فأمِت سُنَّته، وسجد شكراً، وقرأ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ». وإنما خص بالآيات كل صبار شكور؛ لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها؛ كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ۝﴾[النازعات: ٤٥] وإن كان منذِراً للجميع.

[٣٧٥١] أخرجه النسائي في الكبرى ١١٢٦٠ والطبري ٢٠٥٧٩ من طريقين عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبي بن كعب مرفوعاً ولذا قال ابن كثير في تفسيره ٢/ ٥٤٢ وروي موقوفاً على أُبيّ، وهو أشبه.

[٣٧٥٢] هو بعض حديث أخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢ مطولاً.

[٣٧٥٣] ضعيف. أخرجه الديلمي ٣٧٨ والبيهقي في الشعب ٩٧١٦ من حديث أنس، وفيه يزيد الرقاشي متروك. والأشبه كونه من قول الشعبي كما ذكر القرطبي رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ ﴾ تقدم في «البقرة» مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل: هو من قول الله؛ أي وٱذكر يا محمد إذ قال ربك كذا. و«تَأَذَّنَ» وأذّن بمعنى أَعْلَم؛ مثل أَوْعَد وتَوَعَّد؛ روي معنى ذلك عن الحسن وغيره. ومنه الأذان، لأنه إعلام؛ قال الشاعر:

فَلَمْ نَشْعُرْ بضوءِ الصّبحِ حتّى ... سمِعنا في مجَالِسِنا الأَذِينَا

وكان ابن مسعود يقرأ «وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ» والمعنى واحد. ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي. الحسن: لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي. ٱبن عباس: لئن وَحَّدْتُم وأطعتم لأزيدنّكم من الثواب، والمعنى متقارب في هذه الأقوال؛ والآية نصٌّ في أن الشكر سبب المزيد؛ وقد تقدم في «البقرة» ما للعلماء في معنى الشكر. وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال: ألاّ تتقوّى بنعمه على معاصيه. وحكي عن داود عليه السلام أنه قال: أي رب كيف أشكرك، وشكري لك نعمة مجدّدة منك عليّ. قال: يا داود الآن شكرتني.

قلت: فحقيقة الشكر على هذا الاعترافُ بالنعمة للمنعم، وألاّ يصرفها في غير طاعته؛ وأنشد الهادي وهو يأكل:

أَنَالَكَ رِزقَه لتقومَ فيهِ ... بطاعتهِ وتشكرَ بعض حقِّه
فلم تشْكُر لِنعمتِهِ ولكِنْ ... قَوِيتَ على معاصِيهِ برزقه

فغُصَّ باللقمة، وخنقته العَبْرة. وقال جعفر الصادق: إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد. ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ أي جحدتم حقّي. وقيل: نِعَمِي؛ وَعَد بالعذاب على الكفر، كما وَعَد بالزيادة على الشكر، وحذفت الفاء التي في جواب الشرط من «إن» للشهرة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ

يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ أي لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغني. «الْحَمِيدُ» أي المحمود.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبأ الخبر، والجمع الأنباء؛ قال[1]:

* أَلَمْ يَأْتِيكَ وَٱلأنباءُ تَنْمِي *

ثم قيل: هو من قول موسى. وقيل: من قول الله؛ أي وٱذكر يا محمد إذ قال ربك كذا. وقيل: هو ٱبتداء خطاب من الله تعالى. وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله في كتابه. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يعرف نسبهم إلا الله؛ والنّسابون وإن نَسَبوا إلى آدم فلا يدّعون إحصاء جميع الأمم، وإنما ينسبون البعض، ويمسِكون عن نسب البعض؛ وقد روي عن النبي ﷺ لما سمع النّسابين ينسبون إلى معدّ بن عدنان ثم زادوا فقال:

[٣٧٥٣ م] «كذب النسابون إن الله يقول: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وقد رُوي عن عُرْوة بن الزبير أنه قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسمعيل. وقال ٱبن عباس: بين عدنان وإسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون. وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ: «لاَ يعلمهُمْ إلاّ اللّه»: كذب النّسابون. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالحجج والدلالات. ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي جعل أولئك القوم أيدي أنفسهم في أفواههم ليَعضُّوها غيظاً مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تَسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ابن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. وقال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. وقال أبو صالح: كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم: أنِ ٱسكت، تكذيباً له، وردًّا لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسناداً؛ قال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن أبي

[٣٧٥٣م] باطل أخرجه ابن سعد ١/ ٤٧ وفيه الكلبي، وهو كذاب، وصح من كلام ابن مسعود.

---

(١) هو قيس بن زهير.

إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله[1] في قوله تعالى ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قال: عَضُّوا عليها غيظاً؛ وقال الشاعر:

لـو أنّ سَلْمَـى أَبْصَـرَتْ تَخَـدُّدِي[2] ودِقَّـةً فـي عظـمِ سـاقـي ويَـدي
وبُعْـدَ أَهْلـي وجَفَـاءَ عُـوَّدِي عَضّتْ من الْوَجْدِ بأطرافِ اليدِ

وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران» مجوّداً، والحمد لله. وقال مجاهد وقَتَادة: ردّوا على الرسل قولهم وكذّبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثاني للكفار. وقال الحسن وغيره: جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردًّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثاني للرسل. وقيل معناه: أَوْمأوا للرسل أن يسكتوا. وقال مقاتل: أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم. وقيل: ردّ الرسل أيدي القوم في أفواههم. وقيل: إن الأيدي هنا النِّعم؛ أي ردّوا نِعم الرسل بأفواههم، أي بالنطق والتكذيب؛ ومجيء الرسل بالشرائع نِعَمٌ؛ والمعنى: كذّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل. و «في» بمعنى الباء؛ يقال: جلست في البيت وبالبيت؛ وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض. وقال أبو عبيدة: هو ضرب مَثَل؛ أي لم يُؤْمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردّ يده في فيه؛ وقاله الأخفش أيضاً. وقال القُتَبيّ: لم نسمع أحداً من العرب يقول: ردّ يده في فيه إذا ترك ما أمر به، وإنما المعنى: عضوا على الأيدي حنقاً وغيظاً؛ لقول الشاعر:

تَـرُدّون فـي فِيـهِ غِـشَّ الْحَسُـو دِ حتـى يَعَـضَّ علـيّ الأَكُفَّـا

يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه وكفّيه. وقال آخر:

قَـدْ أَفْنَـى أنَـامِلَـهُ أَزْمَـةً فـأضحَى يَعَضُّ علـيَّ الْـوَظِيفَا[3]

وقالوا: يعني ـ الأمم للرسل ـ ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقرّوا أنهم أُرسلوا. ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾ أي في ريب ومِرية. ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾ من التوحيد. ﴿مُرِيبٖ ٩﴾ أي موجب للرّيبة؛ يقال: أربته إذ فعلت أمراً أوجب ريبة وشكًّا؛ أي نظنّ أنكم تطلبون الملك والدنيا.

قوله تعالى: ﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ

---

(١) حيثما أطلق عبد الله عند أهل الكوفة، فهو ابن مسعود.
(٢) التخدّد: أن يضطرب اللحم من الهزال.
(٣) لكل ذي أربع ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق.

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ ٱستفهام معناه الإنكار؛ أي لا شك في الله، أي في توحيده؛ قاله قَتَادة. وقيل: في طاعته. ويحتمل وجهاً ثالثاً: أفي قدرة الله شك؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها؛ يدلّ عليه قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم، لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي إلى طاعته بالرسل والكتب. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيد: «مِنْ» زائدة. وقال سيبويه: هي للتبعيض؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع. وقيل: «مِن» للبدل وليست بزائدة ولا مُبَعِّضَة؛ أي لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم. ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي بحجة ظاهرة؛ وكان هذا مِحالاً منهم؛ فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي في الصورة والهيئة كما قلتم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ﴾ أي يتفضّل عليه بالنبوّة. وقيل؛ بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه.

قلت: وهذا قول حسن؛ وقد خرّج الطبريّ من حديث ابن عمر قال قلت لأبي ذرّ: يا عمّ أوصني؛ قال: سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال:

[٣٧٥٤] «ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمنّ بها على من يشاء من عباده وما منّ الله تعالى على عباده بمثل أن يُلهمهم ذِكره». ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم

[٣٧٥٤] ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٥٠ فقال: أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي ذر اهـ ولم أقف على إسناده، ولم أجده عند الطبري، فالله أعلم ولينظر.

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي بحجة وآية. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا؛ أي لا نستطيع أن نأتي بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته؛ فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفي، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «ما» استفهام في موضع رفع بالابتداء، و«لَنَا» الخبر، وما بعدها في موضع الحال؛ التقدير: أيّ شيء لنا في ترك التوكل على الله. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أي الطريق الذي يوصل إلى رحمته، وينجي من سخطه ونقمته. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ لام قسم؛ مجازه: والله لنصبرن ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ به، أي من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ اللام لام قسم؛ أي والله لنخرجنكم. ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أي حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا؛ قاله الطبريّ وغيره. قال ابن العربي: وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير؛ فإنّ «أوْ» على بابها من التخيير؛ خيّر الكفار الرسل بين أن يعودوا في مِلتهم أو يخرجوهم من أرضهم؛ وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٦] وقد تقدم هذا المعنى في «الأعراف» وغيرها. ﴿فِى مِلَّتِنَا﴾ أي إلى ديننا، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي مقامه بين يديّ يوم القيامة؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل. والمقام مصدر كالقيام؛ يقال: قام قياماً ومَقاماً؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به. والمقام بفتح الميم مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة؛ و«ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي» أي قيامي عليه، ومراقبتي له؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. وقال الأخفش: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي عذابي، «وَخَافَ وَعِيدِ» أي القرآن وزواجره. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ أي وٱستنصروا؛ أي أذِن للرسل في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم؛ قاله ابن عباس وغيره، وقد مضى في «البقرة». ومنه الحديث: إن النبي ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين[1]، أي يستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية. وروي عن ابن عباس. وقيل قال الرسول: «إنهم كذبوني فافتح بيني وبينهم فتحاً» وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذّبنا، عن ابن عباس أيضاً؛ نظيره ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩] ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧]. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ الجبار المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً؛ هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس. والعنيد المعاند للحق والمجانب له، عن ٱبن عباس وغيره؛ يقال: عَنَد عن قومه أي تباعد عنهم. وقيل: هو من العَنَد، وهو الناحية وعاند فلان أي أخذ في ناحية مُعْرِضاً؛ قال الشاعر:

إذا نـزلـتُ فـٱجعلـونـي وَسَطَـا إنّـي كبيـرٌ لا أُطِيـقُ الْعُنَّـدَا

وقال الهَرَويّ قوله تعالى: ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ أي جائر عن القصد؛ وهو العَنُود والعَنِيد والعانِد؛ وفي حديث ٱبن عباس وسئِل عن المستحاضة فقال: إنه عِرْقٌ عانِدٌ. قال أبو عبيد: هو الذي عَنَد وبَغَى كالإنسان يعانِد؛ فهذا العِرق في كثرة ما يخرج منه بمنزلته. وقال شَمِر: العاند الذي لا يرقأ. وقال عمر يذكر سيرته: أَضُمُّ العَنُود؛ قال الليث: العنود من الإبل الذي لا يخالطها إنما هو في ناحية أبداً؛ أراد من هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها. وقال مقاتل: العنِيد المتكبر. وقال ابن كَيْسان: هو الشامخ بأنفه. وقيل: العَنُود والعَنِيد الذي يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها؛ تقول العرب: شر الإبل العنود الذي يخرج عن الطريق. وقيل: العنيد العاصي. وقال قتادة: العنيد الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله.

قلت: والجبار والعنيد في الآية بمعني واحد، وإن كان اللفظ مختلفاً، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أي متكبر. وقيل: إن المراد به في الآية أبو جهل؛ ذكره المهدويّ. وحكى الماورديّ في كتاب «أدب الدنيا والدين» أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل

---

(١) تقدم تخريجه.

يوماً في المصحف فخرج له قوله عز وجل: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أَتُوعِدُ كلَّ جَبَّارٍ عَنِيدِ فها أنا ذاكَ جبَّارٌ عَنِيدُ
إذا ما جِئتَ ربَّكَ يوم حَشْرٍ فَقُلْ يا رَبِّ مَزَّقني الوليدُ

فلم يلبث إلا أياماً حتى قُتل شرّ قِتلةٍ، وصُلِب رأسه على قصره، ثم على سُور بلده.

قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم، أي من بعد هلاكه. ووراء بمعنى بعدُ؛ قال النابغة:

حَلَفتُ فلم أترِكْ لِنفسكَ رِيبةً وليس وراءَ اللّهِ للمرء مذهبُ

أي بعد الله جلّ جلالُه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ [إبراهيم: ١٧] أي من بعده، وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١] أي بما سواه؛ قاله الفراء. وقال أبو عبيد: بما بعده. وقيل: «مِنْ وَرَائِهِ» أي من أمامه ومنه قول الشاعر:

ومِنْ ورائِكَ يومٌ أنتَ بالِغُه لا حاضرٌ مُعجِزٌ عنه ولا بادِي

وقال آخر:

أَتَرْجُو بنو مروانَ سمعِي وطاعتِي وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا

وقال لبيد:

أليس ورائِي إنْ تَراخت منِيَّتِي لُزومُ العَصَا تُحنَى عليها الأصابعُ

يريد أمامي. وفي التنزيل: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] أي أمامهم؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطْرُب وغيرهما. وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الأمر من ورائك، أي سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أي في طلبه وسأصل إليه. وقال النحاس: في قوله «مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ» أي من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارى؛ أي ٱستتر. وقال الأزهري: إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد، وقاله أبو عبيدة أيضاً، واشتقاقهما مما توارىٰ واستتر، فجهنم تَوَارَى ولا تظهر، فصارت من وراء لأنها لا ترى؛ حكاه ابن الأنباري وهو حسن.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾ أي من ماء مثل الصديد، كما يقال للرجل الشجاع أسد، أي مثل الأسد، وهو تمثيل وتشبيه. وقيل: هو ما يسيل من أجسام

أهل النار من القيح والدم. وقال محمد بن كعب القُرَظيّ والربيع بن أنَس: هو غسَالة أهل النار، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني. وقيل: هو من ماء كرهته تَصدّ عنه، فيكون الصديد مأخوذاً من الصدّ. وذكر ابن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عُبيد الله بن بُسْر عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبرهيم: ١٦] قال:

[٣٧٥٥] «يُقرّب إلى فِيهِ فيكرهه فإذا أدني منه شَوَى وجهه ووقعت فَرْوة رأسه فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ [محمد: ١٥] ويقول الله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]» خرجه الترمذي، وقال: حديث غريب، وعُبيد الله بن بُسْر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله بن بُسْر[1]. ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي يَتَحَسَّاه جُرَعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي يبتلعه؛ يقال: جرع الماء وأجترعه وتجرعه بمعنى. وساغ الشَّرابُ في الحلق يسوغ سوغاً إذا كان سَلِساً سهلاً، وأساغه اللّهُ إساغةً. و «يَكَادُ» صلة؛ أي يسيغه بعد إبطاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧١﴾ [البقرة: ٧١] أي فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ [الحج: ٢٠] فهذا يدلّ على الإساغة. وقال ابن عباس: يجيزه ولا يمر به. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال ابن عباس: أي يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته ومن قدّامه وخلفه، كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال إبراهيم التيمي: يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره؛ للآلام التي في كل مكان من جسده. وقال الضحّاك: إنه

[٣٧٥٥] أخرجه الترمذي ٢٥٨٣ والنسائي في الكبرى ١١٢٦٣ والحاكم ٢/ ٣٥١/ ٣٣٣٩ والطبري ٢٠٦٣٢ من حديث أبي أمامة، صححه الحاكم على شرط مسلم! ووافقه الذهبي! وسبب ذلك أنه وقع في المستدرك عبد الله بن بسر عن أبي أمامة، وعلى هذا فابن بسر صحابي. والصواب أنه عبيد الله بن بسر قال الترمذي: غريب. قال البخاري: لانعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث. قال الترمذي: ابن بسر هذا ليس بصاحب اهـ ملخصاً وقد رجع الذهبي فذكره في ميزانه فقال: عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة: لايُعرف اهـ وقال في التقريب ـ ابن حجر ـ: حمصي مجهول. اهـ فالخبر واهٍ وأخرجه الترمذي ٣٥٨٤ من حديث أبي سعيد باختصار، فذكر صدره، وفيه درَّاج ضعيف في روايته عن أبي الهيثم خاصة، وأحاديث الترهيب تساهل بها، والله أعلم

---

(١) عبد الله بن بسر هذا صحابي.

ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه. وقال الأخفش: يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سماها موتاً، وهي من أعظم الموت. وقيل: إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وكِّل به نوع من العذاب؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها في فرد لحظة؛ إما حية تَنهشه، أو عقرب تَلسبه[1]، أو نار تَسفعه، أو قيد برجليه، أو غُلّ في عنقه، أو سلسلة يقرن بها، أو تابوت يكون فيه، أو زقّوم أو حميم، أو غير ذلك من العذاب. وقال محمد بن كعب: إذا دعا الكافر في جهنم بالشراب فرآه مات موتاتٍ، فإذا دنا منه مات موتاتٍ، فإذا شرب منه مات موتاتٍ؛ فذلك قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. قال الضحّاك: لا يموت فيستريح. وقال ابن جريج: تعلق رُوحه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة؛ ونظيره قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤﴾ [طه: ٧٤]. وقيل: يخلق الله في جسده آلاماً كل واحد منها كألم الموت. وقيل: «وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ» لتطاول شدائد الموت به، وٱمتداد سكراته عليه؛ ليكون ذلك زيادة في عذابه.

قلت: ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] وبذلك وردت السنة؛ فأحوال الكفار أحوال من ٱستولى عليه سكرات الموت دائماً، والله أعلم. ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي من أمامه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ أي شديد متواصل الآلام من غير فتور؛ ومنه قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] أي شدة وقوة. وقال فُضَيل بن عِياض في قول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ قال: حبس الأنفاس.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النحويون في رفع «مَثَلُ» فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر مضمر؛ التقدير: وفيما يُتلى عليكم أو يُقصّ «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» ثم ابتدأ فقال: «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أي كمثل رماد ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾. وقال الزجاج: أي مَثَل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالُهم كرماد، وهو عند الفرّاء على إلغاء المَثَل، التقدير: والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد. وعنه أيضاً أنه

---

(١) تلسبه: تلدغه. وتسفعه: تسود وجهه.

على حذف مضاف؛ التقدير: مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدويّ، والثاني القُشَيريّ والثّعلبيّ ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال: صفة فلان أسمر؛ فـ «مَثَلُ» بمعنى صفة. ويجوز في الكلام جر «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الَّذِينَ» واتصل هذا بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ والمعنى: أعمالهم مُحْبَطة غير مقبولة. والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء؛ فضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفّار في أنه يمحقها كما تمحق الرّيحُ الشديدة الرّمادَ في يوم عاصف. والعَصْفُ شدة الريح؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى. وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل: أحدها ـ أن العُصُوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به؛ لأن الرّيح تكون فيه، فجاز أن يقال: يوم عاصف، كما يقال: يوم حارّ ويوم بارد، والبرد والحرّ فيهما. والثاني ـ أن يريد ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ الرّيح؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة، كما قال الشاعر:

إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِفُ

يريد كاسف الشمس فحذف؛ لأنه قد مرّ ذكره؛ ذكرهما الهَرَويّ. والثالث ـ أنه من نعت الريح؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل: جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ؛ ذكره الثعلبيّ والماورديّ. وقرأ ابن أبـي إسحق وإبراهيم بن أبي بكر «في يومِ عاصفٍ»[1]. ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعني الكفار. ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد في الآخرة؛ أي من ثواب ما عمِلوا من البِرّ في الدنيا، لإحباطه بالكفر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝١٨﴾ أي الخسران الكبير؛ وإنما جعله كبيراً بعيداً لفوات استدراكه بالموت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا رؤية القلب؛ لأن المعنى: ألم ينته علمك إليه؟. وقرأ حمزة والكسائي ـ «خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ». ومعنى «بِالْحَقِّ» ليستدلّ بها على قدرته. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس؛ أي هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩﴾ أفضل وأطوع منكم؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ أي منيع متعذر.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ

---

(١) من قرأ بها أقام الصفة مقام الموصوف أي: في يوم ريح عاصف.

صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي برزوا من قبورهم، يعني يوم القيامة. والبُرُوز الظّهور. والبَرَاز المكان الواسع لظهوره؛ ومنه ٱمرأة بَرْزَة أي تظهر للناس؛ فمعنى، «بَرَزُوا» ظهروا من قبورهم. وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال، وٱتصل هذا بقوله: «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» أي وقاربوا لما ٱستفتحوا فأهلكوا، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعاً لا يسترهم عنه ساتر. «لِلَّهِ» لأجل أمر الله إياهم بالبروز. ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ يعني الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم القادة. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ يجوز أن يكون تَبعٌ مصدراً؛ التقدير: ذوي تبع. ويجوز أن يكون جمع تابع؛ مثل حارس وحَرَس، وخادم وخَدَم، وراصد ورَصَد، وباقر وبَقَر. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي دافعون ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي شيئاً، و «مِن» صلة؛ يقال: أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى، وأغناه إذا أوصل إليه النفع. ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. وقيل؛ لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ هذا ابتداء خبره «أَجَزِعْنَا» أي: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ أي من مهرب وملجأ. ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الاسم؛ يقال: حَاصَ فلان عن كذا أي فرّ وزاغ يَحِيص حَيْصاً وحُيُوصاً وحَيَصَاناً؛ والمعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار. وروي عن النبي ﷺ أنه قال:

[٣٧٥٦] «يقول أهل النار إذا ٱشتدّ بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمَّ فلنجزع فيجزعون ويصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ». وقال محمد بن كعب القُرَظيّ: ذُكِر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون، فهلمّ فلنصبر؛ فلعلّ الصّبر ينفعنا كما صبر أهل

[٣٧٥٦] ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٨٤) والأوسط كما في المجمع ١١٠٩٧ من حديث كعب بن مالك، وفيه أنس بن القاسم، قال الذهبي في ميزانه: مجهول. اهـ ولذا جعله البغوي في تفسيره ٣/ ٢٤ من قول مقاتل. وجعله الطبري ٢٠٦٤٠ من قول محمد بن كعب، و٢٠٦٤١ من قول ابن زيد:

الطّاعة على طاعة الله فنفعهم الصّبر إذ صبروا؛ فأجمعوا رأيهم على الصّبر فصبروا، فطال صبرهم فجزعوا، فنادوا: «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيص» أي مَنجَى، فقام إبليس عند ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ يقول: لست بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ الحديث بطوله، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» بكماله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً. ومعنى: «لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ» أي حُصِّل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، على ما يأتي بيانه في «مريم» عليها السلام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصي فصدَقكم وعدَه، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم. وروى ابن المبارك من حديث عُقْبة بن عامر عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة قال:

[٣٧٥٧] «فيقول عيسى أدلّكم على النبي الأمي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فَيثُور مجلسي من أطيب ريح شَمَّها أحدٌ حتى آتي ربي فيشفِّعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيَثُور مجلسه من أنتن ريح شَمَّها أحدٌ ثم يَعظُم نَحِيبُهم ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية. «وَعْدَ الْحَقِّ» هو إضافة الشيء إلى نعته كقولهم: مسجد الجامع؛ قال الفرّاء قال البصريون: وعدكم وعد اليوم الحقّ أو وعدكم وعد الوعد الحقّ فصدَقكم؛ فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي من حجة وبيان؛ أي ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزيّنته لكم في الدنيا، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي أغويتكم فتابعتموني. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. «إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ» هو ٱستثناء منقطع؛ أي لكن دعوتكم بالوسواس فٱستجبتم لي باختياركم، ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾. وقيل: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم

[٣٧٥٧] ضعيف. أخرجه نُعيم في زوائد الزهد ٣٧٤ والطبري ٢٠٦٤٦ من طريق رشدين بن سعد عن بعد الرحمن بن زياد، وكلاهما ضعيف.

﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن دعوتكم فاستجبتم لي؛ وهذا على أنه خَطَب العاصيَ المؤمنَ والكافَر الجاحد؛ وفيه نظر؛ لقوله: «لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ» فإنه يدلّ على أنه خَطَب الكفّار دون العاصين الموحِّدين؛ والله أعلم. ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ إذا جئتموني من غير حجة. ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي بمغيثيّ. والصّارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النُّصرة والمعاونة، والمُصْرِخ هو المغِيث. قال سَلاَمة بن جَنْدَل:

كنّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ ... كَان الصُّراخُ له قَرْعُ الظَّنَابِيب[1]

وقال أُميّة بن أبي الصَّلْت:

ولا تَجَزعوا إنّي لكم غيرُ مُصْرِخٍ ... وليس لكم عندي غَنَاءٌ ولا نَصْرُ

يقال: صَرَخ فلان أي ٱستغاث يَصرُخ صَرْخاً وصُرَاخاً وصَرْخة. وٱصطرخ بمعنى صَرَخ. والتَّصرخ تَكلُّف الصُّراخ. والمُصْرِخُ المُغِيث، والمستصرِخ المستغيث؛ تقول منه: ٱستصرخني فأصرخته. والصَّرِيخ صوت المستصرِخ. والصَّرِيخ أيضاً الصارخ، وهو المغِيث والمستغِيث، وهو من الأضداد؛ قاله الجوهري. وقراءة العامة «بِمُصْرِخِيَّ» بفتح الياء. وقرأ الأعمش وحمزة «بِمصِرخيِ» بكسر الياء. والأصل فيها بمصرخيين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعيّن فيها الفتح مثل: هَوايَ وعَصايَ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان، مثل: غلامِيَ وغلامَتِي، ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة. وقال الفرّاء: قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقَلَّ مَن سلِم منهم[2] عن خطأ. وقال الزجّاج: هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف. وقال قُطْرُب: هذه لغة بني يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء. القُشَيريّ: والذي يغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبي ﷺ فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيحٌ أو رديءٌ، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح. ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة؛ فـ «ما» بمعنى المصدر. وقال ابن جريج: إني كفرت اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشّرك بالله تعالى. قتادة: إني عصيت الله. الثوريّ: كفرت بطاعتكم إياي في الدنيا. ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾. وفي هذه الآيات ردّ على القَدَرية

---

(١) جمع ظنبوب. وهو حرف الساق اليابس. وقرع ظنابيب الأمر: ذلّله.

(٢) أي من القراء.

والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم؛ أنظر إلى قول المتبوعين: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ وقول إبليس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ كيف اعترفوا بالحق في صفات الله تعالى وهم في دركات النار؛ كما قال في موضع آخر: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٨] إلى قوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ واعترافهم في دَرَكات لَظَى بالحقّ ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبَه في الدنيا؛ قال الله عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] و «عَسَى» من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ﴾ أي في جنات لأن دخلت لا يتعدى، كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت، ولا يقاس عليه؛ قاله المهدوي. ولما أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضاً. وقراءة الجماعة «أُدْخِلَ» على أنه فعل مبني للمفعول. وقرأ الحسن «وَأُدْخِلُ» على الاستقبال والاستئناف. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» ولم يقل: بإذني تعظيماً وتفخيماً. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ تقدم في «يونس». والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لما ذكر تعالى مَثَل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف، ذكر مَثَل أقوال المؤمنين وغيرها، ثم فسّر ذلك المَثَل فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثّمر، فحذف لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن. وقال مجاهد وابن جريج: الكلمة الطيبة الإيمان. عطية الْعَوْفيّ والرّبيع بن أنَس: هي المؤمن نفسه. وقال مجاهد أيضاً وعِكْرِمة: الشّجرة النّخلة؛ فيجوز أن يكون المعنى: أصل الكلمة في قلب المؤمن ـ وهو الإيمان ـ شبّهه بالنخلة في الْمنبِت، وشّبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النّخلة، وثواب الله له بالثّمر. وروي من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال:

[٣٧٥٨] «إن مَثَل الإيمان كمثل شجرة ثابتةٍ الإيمان عُروقُها والصلاةُ أصلُها والزكاةُ فروعُها والصيامُ أغصانُها والتأذي في الله نباتُها وحسنُ الخُلُقِ ورقُها والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها». ويجوز أن يكون المعنى: أصل النّخلة ثابت في الأرض؛ أي عروقُها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهي زاكية نامية. وخرّج الترمذيّ من حديث أَنَس بن مالك قال:

[٣٧٥٩] أُتِيَ رسول الله ﷺ بقِناع[1] فيه رُطَب، فقال: «مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرةَ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا - قال - هي النخلة وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْض مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ - قال - هي الحنظل». وروي عن أنس قوله وقال: وهو أصح.

وخرج الدَّارقُطْنيّ عن ابن عمر قال:

[٣٧٦٠]قرأ رسول الله ﷺ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هي» فوقع في نفسي أنها النّخلة. قال السُّهَيليّ ولا يصح فيها ما روي عن عليّ بن أبي طالب أنها جَوْزة الهند.

لِما صحّ عن النبي ﷺ في حديث ابن عمر:

[٣٧٦١]«إنَّ من الشجرة شجرةً لا يسقط ورقها وهي مِثْلُ المؤمن خبِّروني ما هي - ثم قال - هي النخلة» خرّجه مالك في «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره إلاّ يحيىٰ فإنه أسقطه من روايته. وخرجه أهل الصحيح وزاد فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوي رِحلة[2]؛ عن

[٣٧٥٨] لم أجده بعدُ.

[٣٧٥٩] أخرجه الترمذي ٣١١٩ والنسائي في الكبرى ١١٢٦٢ والطبري ٢٠٦٧٠ والحاكم ٣٣٤١ من حديث أنس، واللفظ للترمذي، وقال: تفرد حماد بن سلمة برفعه، والموقوف أصح اهـ وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وحماد ثقة من رجال مسلم، وقد خالفه ابن علية ومهدي بن ميمون وغيرهما فروه موقوفاً، وهو أصح.

[٣٧٦٠] لم أجده في سنن الدارقطني، ولعله في كتاب الأفراد أو العلل، وما بعده يغني عنه، ونسبه الحافظ في الفتح ١/١٤٦ للبزار.

[٣٧٦١] صحيح. أخرجه البخاري ٦١ و ١٣١ و ٤٦٩٨ ومسلم ٢٨١١ والترمذي ٢٨٦٧ وأحمد ٢/٣١ وابن حبان ٢٤٣ من حديث ابن عمر، بألفاظ متقاربة.

---

(١) هو الطبق من عسب النخل، يوضع فيه الطعام والفواكه.

(٢) أي يجب أن يُرحل إليها لأهميتها.

النبي ﷺ قال: «وهي النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة»(١). فبيّن معنىٰ الحديث والمماثلة.

قلت: وذكر الغَزْنَويّ عنه عليه السلام:

[٣٧٦٢] «مَثَلُ المؤمن كالنّخلة إن صاحبتَه نفعَك وإن جالستَه نفعَك وإن شاورتَه نفعك كالنخلة كل شيء منها ينتفع به». وقال: «كُلُوا من عَمَّتكم»(٢) يعني النخلة خلقت من فَضْلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تَبقى، وبقلبها تَحيا، وثمرها بامتزاج الذّكر والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبّهت به؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلاً؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح قال النبي ﷺ:

[٣٧٦٣] «خير المال سِكّة مَأْبُورَة ومُهْرَة مأمورة». والإبّار اللقاح وسيأتي في سورة «الحجر» بيانه. ولأنها من فضلة طينة آدم. ويقال: إن الله عز وجل لما صوّر آدم من الطّين فَضَلت قطعة طين فصوّرها بيده وغرسها في جنّة عَدْن. قال النبيّ ﷺ:

[٣٧٦٤] «أكرموا عَمّتكم» قالوا: ومن عمتنا يا رسول الله؟ قال: «النخلة». ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ قال الربيع: «كُلِّ حِينٍ» غدوة وعِشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس. وعنه ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ قال: هو شجرة جوزة الهند لا تتعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر، شبّه عمل المؤمن لله عز وجل في كل وقت بالنخلة التي تؤتي أكلها في أوقات مختلفة. وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفاً يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات

[٣٧٦٢] أخرجه البزار في سننه ١/ ٣١ وأبو يعلى كما في المطالب العالية ٢٨٩١ من حديث ابن عمر وقال البوصيري في الزوائد: رواه أبو يعلى من طرق بعضها جيد. وقال الحافظ في الفتح ١/ ١٤٧: إسناد البزار صحيح، وهو عنده مختصر ا هـ.

[٣٧٦٣] يأتي.

[٣٧٦٤] ضعيف جداً. أخرجه أبو يعلى ٤٥٥ وأبو نعيم ٦/ ١٢٣ وابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٤ وابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٨٤من حديث علي، وقال ابن الجوزي: لايصح. مسرور بن سعيد منكر الحديث ا هـ. وحكم الألباني في السلسة الضعيفة ٢٦٣ بأنه موضوع.

---

(١) ذكر هذه الزيادة ابن حجر في الفتح ١/ ١٤٥ وقال: هي للحارث بن أبي أسامة ا هـ ولم أقف على إسناده.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، والمشهور فيه «أكرموا» وهو الآتي بعد حديث واحد.

كلها. وقال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعيّ بيت النّابغة:

تَنَاذَرها الرَّاقُونَ مِن سُوءِ سمّها تُطَلِّقُه حِيناً وحِيناً تُراجِعُ

فهذا يبيّن لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النّخلة في أوقات السنة كلها، من الرطب والبُسْر والبلح والزَّهْو[1] والتّمر والطلع. وفي رواية عن ابن عباس: إن الشجرة شجرة في الجنة تثمر في كل وقت. و «مَثَلاً» مفعول بـ «ضَرَبَ»، «وكَلِمَةً» بدل منه، والكاف في قوله: «كَشَجَرَةٍ» في موضع نصب على الحال من «كَلمة» التقدير: كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ لما كانت الأشجار تؤتي أكلها كل سنة مرة كان في ذلك بيان حكم الحين؛ ولهذا قلنا: من حلف ألاّ يكلّم فلاناً حيناً، ولا يقول كذا حيناً إن الحين سنة. وقد ورد الحين في موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ قيل في «التفسير»: أربعون عاماً. وحكى عِكرمة أن رجلاً قال: إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حُرٌّ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله، فسألني عنها فقلت: إن من الحين حيناً لا يدرك، قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء: ١١١] فأرى أن تُمسك ما بين صِرَام النّخلة إلى حَمْلها، فكأنه أعجبه؛ وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعاً لعكرمة وغيره. وقد مضى ما للعلماء في الحين في «البقرة» مستوفى والحمد لله. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ويعتبرون؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر. وقيل: الكافر نفسه. والشجرة الخبيثة شجرة الحَنْظَل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وعن ابن عباس أيضاً: أنها شجرة لم تخلق على الأرض. وقيل: هي شجرة الثّوم؛ عن ابن عباس أيضاً. وقيل: الكَمْأَةُ والطّحلبة. وقيل: الْكَشُوث، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

---

(١) الزهو: البسر الملوّن.

* وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ *

﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ اقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط:

هو الجلاءُ الذي يَجتثُّ أصلَكُمُ ... فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا

وقال المؤرج: أخِذَت جثّتها وهي نفسها، والجثّة شخص الإنسان قاعداً أو قائماً. وَجَثّه قَلَعه، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض؛ أي ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض. ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي من أصل في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قولٌ طيّب ولا عملٌ صالح. وروى معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: لا إله إلا الله «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ» قال: المؤمن؛ «أَصْلُهَا ثَابِتٌ» لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن؛ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: الشرك، «كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ» قال: المشرك؛ ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي ليس للمشرك أصل يعمل عليه. وقيل: يرجع المَثَل إلى الدعاء إلى الإيمان، والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشيء.

قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال ابن عباس: هو لا إله إلا الله.

[٣٧٦٥] وروى النسائي عن البَرَاء[1] عن النبي ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ نزلت في عذاب القبر؛ يقال له: مَن ربك؟ فيقول: ربّيَ الله وديني دين محمد، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

[٣٧٦٥] مرفوع صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٧١ والترمذي ٣١٢٠ والنسائي في الكبرى ١١٢٦٤ والطبري ٢٠٧٥٩ من حديث البراء مرفوعاً. وأخرجه أبو داود ٤٧٥٣ و ٤٧٥٤ وابن أبي شيبة ٣/ ٣٨٠ وعبد الرزاق ٦٧٣٧ من طريق آخر مرفوعاً. ورواية لمسلم والنسائي عن البراء موقوفاً، لكن تقدم أنه مرفوع من طريقين كلاهما رجاله ثقات، والزيادة من الثقة مقبولة، ثم إن مثله لايقال بالرأي، والله الموفق.

---

(١) في الأصول «قال قال» والتصويب عن سنن النسائي وغيره.

قلت: وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البَرَاء أنه قوله، والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النَّسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم، عن البَرَاء عن النبيّ ﷺ؛ وذكر البخاريّ؛ حدّثنا جعفر بن عمر، قال حدّثنا شُعْبة عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البَرَاء بن عازب عن النبيّ ﷺ قال:

[٣٧٦٦] «إذا أقعد المؤمنُ في قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ».

وقد بيّنا هذا الباب في كتاب «التذكرة» وَبَيّنَّا هناك من يُفتَن في قبره ويُسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأمّله هناك. وقال سهل بن عمّار: رأيت يزيد بن هرون في المنام بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أتاني في قبري مَلَكان فظّان غليظان، فقالا: ما دِينك ومن ربك ومن نبيّك؟ فأخذت بلحيتي البيضاء وقلت: ألمثلي يقال هذا وقد عَلَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سَنَة؟! فذهبا وقالا: أكَتَبْتَ عن حَرِيز بن عثمان؟ قلت نعم! فقالا: إنه كان يبغض عليا فأبغضه الله. وقيل: معنى، «يُثَبِّتُ اللَّهُ» يُديمهم الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رَوَاحَة:

يُثَبِّتُ اللَّهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ موسى ونَصراً كالذي نُصِرَا

وقيل: يثبتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت. وقال القَفَّال وجماعة: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يبعثوا، «وَفِي الآخِرَةِ» أي عند الحساب؛ وحكاه الماورديّ عن البَرَاء قال: المراد بالحياة الدنيا المُسَاءلة في القبر، وبالآخرة المُسَاءلة في القيامة: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عن حجتهم في قبورهم كما ضَلّوا في الدنيا بكفرهم فلا يُلقِّنهم كلمة الحق، فإذا سُئِلوا في قبورهم قالوا: لا ندري؛ فيقول: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ؛ وعند ذلك يُضرَب بالمقامِع[1] على ما ثبت في الأخبار؛ وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة». وقيل: يمهلهم حتى يزدادوا ضلالاً في الدنيا. ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم. وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي ﷺ لما وصف مُسَاءلة مُنْكَر ونكِير وما يكون من جواب الميت قال عمر:

[٣٧٦٦] صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٩ من حديث البراء، وله شواهد كثيرة.

---

(١) انظر صحيح البخاري ١٣٧٤ ومسلم ٢٨٧٠ وأحمد ٣/١٢٦ وابن حبان ٣١٢٠ رووا مثل هذا من حديث أنس، وعند غيرهم من حديث أبي هريرة.

[٣٧٦٧] يا رسول الله أيكون معي عقلي؟ قال: «نعم» قال: كُفيتُ إذاً؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر في تكذيبهم محمداً ﷺ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم؛ عن ابن عباس وعليّ وغيرهما. وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي ﷺ يوم بدر. قال أبو الطُّفَيل: سمعت عليّاً رضي الله عنه يقول: هم قريش الذين نُحِروا يوم بدر. وقيل: نزلت في الأفْجَرَيْن من قريش بني مخزوم وبني أمية، فأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين؛ وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بَدْر؛ قاله علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وقول رابع: أنهم مُتنصِّرة العرب جَبَلة بن الأَيْهَم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها، فلم يرض وأَنِفَ فأرتدّ مُتنصراً ولَحق بالروم في جماعة من قومه؛ عن ابن عباس وقتادة. ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال:

تَنصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ ... وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تَكنَّفنـي منهـا لَجَـاجٌ ونَخْـوةٌ ... وبِعتُ لها العينَ الصحيحة بالْعَوَرْ
فيـا ليتنـي أَرْعـىٰ المَخَـاضَ ببلـدةٍ ... ولم أنكر القولَ الذي قاله عُمرْ

وقال الحسن: إنها عامة في جميع المشركين. ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي أنزلوهم. قال ابن عباس: هم قادة المشركين يوم بدر. ﴿أَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي الذين ٱتبعوهم. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ قيل: جهنم؛ قاله ابن زيد. وقيل: يوم بدر؛ قاله عليّ بن أبي طالب ومجاهد. والبوار الهلاك؛ ومنه قول الشاعر:

فلـم أَرَ مثلَهـمْ أبطـالَ حَـرْبٍ ... غـداةَ الحـرب إذْ خِيـفَ البَـوَارُ

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ بيّن أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على «دَارَ الْبَوَارِ» لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن «دَارَ الْبَوَارِ» فلو رفعها رافع بإضمار، على معنى: هي جهنم، أو بما عاد من الضمير في «يَصْلَوْنَهَا» لحسن الوقف على

[٣٧٦٧] أخرجه أحمد ٢/ ١٧٢ وابن حبان ٣١١٥ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وزاد الهيثمي في المجمع ٣/ ٤٧ نسبته للطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح اهـ.
تنبيه: وليس في الحديث ذكر نزول الآية وانظر الدر المنثور ٤/ ١٥٣.

«دَارَ الْبَوَارِ». ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾ أي المستقر. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي أصناماً عبدوها؛ وقد تقدم في «البقرة». ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي عن دينه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٩] ومثله في «لقمان» و «الزمر» وضَمَّها الباقون على معنى ليُضلوا الناس عن سبيله، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضلّون عن سبيل الله على اللزوم، أي عاقبتهم إلى الإضلال والضلال؛ فهذه لام العاقبة. ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ وعيد لهم، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾ أي مردّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي إن أهل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني الصلوات الخمس، أي قل لهم أقيموا، والأمر معه شرط مقدّر، تقول: أطع الله يُدخلْك الجنة؛ أي إن أطعته يدخلْك الجنة؛ هذا قول الفراء. وقال الزجّاج: «يُقِيمُوا» مجزوم بمعنى اللام، أي ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ«ـقل». قال: ويحتمل أن يقال: «يُقِيمُوا» جواب أمر محذوف؛ أي قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة. ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره. وقال الجمهور: السرّ ما خفي والعلانية ما ظهر. وقال القاسم بن يحيى: إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوّداً عند قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١]. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾ تقدم في «البقرة» أيضاً. و «خِلَالٌ» جمع خلة كقُلّة وقِلال. قال[1]:

فلستُ بمَقْليِّ الخِلاَلِ ولا قَالِي

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾.

---

(١) هو امرؤ القيس.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أبدعها واخترعها على غير مثال سبق. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من السّحاب. ﴿مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من الشجر ثمرات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ تقدم معناه في «البقرة». ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدُّؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران؛ روي معناه عن ابن عباس. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ أي لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئاً؛ فحذف؛ عن الأخفش. وقيل: المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه، ومن كل ما لم تسألوه فحذف، فلم نسأله شمساً ولا قمراً ولا كثيراً من نعمه التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[النحل: ٨١] على ما يأتي. وقيل: «من» زائدة؛ أي آتاكم كلّ ما سألتموه. وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلٍّ﴾ بالتنوين «مَا سَأَلْتُمُوهُ» وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقَتَادة؛ هي على النفي أي من كل ما لم تسألوه؛ كالشمس والقمر وغيرهما. وقيل: من كل شيء ما سألتموه أي الذي ما سألتموه. ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي نعم الله. ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ ولا تطيقوا عدّها، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها، كالسّمع والبصر وتقويم الصّور إلى غير ذلك من العافية والرزق؛ نعم لا تحصىٰ وهذه النّعم من الله، فَلِمَ تبدلون نعمة الله بالكفر؟! وهلا استعنتم بها على الطاعة؟! ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص؛ قال ابن عباس: أراد أبا جهل. وقيل: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ يعني مكة وقد مضى في «البقرة». ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ أي اجعلني جانباً عن عبادتها، وأراد بقوله: «بنيّ» بنيه من صُلْبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنماً. وقيل: هو دعاء لمن

أراد الله أن يدعو له. وقرأ الْجَحْدَرِيّ وعيسى «وَأَجْنِبْنِي» بقطع الألف والمعنى واحد؛ يقال: جَنَبْتُ ذلك الأمر؛ وأجنبته وجَنَّبته إياه فتجانبه وٱجتنبه أي تركه. وكان إبراهيم التَّيْميّ يقول في قصصه: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول ﴿وٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ كما عبدها أبي وقومي.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لما كانت سبباً للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازاً؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل. ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في التوحيد. ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي أصرّ على الشّرك. ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ قيل: قال هذا قبل أن يعرّفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به. وقيل: غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حيان: «وَمَنْ عَصَانِي» فيما دون الشرك.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى: روى البخاري عن ابن عباس:

[٣٧٦٨] أول ما ٱتخذ النِّساء المِنْطَق[1] من قِبل أم إسمعيل؛ ٱتخذت مِنْطَقاً لتُعفّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسمعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم في أعلى المسجد؛ وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك؛ ووضع عندهما جِراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيمُ منطلقاً فتبعته أمّ إسمعيل؛ فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت إذا لا يُضيِّعنا؛ ثم رجعت، فٱنطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِية حيث لا يرونه، ٱستقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: «ربِّ إنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» حتى بلغ «يَشْكُرُونَ» وجعلت أمّ إسمعيل تُرضع إسمعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفِد ما في السّقاء عطِشت وعطِش ٱبنها، وجعلت تنظر

[٣٧٦٨] صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٦٨ و ٣٣٦٤ و ٣٣٦٥ عن ابن عباس به مطولاً.

(١) هو أن تلبس المرأة ثوبها، ثم تشد وسطها بشيء، ثم ترفع وسط الثوب لئلا تعثر في ذيلها.

إليه يَتَلوّى ـ أو قال يَتَلَبَّط[1] ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم ٱستقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصَّفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طَرَف دِرْعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادي، ثم أتت الْمَرْوة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صهٍ! تريد نفسها، ثم تسمَّعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث! فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبَحَث بعَقِبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سِقائها وهو يفور بعد ما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينا مَعِيناً» قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها المَلَك: لا تخافي الضَّيْعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيِّع أهله؛ وذكر الحديث بطوله.

مسألة: لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرضٍ مَضيعة ٱتكالاً على العزيز الرحيم، واقتداءً بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غُلاَة الصُّوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم[2]. وقد روي أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسمعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فروي أنه ركب البراق هو وهاجر والطّفل فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك ٱبنه وأَمَته هنالك وركب منصرفاً من يومه، فكان ذلك كله بِوحيٍ من الله تعالى، فلما ولّى دعا بضمن هذه الآية.

الثانية: لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل المَلَك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء.

وفي الصحيح.

[٣٧٦٩] أن أبا ذرّ رضي الله عنه ٱجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذرّ: ما كان لي

[٣٧٦٩] هو بعض حديث أخرجه مسلم ٢٤٧٣ من حديث أبي ذر، وفيه: فقال له النبي ﷺ: إنها مباركة إنها طعام طُعْم...».

---

(١) تلبّط: تمرغ.

(٢) هذا بعض المتقدم.

طعام إلاّ ماء زمزم فسمِنت حتىٰ تكَسَّرت عُكَني[1]، وما أجد على كبدي سَخْفَة جوع، وذكر الحديث.

ورویٰ الدَّارقُطْني عن ابن عباس قال:

[٣٧٧٠]قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لِما شُرِب له، إن شربتَه تشتفي به شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به، وإن شربتَه لقطع ظمئك قطعه، وهي هَزْمة[2] جبريل، وسُقْيا الله إسمٰعيل». وروي أيضاً عن عكرمة قال: كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال: اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاء من كل داء. قال ابن العربي: وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحّت نيّته، وسلمت طويته، ولم يكن به مكذِّباً، ولا يشربه مجرِّباً، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرِّبين. وقال أبو عبد الله محمد بن عليّ الترمذي وحدثني أبي رحمه الله قال: دخلت الطّواف في ليلة ظلماء فأخذني من البول ما شغلني، فجعلت أعتصر[3] حتىٰ آذاني، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج؛ فذكرت هذا الحديث، فدخلت زمزم فَتَضَلَّعْتُ[4] منه، فذهب عني إلى الصباح. وروي عن عبد الله بن عمرو: إن في زمزم عيناً في الجنة من قِبل الركن.

الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿ومِن ذُرِيَّتِي﴾ «مِنْ» في قوله تعالىٰ: «مِنْ ذُرِّيَتي» للتبعيض أي أسكنت بعض ذريتي؛ يعني إسمعيل وأمه، لأن إسحق كان بالشام. وقيل: هي صلة؛ أي أسكنت ذريتي.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يدلّ على أن البيت كان قديماً على ما روي قبل الطُّوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة». وأضاف البيت إليه لأنه لا

[٣٧٧٠] أخرجه الحاكم ١/٤٧٣ والدارقطني ٢/٢٨٩ من حديث ابن عباس. قال الحاكم: صحيح الإسناد إن سلم من الجارودي. وسكت الذهبي. مع أنه ذكره في الميزان ٣/٥٠٨ فقال: غمزه الحاكم النيسابوري أتى بخبر باطل. اتهم بسنده اهـ ومراده هذا الحديث. وفي الباب من حديث جابر أخرجه ابن ماجه ٣٠٦٢ وأحمد ٣/٣٥٧، ومداره على عبد الله بن مؤمل، وهو ضعيف، وصححه الألباني. وفيه نظر، انظر تلخيص الحبير ٢٦٨٢ وفتح الباري ٣/٤٩٣ حيث أشار ابن حجر إلى ضعف هذا الحديث، وقد استوفيت الكلام عليه في كتاب العدة في فروع الحنابلة ص ٢٧٢. والله أعلم.

---

(١) هو ما انطوى من لحم البطن بسبب السِّمَن.

(٢) أي ضربها برجله فنبع الماء.

(٣) العصر هنا: الحبس والمنع.

(٤) تضلَّعَ: أكثر من الشرب، حتى تمدد جبينه، وأضلاعه.

يملكه غيره، ووصفه بأنه محرّم، أي يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع وٱستحلال. وقيل: محرّم على الجبابرة، وأن تنتهك حرمته، ويستخفّ بحقّه؛ قاله قتادة وغيره. وقد مضى القول في هذا في «المائدة».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّها من جملة الدِّين لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد؛ قال ﷺ:

[٣٧٧١] «خمس صلوات كتبهن الله على العباد». الحديث. واللام في «لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ» لام كي؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ«أَسْكَنْتُ» ويصح أن تكون لام أمر، كأنه رغِب إلى الله أن يأتمنهم وأن يوفقهم لإقامة الصلاة.

السادسة: تَضمَّنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى «رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ» أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه. وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي ﷺ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمائة صلاة، وٱحتجوا بحديث عبد الله بن الزّبير قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٧٧٢] «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة». قال الإمام الحافظ أبو عمر: وأسند هذا الحديث حبيبٌ المعلّم عن عطاء بن أبي رَبَاح عن عبد الله بن الزّبير وجوّده، ولم يخلّط في لفظه ولا في معناه، وكان ثقة. قال ابن أبي خَيْثَمة سمعت يحيى بن مَعِين يقول: حبيبٌ المعلّم ثقة. وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبي يقول: حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثَه! وسئل أبو زُرْعة الرازيّ عن حبيب المعلم فقال: بصري ثقة.

قلت: ـ وقد خرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رَبَاح عن عبد الله بن الزبير عن النبيّ ﷺ الحافظُ أبو حاتم محمد بن حاتم التميمي البُستي في المسند الصحيح له، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف. والحمد لله. قال أبو عمر: وقد روي عن ابن عمر عن النبي ﷺ مثل حديث ابن الزبير؛ رواه موسى الجُهَني عن نافع عن ابن عمر؛ وموسى الجهني الكوفي ثقة، أثنى عليه القَطّان وأحمد ويحيى

[٣٧٧١] أخرجه أبو داود ٤٢٥ من حديث عبادة بن الصامت، وهو صحيح، وقد مضى.

[٣٧٧٢] أخرجه أحمد ٤/٥ والبزار ٤٢٥ والطحاوي ١/٢٤٥ وابن حزم ٧/٢٩٠ والطيالسي ١٣٦٧ وصححه ابن حبان ١٦٢٠ من حديث عبد الله بن الزبير وإسناده على شرط مسلم كما قال الشيخ شعيب.

وجماعتهم، وروى عنه شعبة والثّوريّ ويحيى بن سعيد. وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٧٧٣] «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه». وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرِّقة قد روى عنه أبو زُرْعة الرازيّ، وأخذ عنه ابن وضّاح، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به. فإن كان حفِظ فهُما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المعلم. وروى محمد بن وضّاح، حدثنا يوسف بن عديّ عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٧٧٤] «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل». قال أبو عمر: وهذا كله نصٌّ في موضع الخلاف قاطع له عند من أُلْهِمَ رشدَه، ولم تَمل به عصبيّته. وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وعن أَصْبَغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي ﷺ على ما في هذا الباب. وقد ٱتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لهما في كل بلد إلا مكة فإنها تُصلَّى في المسجد الحرام. وكان عمر وعلي وٱبن مسعود وأبو الدَّرْدَاء وجابر يفضّلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم؛ وإلى هذا ذهب الشافعي، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين، وروي مثله عن مالك؛ ذكر ابن وهب في جامعه عن مالك أن آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال: يا ربّ هذه أحب إليك أن تُعبدَ فيها؟ قال: بل مكة. والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة، وٱختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك؛ فطائفة تقول مكة، وطائفة تقول المدينة.

قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب، وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر:

وإن فــؤاداً قــادنــي بصَبَــابَــةٍ إليكِ على طولِ المَدَى لَصَبُورُ

[٣٧٧٣] أخرجه ابن ماجه ١٤٠٦ وأحمد ٣/٣٤٣ والطحاوي في «المشكل» ١/٢٤٦ من حديث جابر، وإسناده صحيح، ورجاله ثقات «قاله البوصيري في الزوائد».

[٣٧٧٤] صحيح. أخرجه أحمد ٤٨٣٨ ومسلم ١٣٩٥ من حديث ابن عمر، واللفظ لأحمد، وليس عند مسلم لفظ «فهو أفضل».

وقيل: جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقدّمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هي، فكأنه قال: واجعل وفوداً من الناس تَهْوي إليهم؛ أي تَنزع؛ يقال: هوِي نحوه إذا مال، وهوت الناقة تَهوِي هُوِياً فهي هاوية إذا عَدَت عَدْواً شديداً كأنها في هواء بئر، وقوله: ﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ مأخوذ منه. قال ابن عباس ومجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: «مِنَ النَّاسِ» فهم المسلمون؛ فقوله: «تَهْوي إِلَيْهِمْ» أي تحنّ إليهم، وتحنّ إلى زيارة البيت. وقرأ مجاهد «تَهْوَى إليهِم» أي تهواهم وتجلّهم. ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفي صحيح البخاريّ عن ابنِ عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه:

[٣٧٧٥] «فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكَته فلم يجد إسمعيل، فسأل ٱمرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألهم عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة؛ فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عَتَبة بابه، فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد! قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنّا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاكِ بشيء: قالت: أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيّر عَتَبة بابك؛ قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك ٱلْحَقِي بأهلك؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، ودخل على ٱمرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبيّ ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه؛ وذكر الحديث. وقال ابن عباس: قول إبراهيم ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكْنى بمكة، فيصير بيتاً محرّماً، وكل ذلك كان والحمد لله. وأول من سكنه جُرْهُم. ففي البخاريّ ـ بعد قوله: وإن الله لا يُضيِّع أَهْلَه ـ وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كُدًا، فنزلوا بأسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً[1] فقالوا:

[٣٧٧٥] تقدم برقم ٣٧٦٨ وهو حديث طويل.

(١) هو المتردد حول الماء.

إن هذا الطائر ليَدُور على ماء! لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء؛ فأرسلوا جَرِيًا أو جَرِيَّين[1] فإذا هُم بالماء، فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأمّ إسمعيل عند الماء؛ فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حقّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «[فألفى][2] ذلك أمّ إسمعيل وهي تحب الأنس» فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، شَبَّ الغلامُ، وماتت أم إسمعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوّج إسمعيل يطالع تَرِكَته؛ الحديث.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ﴾ أي ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا. وقال ابن عباس ومقاتل: تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسمعيل وأمه حيث أُسْكِنَا بوادٍ غير ذي زرع. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ قيل: هو من قول إبراهيم. وقيل: هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ﴾ قال الله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي على كبر سني وسنّ امرأتي؛ قال ابن عباس: ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وإسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جُبَير: بُشِّر إبراهيمُ بإسحق بعد عشر ومائة سنة. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾. قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيمها. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ أي عبادتي كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال عليه السلام:

[٣٧٧٦] «الدعاءُ مُخُّ العبادة» وقد تقدم في «البقرة». ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ

[٣٧٧٦] تقدم وهو بهذا اللفظ ضعيف، والصحيح «الدعاء هو العباد».

---

(١) الجري: الرسول.

(٢) ألفى فعل. وفاعله ذلك. والإشارة تعود على الاستئذان.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: استغفر إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله. قال القُشَيريّ: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في ٱستغفاره لأبيه دون أمه.

قلت: وعلى هذا قراءة سعيد بن جبير، ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ يعني أباه. وقيل: ٱستغفر لهما طمعاً في إيمانهما. وقيل: ٱستغفر لهما بشرط أن يُسلما. وقيل: أراد آدم وحوّاء. وقد رُوي أن العبد إذا قال: اللهم ٱغفر لي ولوالديَّ وكان أبواه قد ماتا كافرين ٱنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع. وقيل: إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق. وكان إبراهيم النخعي يقرأ: «وَلِوَلَدَيّ» يعني ٱبنيه، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر؛ ذكره الماوَرْدي والنحاس. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: من أمة محمد ﷺ. وقيل: «لِلْمُؤْمِنِينَ» كلهم وهو أظهر. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ أي يوم يقوم الناس للحساب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ وهذا تسلية للنبي ﷺ بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم؛ أي ٱصبر كما صبر إبراهيم، وأَعْلِم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم، بل سنّة الله إمهال العصاة مدة. قال ميمون بن مِهْران: هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني مشركي مكة يمهلهم ويؤخر عذابهم. وقراءة العامة «يُؤَخِّرُهُمْ» بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: «وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ». وقرأ الحسن والسُّلَمي وروي عن أبي عمرو أيضاً «نُؤَخِّرُهُمْ» بالنون للتعظيم. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم، قاله الفراء. يقال: شَخَص الرجلُ بَصرَه وشَخَص البصرُ نفسُه أي سَمَا وطَمَح من هول مَا يرى. قال ابن عباس: تَشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَرْمَضُون. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين؛ قاله الحسن وقَتادة وسعيد بن جبير؛ مأخوذ من أهطع يُهطع إهطاعاً إذا أسرع. ومنه قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] أي مسرعين. قال الشاعر:

بِــدجْلَــةَ دارُهُــمْ ولقَــدْ أرَاهُــمْ ... بِــدجْلَــةَ مُهطِعِيــنَ إلَــى السَّمَــاعِ

وقيل: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع؛ أي ناظرين من غير أن يَطْرفوا؛ قاله ابن عباس، وقال مجاهد والضحّاك: «مُهْطِعِينَ» أي مديمي النظر. وقال النحاس: والمعروف في اللغة أن يقال: أهطع إذا أسرع؛ قال أبو عبيد: وقد يكون الوجهان جميعاً يعني الإسراع مع إدامة النظر. وقال ابن زيد: المهطع الذي لا يرفع رأسه. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾

ي رافعي رؤوسهم ينظرون في ذلّ. وإقناع الرأس رفعه؛ قاله ابن عباس ومجاهد. قال بن عرفة والقُتَبيّ وغيرهما: المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه؛ ومنه لإقناع في الصلاة[1] وأقنع صوته إذا رفعه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد. وقيل: ناكسي رؤوسهم؛ قال المهدويّ: ويقال أقنع إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلّة وخضوعاً، والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرّد، والقول الأول أعرف في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْغَضَ[2] نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا ... كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شيئاً أَطْمَعَا

وقال الشَّمَّاخ يصف إبلاً:

يُبَاكِرْنَ العِضَاهَ[3] بِمُقْنَعَاتٍ ... نَوَاجِذُهنّ كَالْحَدَإِ الْوَقِيعِ

يعني: برؤوس مرفوعات إليها لتتناولهن. ومنه قيل: مِقْنَعة لارتفاعها[4]. ومنه قَنِع الرجل إذا رَضِي؛ أي رفع رأسه عن السؤال. وقَنَع إذا سأل أي أتى ما يتقنّع منه؛ عن النحاس. وفم مُقْنَع أي معطوفة أسنانه إلى داخل. ورجل مُقنَّع بالتشديد؛ أي عليه بَيْضة قاله الجوهري. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر. يقال: طَرَف الرجلُ يَطْرِف طَرْفاً إذا أطبق جَفْنه على الآخر، فسمّي النظر طَرْفاً لأنه به يكون. والطَّرْف العين. قال عَنْتَرة:

وَأَغُضّ طَرْفِي ما بَدَتْ لِي جَارَتِي ... حتّى يُوَارِي جارتِي مَأْوَاهَا

وقال جَمِيل:

وَأَقْصِر طَرْفِي دُونَ جُمْلٍ كَرَامةً ... لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الَّذِي أَنَا قاصِرُهْ

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي لا تغني شيئاً من شدّة الخوف. ابن عباس: خاليةٌ من كل خير. السُّديّ: خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم؛ وقال مجاهد ومُرّة وابن زيد: خاوية خربة مُتخرقة ليس فيها خير ولا عقل؛ كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء: إنما هو هَوَاءٌ؛ وقاله ابن عباس. والهواء في اللغة المجوّف الخالي؛ ومنه قول حسان:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... فَأَنْتَ مُجَوَّف نَخِبٌ هَوَاءُ[5]

(١) الإقناع في الصلاة: أن يرفع رأسه فيكون أعلى من ظهره.
(٢) أنغض رأسه: حركهُ.
(٣) العِضاة: شجر عظيم له شوك.
(٤) أي على رأس المرأة.
(٥) المجوف: الجبان. ورجل نخب: أي جبان.

وقال زهير يصف ناقة صغيرة الرأس:

كأن الرحل مِنها فوق صعلٍ ... من الظلمان جؤجؤه هواء[1]

فارغ أي خال؛ وفي التنزيل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي من كل شيء إلا من هم موسى. وقيل: في الكلام إضمار؛ أي ذات هواء وخلاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ قال ابن عباس: أراد أهل مكة. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة؛ أي خوفهم ذلك اليوم. وإنما خصّهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثّواب، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي في ذلك اليوم ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أي أمهلنا. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق في الآخرة. ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي إلى الإسلام. ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾. فيجابوا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني في دار الدنيا. ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ قال مجاهد: هو قسم قريش أنهم لا يبعثون. ابن جريج: هو ما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ فيه تأويلان: أحدهما ـ ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة؛ أي لا تبعثون ولا تحشرون؛ وهذا قول مجاهد. الثاني ـ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أي من العذاب.

وذكر البَيْهَقِيّ عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربعة، فإذا كان في الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١] فيجيبهم الله ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: ١٤] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن

---

(١) الصعل: صغير الرأس. والظليم: ذكر النعام. والجؤجؤ: الصدر.

تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]. ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦] فيجيبهم الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها أبداً؛ خرجه ابن المبارك في «رقائقه»[1] بأطول من هذا ـ وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» ـ وزاد في الحديث ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ قال هذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم؛ قال: فحدّثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أي في بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم، بعد ما تبيّن لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ «وَنُبَيِّنْ لَكُمْ» بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضي؛ وليناسب قوله: «كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ». وقراءة الجماعة، «وَتَبَيَّنَ» وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أي بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ «إن» بمعنى «ما» أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه؛ «وإن» بمعنى «ما» في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا. الثاني ـ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]. الثالث ـ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧] أي ما كنا. الرابع ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]. الخامس: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ

---

(١) في الأصل «دقائقه» والمثبت هو الصواب.

﴿إن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيـهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقرأ الجماعة «وإن كان» بالنون. وقرأ عمرو بن عليّ وابن مسعود وأبيّ «وإن كاد» بالدال. والعامة على كسر اللام في «لتزول» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصباً. وقرأ ابن محيصن وابن جريج والكسائيّ «لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية «وإن» مخفّفة من الثّقيلة، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم؛ أي ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه؛ قال الطَّبَرَيّ: الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ قال أبو بكر الأنباريّ: ولا حجة على مصحف المسلمين في الحديث الذي حدّثناه أحمد بن الحسين: حدّثنا عثمان بن أبي شيبة حدّثنا وكيع بن الجرّاح عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عبد الرحمن بن دانيل قال سمعت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إن جبّاراً من الجبابرة قال لا أنتهي حتى أعلم من في السموات، فعمَدَ إلى فراخ نُسُور، فأمر أن تطعم اللحم، حتى ٱشتدت وعَضَلتْ وٱستعلجتْ[1] أمر بأن يُتخذ تابوتٌ يسع فيه رجلين؛ وأن يجعل فيه عصا في رأسها لحم شديد حمرته، وأن يُستوثق من أرجل النسور بالأوتاد؛ وتُشدّ إلى قوائم التابوت، ثم جلس هو وصاحب له في التابوت وأَثَارَ النّسورَ، فلما رأت اللحم طلبته، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله؛ فقال الجبّار لصاحبه: ٱفتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال: أرى الجبال كأنها ذباب، فقال: أغلق الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد؛ فقال الجبّار لصاحبه: ٱفتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعْداً، فقال: نكّس العصا فنكّسها، فانقضّت النّسور. فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدّة كادت الجبال تزول عن مراتبها منها؛ قال[2]: فسمعت عليّاً رضي الله عنه يقرأ «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية. وقد ذكر الثّعلبيّ هذا الخبر بمعناه، وأن الجبَّار هو النّمرود الذي حاجّ إبراهيم في ربّه، وقال عِكرمة: كان معه في التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخاً بالدماء وقال: كُفيتُ نَفْسَكَ إلهَ السّماء. قال عِكرِمة: تَلطّخ بدم سمكة من السماء، قذفت نفسها إليه من بحر في الهواء معلّق. وقيل: طائر من الطير أصابه السّهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنكِّس اللحم، فهبطت النّسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء، وأنّ الساعة قد قامت، فذلك قوله: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ

---

(١) استعلجت: غلظتْ.

(٢) في صحة نسبة هذا الأثر لعلي فإن روايه، وهو عبد الرحمن بن دانيل لم أجد من ترجمه والأثر من الإسرائيليات والله أعلم.

الجِبَالُ». قال القُشَيريّ: وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال. وذكر الماورديّ عن ابن عباس: أن النّمرود بن كنعان بَنَى الصّرح في قرية الرسِّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً، وصعد منه مع النّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصناً، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعاً، فهذا معنى «وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ» وفي الجبال التي عَنَى زوالها بمكرهم وجهان: أحدهما ـ جبال الأرض. الثاني ـ الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال. وقال القُشَيريّ: «وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ» أي هو عالم بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف. «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ» بكسر اللام؛ أي ما كان مكرهم مكراً يكون له أثر وخطر عند الله تعالى، فالجبال مَثَل لأمر النبي ﷺ. وقيل: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ» في تقديرهم «لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالَ» وتؤثر في إبطال الإسلام. وقرىء «لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبَالُ» بفتح اللام الأولى وضم الثانية؛ أي كان مكراً عظيماً تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢] والجبال لا تزول ولكنّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ اسم الله تعالى و «مخلف» مفعولا تحسب؛ و «رُسُلَهُ» مفعول «وَعْدِهِ» وهو على الاتساع، والمعنى: مخلف وعدِه رسلَه؛ قال الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ . وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ

قال القُتَبيّ: هو من المقدّم الذي يوضحه التأخير، والمؤخّر الذي يوضحه التقديم، وسواء في قولك: مخلف وعدِه رسلَه، ومخلف رسلِه وعدَه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي من أعدائه. ومن أسمائه المنتقم وقد بيّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي اذكر يوم تبدّل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله. وقيل: هو صفة لقوله: «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ». واختلف في كيفية تبديل الأرض، فقال كثير من الناس: إن تبدّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها؛ ورواه ابن مسعود رضي الله عنه؛ خرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شَهْر بن حَوْشَب، قال حدّثني ابن عباس قال: إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرضُ مدَّ الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث. وروي مرفوعاً من حديث أبي هُريرة أن النبيّ ﷺ قال:

[٣٧٧٧] «تبدّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العُكَاظيّ[1] لا ترى فيها عِوجاً ولا أَمْتاً[2] ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى من كان في بطنها ففي بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها» ذكره الغَزْنَويّ. وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها؛ قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها، فمرّة كالمهل ومرة كالدّهان؛ حكاه ابن الأنباريّ؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيَّناً في كتاب «التذكرة» وذكرنا ما للعلماء في ذلك، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبيّ ﷺ. روى مسلم عن ثَوْبان مولَى رسول الله ﷺ قال:

[٣٧٧٨] كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك؛ وذكر الحديث، وفيه: فقال اليهوديّ أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظُّلمة دون الجِسر». وذكر الحديث. وخرّج عن عائشة قالت:

[٣٧٧٩] سئل رسول الله ﷺ عن قوله: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمٰوٰاتُ»

[٣٧٧٧] هو بعض حديث الصور المطول أخرجه البيهقي في البعث ٦٦٨ و ٦٦٩ والطبري ٢/ ٣٣٠ والطبراني في المطولات ٣٦ من حديث أبي هريرة قال عنه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٧٦: هو حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وانظر كلامُه في نهاية البداية ٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

[٣٧٧٨] صحيح. أخرجه مسلم ٣١٥ وابن حبان ٧٤٢٢ واستدركه الحاكم ٣/ ٤٨١ والبيهقي في «البعث» ٣١٥ كلهم من حديث ثوبان وقد اختصره المصنف.

[٣٧٧٩] صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٩١ وأحمد ٦/ ٣٥ والترمذي ٣١٢١ وابن ماجه ٤٢٧٩ وابن حبان ٧٣٨٠ من حديث عائشة رضي الله عنها.

---

(١) نسبة إلى عكاظ. وهو اسم سوق في الجاهلية قرب مكة.

(٢) المكان المرتفع، والتلال الصغار.

فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: «على الصراط». خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وخرجه الترمذيّ عن عائشة وأنها هي السائلة، قال: هذا حديث حسن صحيح؛ فهذه الأحاديث تنصّ على أن السموات والأرض تُبدَّل وتُزَال، ويخلق الله أرضاً أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر. وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ:

[٣٧٨٠] «يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عَفْراء كقُرْصَة النَّقِيّ[1] ليس فيها عَلَمٌ لأحد». وقال جابر[2]: سألت أبا جعفر محمد بن عليّ عن قول الله عز وجل: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ» قال: تُبدّل خُبْزة يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾. [الأنبياء: ٨] وقال ابن مسعود: إنها تبدّل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمَلْ عليها خطيئة. وقال ابن عباس: بأرض من فضّة بيضاء. وقال عليّ رضي الله عنه: تبدّل الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل للعين، وحسبك. ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ أي من قبورهم، وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وهم المشركون. ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة. ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي مشدودين ﴿ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾ وهي الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. ويقال: صَفَدته صَفْداً أي قيّدته والاسم الصَّفَد، فإذا أردت التكثير قلت: صَفَّدته تصفِيداً؛ قال عمرو بن كُلْثوم:

فـآبُـوا بـالنِّهَـابِ وبـالسَّبَـايَـا وأبْنَـا بـالمُلُـوكِ مُصَفَّـدِينَـا

أي مقيّدينا. وقال حسان:

مِـن كـلِّ مَـأْسُـورٍ يُشَـدُّ صِفَـادُهُ صَقْـرٍ إذَا لاَقَـى الْكَـرِيهَـةَ حَـامِ

أي غُلُّهُ، وأصفدته إصفاداً أعطيته. وقيل: صَفَدته وأَصْفَدته جاريان في القيد والإعطاء جميعاً؛ قال النابغة:

فَلَمْ أُعَرِّض أَبَيْتَ الَّلعن[3] بالصَّفَـدِ

فالصَّفَد العطاء؛ لأنه يُقيِّد ويُعْبِد؛ قال أبو الطيب:

[٣٧٨٠] صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٢١ ومسلم ٢٧٩٠ وابن حبان ٧٣٢٠ من حديث سهل بن سعد.

---

(١) أي الدقيق الأبيض.
(٢) جابر هو الجعفي. وأبو جعفر، هو محمد الباقر رضي الله عنه.
(٣) أي أبيت أن تصنع شيئاً تلعن لأجله.

وقَيَّـدتُ نفسِـي فـي ذَرَاكَ مَحَبَّـةً   ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تَقَيَّدَا[1]

قيل: يقرن كل كافر مع شيطان في غُلّ، بيانه قوله: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢] يعني قرناءهم من الشياطين. وقيل: إنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي. ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي قمصهم، عن ابن دُرَيد وغيره، واحدها سِربال، والفعل تَسربلتُ وسَربلتُ غيري؛ قال كعب بن مالك:

تَلْقَـاكُـمُ عَصَـبٌ حَـوْلَ النَّبِيِّ لَهُـمْ   مِنْ نَسْجِ دَاودَ في الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

«مِن قَطِرَانٍ» يعني قطران الإبل الذي تُهْنَأ به؛ قاله الحسن. وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم. وفي الصحيح:

[٣٧٨١] أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِربال من قطران ودِرْع من جَرَب. وروي عن حماد أنهم قالوا: هو النُّحاس. وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء. وفيه قراءة ثالثة: كسر القاف وجزم الطاء؛ ومنه قول أبي النَّجْم:

جَـوْنٌ كَـأَنَّ الْعَـرَقَ الْمَنْتُـوحَـا[2]   لَبَّسَـــهُ الْقِطْـــرَانَ والْمُسُـــوحَـــا

وقراءة رابعة: «مِنْ قِطْرِآنٍ» رويت عن ابن عباس وأبي هُريرة وعِكْرمة وسعيد بن جُبير ويعقوب؛ والقِطْر النحاس والصُّفْر المذاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف: ٩٦]. والآن: الذي قد أنتهى إلى حَرِّه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٤]. ﴿ وَتَغْشَىٰ ﴾ أي تضرب ﴿ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ فتُغَشِّيها. ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي بما كسبت. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي هذا الذي أنزلنا إليك بلاغ؛ أي تبليغ وعظة. ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي ليخوَّفوا عقاب الله عز وجل، وقرىء. «وَلِيَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال، يقال: نَذِرت بالشيء أَنْذَر إذا علمت به فاستعددتَ له، ولم يستعملوا منه مصدراً كما لم

[٣٧٨١] صحيح. أخرجه مسلم ٩٣٤ وأحمد ٥/٣٤٢ وأبو يعلى ١٥٧٧ وعبد الرزاق ٦٦٨٦ وابن ماجه ١٥٨١ واستدركه الحاكم ١/٣٨٣ من حديث أبي مالك الأشعري.

---

(١) الذَّرا: الدار ونواحيها.
(٢) نتح العرقُ: أي خرج من الجلد.

يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم ٱستغنوا بأن والفعل كقولك: سَرَّني أن نَذِرتُ بالشيء. ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ أي وليتّعظ أصحاب العقول. وهذه اللامات في «وَلِيُنْذَرُوا» «وَلِيَعْلَمُوا» «وَلِيَذَّكَرَ» متعلقة بمحذوف؛ التقدير: ولذلك أنزلناه. وروى يَمَان بن رِئَاب أن هذه الآية نزلت[1] في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم؛ قيل: وأين هو؟ قال قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ إلى آخرها. تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله.

تم الجزء التاسع من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العاشر، وأوّله:
سورة «الحجر»

(١) تفرد بهذا يمان بن رئاب، وهو ضعيف يرى رأي الخوارج كما في الميزان، فالآية عامة. والله أعلم.